

المجموعة الكاملة لمؤلفات
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رَحِمَهُ اللهُ

تيسير الكريم الرحمن
في
تفسير كلام المثنان

الجزء الرابع
من تفسير سورة يوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل والإسراء

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

تفسير

سُورَةُ يُوسُفَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ

* يخبر تعالى ، أن آيات القرآن هي [آيات الكتاب المبين] أى : البين الواضحة ألقاظه ، ومعانيه .

ومن بيانه وإيضاحه ، أنه أنزله باللسان العربى ، أشرف الألسنة ، وأبينها .

المبين ، لكل ما يحتاجه الناس ، من الحقائق النافعة .

وكل هذا الإيضاح والتبيين [لعلكم تعقلون] أى : لتعقلوا حدوده ، وأصوله ، وفروعه ، وأوامره ، ونواهيه .

فإذا عقلتم ذلك بإيقانكم ، واتصفت قلوبكم بمعرفة ، أثمر ذلك ، عمل الجوارح ، والانقياد إليه .

و[لعلكم تعقلون] أى : تزداد عقولكم ، بتكرار المعانى الشريفة العالية ، على أذهانكم .

قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ
الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

فتنتقلون من حال إلى أحوال ، أعلى منها وأكمل .

[نحن نقص عليك أحسن القصص] وذلك لصدقه ، وسلاسة عبارته ،
ورونق معانيه .

[بما أوحينا إليك هذا القرآن] أى : بما اشتمل عليه هذا القرآن ،
الذي أوحيناه إليك ، وفضلناك به على سائر الأنبياء ، وذاك محض مِنَّةٍ ،
من الله وإحسان .

[وإن كنت من قبله لمن الغافلين] أى : ما كنت تدري ، ما الكتاب ،
ولا الإيمان ، قبل أن يوحى الله إليك ، ولكن جعلناه نوراً ، نهدي به
من نشاء ، من عبادنا .

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن ، من القصص ، وأنه أحسن
القصص على الإطلاق ، فلا يوجد من القصص ، فى شيء من الكتب ، مثل
هذا القرآن ، ذكر قصة يوسف ، وأبيه ، وإخوته ، القصة العجيبة الحسنة .

فقال : (إذ قال يوسف) إلى (إن ربك عليم حكيم) .

﴿١٠﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ
كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ يَبْنَئِي

واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله ، أحسن القصص في هذا الكتاب .

ثم ذكر هذه القصة ، وبسطها ، وذكر ما جرى فيها ، فعلم بذلك ، أنها قصة تامة ، كاملة حسنة .

فمن أراد أن يكملها أو يحسنها ، بما يذكر في الإسرائيليات ، التي لا يعرف لها سند ، ولا ناقل ، وأغلبها كذب ، فهو مستدرك على الله ، ومكمل لشيء ، يزعم أنه ناقص .

وحسبك بأمر ينتهى إلى هذا الحد قبحاً ، فإن تضاعف هذه السورة ، قد ملئت في كثير من التفسير ، من الأكاذيب ، والأمور الشنيعة المناقضة ، لما قصه الله تعالى بشيء كثير .

فعلى العبد أن يفهم عن الله ، ما قصه ، وبدع ، ما سوى ذلك ، مما ليس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ينقل .

فقوله تعالى : [إذ قال يوسف لأبيه] يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ، عليهم الصلاة والسلام :

[يا أبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ] .

فكانت هذه الرؤيا ، مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام ، من الارتقاء في الدنيا والآخرة .

لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ
لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن
تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأصول العظام ، قدم بين يديه مقدمة ،
توطئة له ، وتسهيلاً لأمره ، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق ، ولطفاً
بعبده ، وإحساناً إليه .

فأولها يعقوب ، بأن الشمس : أمه ، والقمر أبوه ، والكواكب ،
إخوته .

وأنه ستنقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له ، ويسجدون
له ، إكراماً وإعظاماً .

وأن ذلك لا يكون ، إلا بأسباب تتقدمه من اجتهاد الله له ، واصطفائه
إياه ، وإتمام نعمته عليه ، بالعلم والعمل ، والتمكين في الأرض .

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب ، الذين سجدوا له ، وصاروا
تبعاً له فيها .

ولهذا قال : [وكذلك يجتبيك ربك] أى : يصطفيك ويختارك بما
منَّ به عليك من الأوصاف الجليلة ، والمناقب الجميلة .

[ويعلمك من تأويل الأحاديث] أى : من تعبير الرؤيا ، وبيان
ما تنول إليه الأحاديث الصادقة ، كالكتب السماوية ونحوها .

[ويتم نعمته عليك] في الدنيا والآخرة ، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة ،
وفي الآخرة حسنة .

أَتَمَّهَا عَلَى آبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٦﴾

[كما أتمها على أبويك من قبل ، إبراهيم ، وإسحق] حيث أنعم الله
عليهما ، بِنِعْمٍ عظيمة واسعة ، دينية ، ودنيوية .

[إن ربك عليم حكيم] أى : علمه محيط بالأشياء ، وبما احتوت عليه ،
ضمان العباد ، من البر وغيره .

فيعطى كلاً ، ما تقتضيه حكمته وحده ، فإنه حكيم ، يضع الأشياء
مواضعها ، وينزلها منازلها .

ولما تم تعبيرها ليوسف ، قال له أبوه : [يا بني لا تقصص رؤياك على
إخوتك فيكيدوا لك كيدا] أى : حسداً من عند أنفسهم ، بأن تكون
أنت الرئيس الشريف عليهم .

[إن الشيطان للإنسان عدو مبين] لا يفتر عنه ، ليلاً ولا نهاراً ،
ولا سراً ، ولا جهاراً .

فالبعد عن الأسباب ، التي يتسلط بها على العبد ، أولى .

فامتثل يوسف أمر أبيه ، ولم يخبر إخوته بذلك ، بل كتمها عنهم .

﴿٧﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ
إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا
لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ

• يقول تعالى : [لقد كان في يوسف وإخوته آيات] أى عبرة وأدلة ،
على كثير من المطالب الحسنة .

[للسائلين] أى : لكل من سأل عنها ، بلسان الحال ، أو بلسان المقال .
فإن السائلين ، هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر .

وأما الممرضون ، فلا ينتفعون بالآيات ، ولا بالقصص ، والبيئات .

[إذ قالوا] فيما بينهم : [ليوسف وأخوه] بنيامين ، أى : شقيقه ،
وإلا ، فكلهم إخوة .

[أحب إلى أئينا منا ونحن عصبة] أى : جماعة ، فكيف يفضلها
بالحبة والشفقة .

[إن أبانا لفي ضلال مبين] أى : لنى خطأ بيّن ، حيث فضلها علينا ،
من غير موجب نراه ، ولا أمر نشاهده .

[اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا] أى : غيبوه عن أبيه ، فى أرض
بعيدة ، لا يتمكن من رؤيته فيها .

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين [يخل لكم وجه أبيكم] .

أى : يتفرغ لكم ، ويقبل عليكم بالشفقة والحبة ، فإنه قد اشتغل قلبه
بيوسف ، شغلا ، لا يتفرغ لكم .

وَجْهَ أَيِّكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾
 ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقُوَّةَ فِي غَيْبَتِ
 الْجَبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴿١٠﴾

[وتكونوا من بعده] أى : من بعد هذا الصنيع [قوما صالحين]
 أى : تقوبون إلى الله ، وتستغفرونه من بعد ذنبكم .

فقدموا العزم على التوبة ، قبل صدور الذنب منهم تسهيلات لفعله ، وإزالة
 لشناعته ، وتنشيطاً من بعضهم لبعض .

* أى : [قال قائل] من إخوة يوسف ، الذين أرادوا قتله ، أو تبعيده :
 [لا تقتلوا يوسف] فإن قتله أعظم إثماً ، وأشنع .

والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه ، من غير قتل ، ولكن توصلوا
 إلى تبعيده بأن تلقوه [في غيابة الجب] وتتوعدوه ، على أنه لا يخبر بشأنكم ،
 بل على أنه عبد مملوك آبق ، لأجل أن [يلتقطه بعض السيارة] الذين
 يريدون مكاناً بعيداً ، فيحتفظوا فيه .

وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف ، وأبرهم ، وأتقاهم في هذه القضية .

فإن بعض الشر ، أهون من بعض ، والضرر الخفيف ، يدفع به
 الضرر الثقيل .

فلما اتفقوا على هذا الرأي (قالوا يا أبانا) إلى قوله (إنا إذا لخاسرون).

﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ
لَنَصِِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ
لَحَفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ

* أى : قال إخوة يوسف ، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم :
[يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون] أى : لأى شىء
يدخلك الخوف منا ، على يوسف ، من غير سبب ، ولا موجب ؟
[و] الحال [إنا له لناصحون] أى : مشفقون عليه ، نودله ما نود لأنفسنا .
وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام ، لا يترك يوسف يذهب مع
إخوته للبرية ونحوها .

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة ، لعدم إرساله معهم ، ذكروا له
من مصلحة يوسف وأنسه ، الذى يحبه أبوه له ، ما يقتضى أن يسمح بإرساله
معه ، فقالوا :

[أرسله معنا غداً يرتع ويلعب] أى : يتنزه فى البرية ويستأنس .
[وإنا له لحافظون] أى سنراعيه ، ونحفظه من كل أذى يريده .
فأجابهم بقوله : [إني ليحزننى أن تذهبوا به] أى مجرد ذهابكم به ،
يحزننى ، ويشق علىّ ، لأننى لا أقدر على فراقه ، ولو مدة يسيرة .

فهذا مانع من إرساله [و] مانع ثان ، وهو : أنى [أخاف أن يأكله
الذئب وأنتم عنه غافلون] أى : فى حال غفلتكم عنه ، لأنه صغير ، لا يتمتع
من الذئب .

الذُّبُ وَأَتُمُّ عَنْهُ غَفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَنْ أَكَلَهُ الذُّبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ
إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

[قالوا لن أكله الذب ونحن عصبة] أى : جماعة ، حريصون
على حفظه .

[إنا إذا لخاسرون] أى : لا خير فينا ، ولا نفع يرجى منا ، إن أكله
الذب ، وغلبنا عليه .

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله ، وعدم الموانع ، سمح حينئذ
بإرساله معهم ، لأجل أنسه .

* أى : لما ذهب إخوة يوسف ، بعد ما أذن له أبوه ، وعزموا أن
يجعلوه في غيابة الجب ، كما قال قائلهم ، السابق ذكره ، وكانوا قادرين على
ما أجمعوا عليه ، فنفذوا فيه قدرتهم ، وألقوه في الجب .

ثم إن الله ، لطف به ، بأن أوحى إليه وهو ب تلك الحال الحرجة .

[لتنبئهم بأمرهم هذا ، وهم لا يشعرون] أى : سيكون منك معاتبة
لهم ، وإخبار عن أمرهم هذا ، وهم لا يشعرون بذلك الأمر .

ففيه بشارة له ، بأنه سينجو مما وقع فيه ، وأن الله سيجمعه بأهله
وإخوته ، على وجه العز والتسكين له ، في الأرض .

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا
نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ

[وجاءوا أباهم عشاء يبكون] ليكون إتيانهم ، متأخراً عن عادتهم ،
وبكاؤهم دليلاً لهم ، وقرينة على صدقهم .

فقالوا — معتذرين بعذر كاذب — [يا أبانا إنا ذهبنا نستبق] إما على
الأقدام ، أو بالرمي والنضال .

[وتركنا يوسف عند متاعنا] توفيراً له وراحة .

[فأكله الذئب] في حال غيابنا عنه واستباقنا .

[وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين] أى : اعتذرنا بهذا العذر ،
والظاهر أنك لاتصدقنا ، لما فى قلبك من الحزن على يوسف ، والرقّة
الشديدة عليه .

ولكن عدم تصديقك إيانا ، لايمنعنا أن نعتذر بالعذر الحقيقى ، وكل
هذا ، تأكيد لعذرهم .

[و] مما أكدوا به قولهم ، أنهم [جاءوا على قميصه بدم كذب]
زعموا ، أنه دم يوسف ، حين أكله الذئب ، فلم يصدقهم أبوهم بذلك .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ
عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

و [قال]: [بل سولت لكم أنفسكم أمراً] أى : زينت لكم أنفسكم
أمراً قبيحاً فى التفريق بينى وبينه ، لأنه رأى من القرائن والأحوال ، ومن
رؤيا يوسف ، التى قصها عليه ، ما دله على ما قال .

[فصر جميل والله المستعان على ما تصفون] أى : أما أنا ، فوظيفتى
سأحرص على القيام بها ، وهى أنى أصبر على هذه المحنة ، صبرا جميلا ، سالماً
من السخط والتشكى إلى الخلق ، وأستمع الله على ذلك ، لا على حولى
وقوتى .

فوعده من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه فى قوله : [إنما أشكو بثي
وحزنى إلى الله] لأن الشكوى إلى الخالق ، لا تنافى الصبر الجميل ، لأن
النبي ، إذا وعد ، وفى .

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ
 قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضْعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا
 يَفْعَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ
 مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

* أى : مكث يوسف فى الجب ، ما مكث ، حتى [جاءت سيارة]
 أى : قافلة تريد مصر .

[فأرسلوا واردهم] أى . فرطهم ومقدمهم ، الذى يعس لهم المياه ،
 ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك .

[فأدلى] ذلك الوارد [دلوه] فتعلق فيه يوسف عليه السلام ، وخرج .

[قال ، يا بشرى هذا غلام] أى : استبشر وقال : هذا غلام نفيس .

[وأسروه بضاعة] وكان إخوته قريباً منه ، فاشتراه السيارة منهم .

[بثمن بخس] أى . قليل جداً ، فسر به بقوله : [دراهم معدودة وكانوا

فيه من الزاهدين] .

لأنه لم يكن لهم قصد ، إلا تغييبه ، وإبعاده عن أبيه ، ولم يكن لهم قصد
 فى أخذه ثمنه .

والمعنى فى هذا : أن السيارة ، لما وجدوه ، عزموا أن يُسْرِثُوا أمره ،
 ويجعلوه من جملة بضائعهم ، التى معهم ، حتى جاءهم إخوته ، فزعوا أنه
 عبد أبق منهم .

فاشتروه منهم ، بذلك الثمن ، واستوثقوا منهم فيه ، لئلا يهرب .
 والله أعلم .

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ
عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ
فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾

* أى لما ذهب به السيارة إلى مصر ، وباعوه بها ، فاشتراه
عزيز مصر .

فلما اشتراه ، أعجب به ، ووصى عليه امرأته وقال :

[أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً] أى : إما ان ينفعنا
كنفع العبيد ، بأنواع الخدم .
وإما أن نستمتع فيه ، استمتعنا بأولادنا ، ولعل ذلك أنه لم يكن
لها ولد .

[وكذلك مكنا ليوسف في الأرض] أى : كما يسرنا له أن يشتريه عزيز
مصر ، ويكرمه هذا الإكرام ، جعلنا هذا ، مقدمة لتكينه في الأرض ،
من هذا الطريق .

[ولنعلمه من تأويل الأحاديث] إذا بقي لا شغل له ولا هم سوى العلم
صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً ، من علم الأحكام ، وعلم التعبير ،
وغير ذلك .

[والله غالب على أمره] أى : أمره تعالى نافذ ، لا يبطله مبطل ،
ولا يغلبيه مغالب .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] . فلذلك يجري منهم ، ويصدر ، في
مغالبة أحكام الله القدرية ، وهم أعجز ، وأضعف من ذلك .

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ

نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢٢)

﴿وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ

• أى : [لما بلغ] يوسف [أشده] أى : كمال قوته المعنوية والحسية ،
وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة ، من النبوة ، والرسالة .

[آتيناه حكمة وعلماً] أى : جعلناه نبيا رسولا ، وعالما ربانيا .

[وكذلك نجزي المحسنين] فى عبادة الخالق ، ببذل الجهد والنصح
فيها ، وإلى عباد الله ، ببذل النفع والإحسان إليهم ، تؤتيهم من جملة الجزاء
على إحسانهم ، علماً نافعا .

ودل هذا ، على أن يوسف فى مقام الإحسان ، فأعطاه الله الحكم بين
الناس ، والعلم الكثير والنبوة .

• هذه المحنة العظيمة ، أعظم على يوسف ، من محنة إخوته ، وصبره
عليها ، أعظم أجراً ، لأنه صبر اختيار ، مع وجود الدواعى الكثيرة ،
لوقوع الفعل ، فقدم محبة الله عليها .

وأما محنته بإخوته ، فصبره صبر اضطرار ، بمنزلة الأمراض والمكاره التى
تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها ، طائعا أو كارها .
وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام ،بقى مكروماً فى بيت العزيز .

وكان له من الجمال ، والكمال ، والبهاء ، ما أوجب ذلك ، أن
[راودته التى هو فى بيتها عن نفسه] أى : هو غلامها ، وتديرها ،
والسكن واحد ، يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه ، من غير شعور أحد ،
ولا إحساس بشر .

الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ

[و] زادت المصيبة ، بأن [غلقت الأبواب] وصار المحل خاليا ، وهما
آمنان من دخول أحد عليهما ، بسبب تغليق الأبواب .

وقد دعتة إلى نفسها [وقالت : هيت لك] أى : افعَل الأمر المكروه
وَأَقْبِلْ إِلَىَّ .

ومع هذا ، فهو غريب ، لا يحتشم مثله ، ما يحتشمه إذا كان فى وطنه ،
وبين معارفه .

وهو أسير تحت يدها ، وهى سيدته ، وفيها من الجمال ، ما يدعو إلى
ما هنالك .

وهو شاب عزب ، وقد توعدته ، إن لم يفعل ما تأمره به ، بالسجن ،
أو العذاب الأليم .

فصبر عن معصية الله ، مع وجود الداعى القوى فيه ، لأنه قد هم فيها
هما ، تركه الله ، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء .

ورأى من برهان ربه — وهو مامعه من العلم والإيمان ، الموجب ،
لترك كل ما حرم الله — ما ^(١) أوجب له البعد والانكفاف ، عن هذه
المعصية الكبيرة .

[قال . معاذ الله] أى . أعوذ بالله ، أن أفعل هذا الفعل القبيح ،
لأنه مما يسخط الله ، ويبعد عنه ، ولأنه خيانة فى حق سيدى ، الذى أكرم
مَثْوَايَ .

(١) قوله (ما) مفعول به لـ (رأى) .

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَّبَّهَا
بُرْهَنَ رَبَّهُ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا

فلا يليق بى ، أن أقابله فى أهله ، بأقبح مقابلة ، وهذا من أعظم الظلم
والظالم لا يفلح .

والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل ، تقوى الله ، ومراعاة
حق سيده ، الذى أكرمه ، وصيانة نفسه عن الظلم ، الذى لا يفلح من
تعاطاه .

وكذلك ما من الله عليه ، من برهان الإيمان ، الذى فى قلبه ، يقتضى
منه ، امتثال الأوامر ، واجتناب الزواجر .

والجامع لذلك كله . أن الله صرف عنه السوء والفحشاء ، لأنه من
عباده المخلصين له ، فى عباداتهم ، الذين أخلصهم الله ، واختارهم ، واختصهم
لنفسه ، وأسدى عليهم من النعم ، وصرف عنهم المكروه ، ما كانوا به
من خيار خلقه .

ولما امتنع من إجابة طلبها ، بعد المراودة الشديدة ، وذهب ليهرب
عنها ، ويبادر إلى الخروج من الباب ، ليتخلص ، ويهرب من الفتنة .

فبادرت إليه ، وتعلقت بثوبه ، فشقت قميصه .

فلما وصلا إلى الباب ، فى تلك الحال ، ألقيا سيدها ، أى . زوجها لدى
الباب ، فرأى أمراً شق عليه .

فبادرت إلى الكذب ، وادعت أن المراودة ، قد كانت من يوسف ،
وقالت :

سَيِّدَهَا لَدَا أَلْبَابٍ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ
يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ
شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ

[ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً] ولم تقل « من فعل بأهلك سوءاً »
تبرئة لها ، وتبرئة له أيضاً ، من الفعل .

وإنما النزاع عن الإرادة ، والمراده .

[إلا أن يسجن أو عذاب أليم] أى : أو يعذب عذاباً أليماً .

فبرأ نفسه ، مما رمته به ، وقال : [هى راودتنى عن نفسى] فحينئذ
احتملت الحال ، صدق كل واحد منهما ، ولم يعلم أيهما .

ولكن الله تعالى ، جعل للحق والصدق ، علامات ، وأمارات تدل
عليه ، قد يعلمها العباد ، وقد لا يعلمونها .

فإن الله فى هذه القضية ، بمعرفة الصادق منهما ، تبرئة لنبيه وصفيه ،
يوسف عليه السلام .

فبعث شاهداً من أهل بيتها ، يشهد بقرينة من وجدت معه ، فهو
الصادق ، فقال :

[إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين] لأن ذلك
يدل على أنه هو القبل عليها ، المراد لها ، المعالج ، وأنها أرادت أن تدفعه
عنها ، فشقت قميصه من هذا الجانب .

مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ
وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ
كِدِّكَنَّ إِنَّ كَيْدَ كُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا
وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

[وإن كان قميصه قد من دبر ، فكذبت وهو من الصادقين] لأن
ذلك ، يدل على هروبه منها ، وأنها هي التي طلبته ، فتقت قميصه من
هذا الجانب .

[فلما رأى قميصه قد من دبر] عرف بذلك صدق يوسف وبرأته ،
وأنها هي الكاذبة .

فقال لها سيدها : [إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم] وهل أعظم من
هذا الكيد ، الذي برأت به نفسها ، لما أرادت وفعلت ، ورمت به نبي
الله ، يوسف عليه السلام .

ثم إن سيدها لما تحقق الأمر ، قال ليوسف : [يوسف أعرض عن
هذا] .

أي : اترك الكلام فيه ، وتناسه ، ولا تذكره لأحد ، طلباً للستر
على أهله .

[واستغفرى] أيها المرأة [لذنبك إنك كنت من الخاطئين] فأمر
يوسف بالإعراض ، وأمرها بالاستغفار والتوبة .

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا
عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ
بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكِنًا وَآتَتْ كُلَّ

يعنى : أن الخبر اشتهر وشاع فى البلد ، وتحدث به النسوة ، فجعلن
يلعننها ، ويقولن :

[امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً] أى : هذا أمر
مستفح ، هى امرأة كبيرة القدر ، وزوجها كبير القدر ، ومع هذا ، لم تزل
تراود فتاها ، الذى تحت يدها ، وفى خدمتها — عن نفسه .

ومع هذا فإن حبه ، قد بلغ من قلبها ، مبلغاً عظيماً .

[قد شغفها حباً] ، أى : وصل حبه إلى شغاف قلبها ، وهو : باطنه
وسويداؤه .

وهذا أعظم ما يكون من الحب .

[إنا لنها فى ضلال مبين] حيث وجدت منها هذه الحالة ، التى لا ينبغى
منها ، وهى حالة تحط قدرها ، وتضعه عند الناس .

وكان هذا القول منهن مكرراً ، ليس المقصود به ، مجرد اللوم لها ،
والقدح فيها .

وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام ، إلى رؤية يوسف ، الذى
فقت به امرأة العزيز ، لتحقق امرأة العزيز ، وتريهن إياه ، ليعذرنها ولهذا
سماء : مكرراً ، فقال :

[فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن] تدعوهن إلى منزلها للضيافة .

وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْتُهُ أَكْبَرْتُهُ
وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ

[وأعتدت لمن متكناً] أى : محلاً مهيأ بأنواع الفرش والوسائد ،
وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة ، وكان فى جملة ما أتت به وأحضرتة ،
فى تلك الضيافة ، طعام يحتاج إلى سكين ، إما أترج ، أو غيره .
[وأتت^(١) كل واحدة منهن سكيناً] ليقطعن بها ذلك الطعام [وقالت]
ليوسف :

[أخرج عليهن] فى حالة جماله وبهائه .
[فلما رأينه أكبرنه] أى : أعظمته فى صدورهن ، ورأين منظراً فائئاً ،
لم يشاهدن مثله .

[وقطعن] من الدهش [أيديهن] بقلك السكاكين ، اللاتى معهن .
[وقلن : حاش لله] أى تنزيهاً لله [ما هذا بشراً] إن هذا إلاملك كريم .
وذلك أن يوسف ، أُعْطِيَ من الجمال الفائق ، والنور ، والبهاء ،
ما كان به آية للناظرين ، وعبرة للمتأملين .

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر ، وأعجبهن غاية العجب ، وظهر
منهن من العذر لامرأة العزيز ، شئ كثير — أرادت أن تريهن جماله
الباطن ، بالعبقة التامة — فقالت — معلنة لذلك ، ومبينة لحبه الشديد ، غير
مبالية ، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة :

(١) أى : أعطت .

نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا
مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
وَأِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾

[فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم] أى: امتنع
وهى مقبلة على مراودته ، لم تزلها مرور الأوقات ، إلا قلقا ومحبة وشوقا
لوصاله وتوقا .

ولهذا قالت له بحضرتين : [ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا
من الصاغرين] .

لتلجئه بهذا الوعيد ، إلى حصول مقصودها منه .

فعند ذلك ، اعتصم يوسف بربه ، واستعان به على كيدهن و [قال
رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه] وهذا يدل ، أن النسوة ، جعلن
يشرن على يوسف فى مطاوعة سيدته ، وجعلن يكذبنه فى ذلك .

فاستحب السجن والعذاب الدنيوى ، على لذة حاضرة ، توجب العذاب
الشديد .

[وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن] أى : أمل إليهن ، فإنى
ضعيف عاجز .

إن لم تدفع عني سوء ، صبت إليهن [وأكن من الجاهلين] فإن
هذا جهل .

لأنه آثر لذة قليلة منغصة ، على لذات متتابعات ، وشهوات متنوعات ،
فى جنات النعيم .

فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيْسَجْنُهُنَّ حَتَّى
حِينَ ﴿٣٥﴾

ومن أثر هذا ، على هذا ، فمن أجهل منه ؟ !! فإن العلم والعقل ،
يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين ، وأعظم اللذتين ، ويؤثر ، ما كان
محمود العاقبة .

[فاستجاب له ربه] حين دعاه [فصرف عنه كيدهن] فلم تزل تراوده
وتستمعين عليه ، بما تقدر عليه من الوسائل ، حتى آيسها ، وصرف الله
عنه كيدها .

[إنه هو السميع] لدعاء الداعي [العليم] بنيته الصالحة ، وبنيته الضعيفة
الملتضية لإمداده بمعونته ولطفه .

فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملهمة ، والحنة الشديدة .
وأما أسياده ، فإنه لما اشتهر الخبر وبان ، وصار الناس فيها ، بين
عاذر ، ولائم ، وقادح .

[بدا لهم] أى : ظهر لهم [من بعد ما رأوا الآيات] الدالة
على براءته .

[ليسجننه حتى حين] أى : لينقطع بذلك ، الخبر ، ويتناساه الناس .
فإن الشيء إذا شاع ، لم يزل يذكر ، ويشيع ، مع وجود أسبابه ،
فإذا عدمت أسبابه نُسى .

فرأوا أن هذا مصلحة لهم ، فأدخلوه في السجن .

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي
أَعِصْرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا
تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْنَأُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾
قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبْنَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ

* أى [و] لما دخل يوسف السجن ، كان من جملة من [دخل معه
السجن فتيان] أى : شابان ، فرأى كل واحد منهما رؤيا ، فقصها على
يوسف ليعبرها .

[قال أحدهما : إني أراى أعصر خمرا ، وقال الآخر : إني أراى أحمل
فوق رأسى خبزا] وذلك الخبز [تأكل الطير منه] .
[نبئنا بتأويله] أى : بتفسيره ، وما يثول إليه أمره .

وقولهما : [إنا نراك من المحسنين] أى : من أهل الإحسان إلى الخلق
فأحسن إلينا فى تعبيرك لرؤيانا ، كما أحسنت إلى غيرنا ، فتوسلا ليوسف
بإحسانه .

[قال] لهما مجيبا لطلبهما : [لا يأتىكما طعام ترزقانه ، إلا نبأتكما
بتأويله ، قبل أن يأتىكما] أى : فلتطمئن قلوبكما ، فإنى سأبادر إلى تعبير
رؤياكما ، فلا يأتىكما غداؤكما ، أو عشاؤكما ، أول ما يجرى . إليك ، إلا نبأتكما
بتأويله ، قبل أن يأتىكما .

ولعل يوسف ، عليه الصلاة والسلام ، قصد أن يدعوها إلى الإيمان
فى هذه الحال ، التى بدت حاجتهما إليه ، ليكون أنجع لدعوته ،
وأقبل لهما .

يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

ثم قال : [ذلكما] التعبير الذي سأعبره لكما [مما علمني ربي] .

أى : هذا من علم الله علمنيه ، وأحسن إلىَّ به ، وذلك [إني تركت
ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون] .

والترك ، كما يكون للداخل فى شيء ثم ينتقل عنه ، يكون لمن لم يدخل
فيه أصلا .

فلا يقال : إن يوسف ، كان من قبل ، على غير ملة إبراهيم .

(واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب) ثم فسر تلك
اللة بقوله :

(ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء) بل نفرد الله بالتوحيد ، ونخلص
له الدين والعبادة .

[ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس] أى : هذا من أفضل مَنِّهِ
وإحسانه وفضله علينا ، وعلى من هداه الله كما هدانا ، فإنه لا أفضل من
مِنَّةِ الله على العباد بالإسلام ، والدين القويم .

فمن قبله وانتقاد له ، فهو حظه ، وقد حصل له أكبر النعم وأجل
الفضائل .

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَبِي السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ
الْوَحْدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا

[ولكن أكثر الناس لا يشكرون] فلذلك تأتيهم المنة والإحسان ،
فلا يقبلونها ، ولا يقومون لله بحق .

وفي هذا ، من الترغيب للطريق ، التي هو عليها ، ما لا يخفى .

فإن الفتيين — لما تقرر عنده ، أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال ،
وأنه محسن معلم — ذكر لهما أن هذه الحالة ، التي أنا عليها ، كلها من فضل
الله وإحسانه ، حيث مَنْ عَلَى بترك الشرك ، واتباع ملة آبائي ، فبهذا
وصلت إلى ما رأيتم ، فينبغي لكما أن تسلكا ما سلكت .

ثم صرح لهما بالدعوة فقال : [يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير
أم الله الواحد القهار] أي : أرباب عاجزة ضعيفة ، لا تنفع ولا تضر ، ولا تعطى
ولا تمنع ، وهي متفرقة ، ما بين أشجار ، وأحجار ، وملائكة ، وأموات ،
وغير ذلك من أنواع المعبودات ، التي يتخذها المشركون .

أذلك [خير أم الله] الذي له صفات الكمال ، [الواحد] في ذاته ،
وصفاته ، وأفعاله فلا شريك له في شيء من ذلك .

[القهار] الذي انتادت الأشياء لقهره وسلطانه ، فما شاء كان وما لم يشأ
لم يكن « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » .

ومن المعلوم ، أن من هذا شأنه ووصفه ، خير من الآلهة المتفرقة ، التي
هي مجرد أسماء ، لا كمال لها ، ولا فعال لديها .

ولهذا قال : [ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم]

أَتُمَّ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا أُنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
أَمْرٌ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

أى : كسوتوها أسماء ، سميتوها آلهة ، وهى لاشيء ، ولا فيها من
صفات الألوهية شيء .

[ما أنزل الله بها من سلطان] بل أنزل الله السلطان بالنهاى عن عبادتها
وبيان بطلانها .

وإذا لم ينزل الله بها سلطانا ، لم يكن طريق ، ولا وسيلة ،
ولا دليل لها .

[إن ^(١) الحكم إلا لله] وحده ، فهو الذى يأمر وينهى ، ويشرع
الشرائع ، ويسن الأحكام .

وهو الذى [أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم] أى : المستقيم
الموصل إلى كل خير ، وما سواه من الأديان ، فإنها غير مستقيمة ، بل
معوجة ، توصل إلى كل شر .

[ولكن أكثر الناس لا يعلمون] حقائق الأشياء .

وإلا فإن الفرق بين عبادة الله ، وحده لا شريك له ، وبين الشرك به ،
من أظهر الأشياء وأبينها .

(١) « إن » حرف نفي . أى : لا حكم إلا لله .

يَصْحَبِي السَّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا
وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي
فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك ، حصل منهم ما حصل ،
من الشرك .

فيوسف عليه السلام ، دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده ، وإخلاص
الدين له .

فيحتمل أنهما استجابا وانقادا ، فتمت عليهما النعمة .
ويحتمل أنهما ، لم يزالا على شركهما ، فقامت عليهما - بذلك - الحجة .
ثم إنه ، عليه السلام ، شرع يعبر رؤياهما ، بعد ما وعدهما ذلك .
فقال : [يا صاحبي السجن] إلى [الأمر الذي فيه تستفتيان] .
* [يا صاحبي السجن أما أحدهما] وهو : الذي رأى أنه يعصر خمرًا ،
فإنه يخرج من السجن [فيسقى ربه خمرًا] أي : يسقى سيده ، الذي كان
يخدمه خمرًا ، وذلك مستلزم لخروجه من السجن .
[وأما الآخر] وهو : الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا ، تأكل
الطير منه .

[فيصلب فتأكل الطير من رأسه] ، فإنه عبر عن الخبز ، الذي تأكله
الطير ، بلحم رأسه وشحمه ، وما فيه من المخ ، وأنه لا يقبر ويستتر
عن الطيور ، بل يصلب ، ويجعل في محل ، تتمكن الطيور من أكله .
ثم أخبرها بأن هذا التأويل ، الذي تأوله لها ، أنه لا بد من وقوعه
فقال : [قضى الأمر الذي فيه تستفتيان] أي : تسألان عن تعبيره وتفسيره .

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي
عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ
سِنِينَ ﴿٤٢﴾

* أَى : [وقال] يوسف عليه السلام [للذى ظن أنه ناج منهما] ، وهو :
الذى رأى أنه يعصر خمرأ : [اذكرنى عند ربك] أَى : اذكرك له شأنى
وقصتى ، لعله يرق لى ، فيخرجنى مما أنا فيه .

[فأنساه الشيطان ذكر ربه] أَى : فأنسى الشيطان ذلك الناجى ، ذكر
الله تعالى ، وذكر ما يقرب إليه ، ومن جملة ذلك نسيانه ، ذكر يوسف ،
الذى يستحق أن يجازى بآتم الإحسان ، وذلك ليتم الله أمره وقضائه .

[فلبث فى السجن بضع سنين] والبضع : من الثلاث إلى التسع ، ولهذا
قيل : إنه لبث سبع سنين .

ولما أراد الله أن يتم أمره ، ويأذن بإخراج يوسف من السجن ، قدر
لذلك سبباً لإخراج يوسف ، وارتفاع شأنه ، وإعلاء قدره ، وهو
رؤيا الملك .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَأْكُلُهَا أَلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَصْغَتْ

* لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن ، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة ، التي تأويلها ، يتناول جميع الأمة ، ليكون تأويلها على يد يوسف ، فيظهر من فضله ، ويبين من علمه ، ما يكون له رفعة في الدارين . ومن التقادير المناسبة ، أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها ، لارتباط مصالحها به .

وذلك أنه رأى رؤيا ، هالته ، فجمع علماء قومه ، وذوى الرأى منهم وقال :

[إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع] أى : سبع من البقرات [عجاف] .

وهذا من العجب ، أن السبع العجاف الهزيلات ، اللاتي سقطت قوتهن ، يأكلن السبع السمان ، التي كنَّ نهاية في القوة .

[و] رأيت [سبع سنبلات خضر وأخرى] أى : يأكلهن سبع سنبلات [يابسات] .

[يا أيها الملأ أفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ] لأن تعبير الجميع واحد ، وتأويلهن شيء واحد .

[إن كنتم للرؤيا تعبرون] فتحيروا ، ولم يعرفوا لها وجها .

[قالوا : أضغاث أحلام] أى أحلام لا حاصل لها ، ولا لها تأويل .

أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا

وهذا جزم منهم ، بما لا يعلمون ، وتعذر منهم ، بما ليس بعذر .
ثم قالوا : [وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين] أى : لا نعبر إلا الرؤيا .
وأما الأحلام ، التى هى من الشيطان ، أو من حديث النفس ، فإننا
لا نعبرها .

فجمعوا بين الجهل والجزم ، بأنها أضغاث أحلام ، والإعجاب بالنفس ،
بحيث إنهم لم يقولوا : لا نعلم تأويلها ، وهذا من الأمور ، التى لا تنبغى
لأهل الدين والحجا .

وهذا أيضاً ، من لطف الله ، بيوسف عليه السلام .
فإنه لو عبرها ابتداء — قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم ،
فيعجزوا عنها — لم يكن لها ذلك الموقع .
ولكن لما عرضها عليهم ، فعجزوا عن الجواب ، وكان الملك مهتماً لها ،
غاية الاهتمام ، فعبرها يوسف — وقعت ^(١) عندهم موقعاً عظيماً .
وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة ، بالعلم ، بعد أن سألهم ،
فلم يعلموا .

ثم سأل آدم ، فعلمهم أسماء كل شيء ، فحصل بذلك ، زيادة فضله .
وكما يظهر فضل ، أفضل خلقه ، محمد صلى الله عليه وسلم فى القيامة ، أن
يلهم الله الخلق ، أن يتشفعوا بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم
عيسى عليهم السلام ، فيعتذرون عنها .

(١) قوله « وقعت » جواب لقوله « لما عرضها » .

مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾
يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ
عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى

ثم يأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقول «أنا لها أنا لها» ، فيشفع
في جميع الخلق ، وينال ذلك المقام المحمود ، الذي يغبطه به ، الأولون
والآخرون .

فسبحان من خفيت ألطافه ، ودقت في إيصاله البر والإحسان ،
إلى خواص أصفياه ، وأوليائه .

[وقال الذي نجا منهما] أى : من النقيين ، وهو : الذى رأى أنه
يعصر خمراً ، وهو الذى أوصاه يوسف ، أن يذكره عند ربه [وادَّكر
بعد أمة] أى : وتذكر يوسف ، وما جرى له في تعبيره لرؤياها ، وما وصاه
به ، وعلم أنه كفتيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة ، من السنين فقال :

[أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون] إلى يوسف لأسأله عنها .

فأرسلوه ، فجاء إليه ، ولم يعنفه يوسف على نسيانه ، بل استمع ما يسأله
عنه ، وأجابه عن ذلك فقال :

[يوسف أيها الصديق] أى : كثير الصدق في أقواله وأفعاله .

[أفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ
وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ] فإنهم متشوفون لتعبيرها ،
وقد أهتمهم .

النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا
حَصَدْتُمْ فَذَرُّوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي

فعبير يوسف ، السبع البقرات السمان ، والسبع السنبلات الخضر ،
بأنهن سبع سنين مخصبات ، والسبع البقرات العجاف ، والسبع السنبلات
اليابسات ، بأنهن سنين مجربات .

ولعل وجه ذلك — والله أعلم — أن الخصب والجذب — لما كان
الحرث مبنياً عليه ، وأنه إذا حصل الخصب ، قويت الزروع والحروث ،
وحسن منظرها ، وكثرت غلالها ، والجذب بالعكس من ذلك .

وكانت البقر ، هي التي تحرث عليها الأرض ، وتسقى عليها الحروث
في الغالب .

والسنبلات ، هي أعظم الأقوات وأفضلها ، عبرها بذلك ، لوجود
المناسبة .

فجمع لهم في تأويلها ، بين التعبير ، والإشارة لما يفعلونه ، ويستعدون
به ، من التدابير في سنى الخصب ، إلى سنى الجذب فقال :

[تزرعون سبع سنين دأباً] أى : متتابعات .

[فما حصدم] من تلك الزروع [فذرّوه] أى : اتركوه [في سنبله]
لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه ^(١) [إلا قليلاً مما تأكلون] أى :

(١) قوله « وأبعد من الالتفات إليه » لا يخفى ما في هذا التعبير
من الإبهام ، فلو قال : « وأبعد من تسرب ووصول التلف إليه » لكان
أوضح وأولى .

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شِدَادٍ يَا كُلُّنَا مَا قَدَّمْتُمْ لَهْنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا
تُخَصِّنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ
يَعَصِرُونَ ﴿٤٩﴾

دبروا أكلكم في هذه السنين الخصبه ، وليكن قليلا ، ليكثر ما تدخرون
ويعظم نفعه ووقعه .

[ثم يأتى من بعد ذلك] أى : بعد تلك السنين السبع المخصبات .

[سبع شداد] أى : مجربات [يأكلن ما قدمتم لهن] أى : يأكلن
جميع ما ادخرتموه ، ولو كان كثيراً .

[إلا قليلا مما تحصنون] أى : تمنعونه من التقديم لهن .

[ثم يأتى من بعد ذلك] أى : السبع الشداد [عام فيه يغاث الناس
وفيه يعصرون] أى : فيه تسكر الأمطار والسيول ، وتكثر الغلات ،
وتزيد على أقواتهم ، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه ، زيادة على أكلهم .
ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب ، مع أنه غير مصرح به
في رؤيا الملك .

= وقد علق الخبراء على هذه الآية بقولهم : « تتفق هذه الآية مع ما وصل
إليه العلم الحديث من أن ترك الحب في سنابله عند تخزينه وقاية له من التلف
بالعوامل الجوية والآفات .

وفوق ذلك يبقيه محافظاً على محتوياته الغذائية كاملة وأن ذلك الإلهام
كان لنبي من أنبياء الله ، وهو : يوسف عليه السلام .

﴿٥٠﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ
قَالَ اَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْئَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
إِنَّ رَبِّي بَكِيدُهُنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ

لأنه فهم من التعبير ، بالسبع الشداد ، أن العام الذي يليها ، تزول
به شدتها .

ومن المعلوم ، أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات ، إلا
بعام مخصب جداً ، وإلا لما كان للتقدير فائدة .

فلما رجع الرسول إلى الملك والناس ، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا ،
عجبوا من ذلك ، وفرحوا بها أشد الفرح .

* يقول تعالى : [وقال الملك] لمن عنده [ائتونى به] أى : بيوسف
عليه السلام ، بأن يخرجوه من السجن ، ويحضروه إليه .

[فلما جاءه الرسول] وأمره بالحضور عند الملك ، امتنع عن المبادرة
إلى الخروج ، حتى تبين براءته التامة ، وهذا من صبره ، وعقله ورأيه العام .

وحينئذ [قال] للرسول : [ارجع إلى ربك] يعنى به الملك .

[فأسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن] أى : أسأله ، ما شأنهن
وقصتهن ، فإن أمرهن ظاهر متضح [إن ربي بكيدهن عليم] .

فأحضرهن الملك ، وقال : [ما خطبكن] أى : شأنكن [إذ راودتن
يوسف عن نفسه] فهل رأيتم منه ما يريب ؟ .

فبرأته و [قلن حاش لله ، ما علمنا عليه من سوء] أى : لا قليل
ولا كثير .

عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ
الَّذِي حَصَّصَ الْحَقَّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾
ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ

فحينئذ زال السبب ، الذى تبنى عليه التهمة ، ولم يبق إلا ما عند
امرأة العزيز .

[قالت امرأة العزيز : الآن حصص الحق] أى : تمحص وتبين ،
بعد ما كنا ندخل عليه من سوء والتهمة ، ما أوجب له السجن .
[أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين] فى أقواله وبرأته .

[ذلك] الإقرار ، الذى أقرت ، أنى راودت يوسف [ليعلم أنى لم
أخنه بالغيب] .

يحتمل أن مرادها بذلك ، زوجها أى : ليعلم أنى حين أقرت ، أنى
راودت يوسف ، أنى لم أخنه بالغيب ، أى : لم يجر منى إلا مجرد المرادة ،
ولم أفسد عليه فراشه .

ويحتمل أن المراد بذلك ، ليعلم يوسف ، حين أقرت أنى ، أنا الذى
راودته ، وأنه صادق ، أنى لم أخنه فى حال غيبته ، عنى .

[وأن الله لا يهدى الخائنين] فإن كل خائن ، لا بد أن تعود
حياته ومكره على نفسه ، ولا بد أن يتبين أمره .

ثم لما كان فى هذا الكلام ، نوع تركية لنفسها ، وأنه لم يجر منها
ذنب فى شأن يوسف ، استدركت فقالت :

الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ
إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ
أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ

[وما أبرئ نفسي] أى : من المراودة والهمم ، والحرص الشديد ،
والكيد فى ذلك .

[إن النفس لأماراة بالسوء] أى : لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء ،
أى : الفاحشة ، وسائر الذنوب ، فإنها متركب الشيطان ، ومنها يدخل على
الإنسان [إلا ما رحم ربي] فنجاه من نفسه الأمارة ، حتى صارت نفسه ،
مطمئنة إلى ربها ، متقادة لداعى الهدى ، متعاضية عن داعى الردى ،
فذلك ليس من النفس ، بل من فضل الله ورحمته بعبده .

[إن ربي غفور] أى : هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي ،
إذا تاب وأتاب .

[رحيم] بقبول توبته ، وتوفيقه للأعمال الصالحة .
وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز ، لا من قول يوسف .
فإن السياق فى كلامها ، ويوسف إذ ذاك فى السجن ، لم يحضر .
فلما تحقق الملك والناس ، براءة يوسف التامة ، أرسل إليه الملك وقال :
[ائتوني به أستخلصه لنفسي] أى : أجعله من خلصائى ، ومقرباً لى
فاتوه به مكرماً محترماً .

[فلما كلمه] أعجبه كلامه ، وزاد موقعه عنده فقال له :

أَمِينَ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ

[إِنَّكَ اليوم لدينا] أى : عندنا [مكين أمين] أى : متمكن ، أمين
على الأسرار .

[قال] يوسف طلباً للمصلحة العامة : [اجعلنى على خزائن الأرض]
أى : على خزائن جبايات الأرض وغلاها ، وكيلا ، حافظاً ، مدبراً .

[إِنى حفيظ عليم] أى : حفيظ للذى أتولاه ، فلا يضيع منه شىء
فى غير محله ، وضابط للداخل والخارج ، عليم بكيفية التدبير ، والإعطاء ،
والمنع ، والتصرف فى جميع أنواع التصرفات .

وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية ، وإنما هو رغبة منه ،
فى النفع العام .

وقد عرف من نفسه من الكفاية ، والأمانة ، والحفظ ، ما لم يكونوا
يعرفونه .

فلذلك طلب من الملك ، أن يجعله على خزائن الأرض فجعله الملك على
خزائن الأرض ، وولاه إياها .

قال تعالى : [وكذلك] أى بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة .

[مكننا ليوسف فى الأرض يتبوا منها حيث يشاء] فى عيش رغد ،
ونعمة واسعة ، وجاه عريض .

[نصيب برحمتنا من نشاء] أى : هذا من رحمة الله بيوسف ، التى
أصابه بها ، وقدرها له ، وليست مقصورة على نعمة الدنيا .

بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾
وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ

[ولا نضيع أجر المحسنين] ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين
فله في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، ولهذا قال :
[ولأجر الآخرة خير] من أجر الدنيا [للذين آمنوا وكانوا يتقون]
أى : لمن جمع بين التقوى والإيمان .

فبالتقوى ، ترك الأمور المحرمة ، من كبائر الذنوب وصغائرها .
وبالإيمان التام ، يحصل تصديق القلب ، بما أمر الله بالتصديق به ،
وتتبعه أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح ، من الواجبات والمستحبات .

* أى : لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض ، دبرها أحسن
تدبير .

فزرع في أرض مصر جميعها ، في السنين الخصبه ، زروعا هائلة ، واتخذ
لها المحلات الكبار ، وجبا من الأطعمة ، شيئاً كثيراً ، وحفظه ، وضبطه
ضبطاً تاماً .

فلما دخلت السنون المجدة ، وسرى الجذب ، حتى وصل إلى فلسطين ،
التي يقيم فيها يعقوب وبنوه .

فأرسل يعقوب بنيه ، لأجل الميرة إلى مصر .

[وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون] أى :
لم يعرفوه .

مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالِ ائْتُونِي بِآخِ لَكُمْ
مِّنْ أَيْيُكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيْ أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾
فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾
قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا

[ولما جهزهم بجهازهم] أى : كال لهم كما كان يكيل لغيرهم .
وكان من تديره الحسن ، أنه لا يكيل لكل واحد ، أكثر
من حل بعير .

وكان قد سألهم عن حالهم ، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه ، وهو
بنيامين .

[قال] لهم : [ائتوني بأخ لكم من أئيكم] ثم رغبهم فى الإتيان
به فقال :

[ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين] فى الضيافة والإكرام .
ثم رهبهم بعدم الإتيان به ، فقال : [فإن لم تأتوني به ، فلا كيل لكم
عندى ولا تقربون] .

وذلك ، لعله باضطرابهم ، إلى الإتيان إليه ، وأن ذلك يحملهم على
الإتيان به .

[قالوا سنراود عنه أباه] دل هذا على أن يعقوب عليه السلام ، كان
مولعاً به ، لا يصبر عنه ، وكان يتسلى به بعد يوسف ، فلذلك احتاج إلى
مراودة فى بعثه معهم [وإنا لفاعلون] لما امرتنا به .

[وقال] يوسف [لفتيانه] الذين فى خدمته : [اجعلوا بضاعتهم
أى : الثمن الذى اشتروا به من الميرة .

بِضَاعَتِهِمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقَلِبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ
مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتُلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾

[في رحالهم لعلهم يعرفونها] أى : بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك ،
في رحالهم .

[لعلهم يرجعون] لا لأجل التخرج من أخذها على ما قيل .

والظاهر ، أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم ، بالكيل لهم
كيلاً وافياً ثم إعادة بضاعتهم إليهم ، على وجه لا يحسون بها ، ولا يشعرون
لما يأتى ، فإن الإحسان ، يوجب للإنسان ، ممام الوفاء للمحسن .

[فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل] أى : إن لم
ترسل معنا أخانا .

[فأرسل معنا أخانا نكتل] أى : ليكون ذلك سبباً لكيلنا .

ثم التزموا له بحفظه فقالوا : [وإننا له لحافظون] من أن يعرض له
ما يكره .

[قال] لهم يعقوب عليه السلام : [هل آمنكم عليه ، إلا كما أمنتكم
على أخيه من قبل] .

أى : تقدم منكم التزام ، أكثر من هذا ، في حفظ يوسف ، ومع
هذا ، فلم تفوا بما عقدتم من التأكيد ، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم ، وإنما
أثق بالله تعالى .

قَالَ هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ
خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا
بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ
إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ

[فإن الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين] أى : يعلم حالى ، وأرجو أن
يرحمنى ، فيحفظه ويرده علىّ ، وكأنه فى هذا الكلام ، قد لان لإرساله معهم .
ثم إنهم [لما فتحوا متاعهم ، وجدوا بضاعتهم ردت إليهم] .
هذا دليل ، على أنه قد كان معلوماً عندهم ، أن يوسف قد ردها عليهم
بالقصد ، وأنه أراد أن يملكهم إياها .

[قالوا] لأبيهم - ترغيباً فى إرسال أخيه معهم - : [يا أبانا ما نَبْغِي]
أى : أى شئ نطلب بعد هذا الإكرام الجليل ، حيث وفى لنا الكيل ،
ورد علينا بضاعتنا ، على الوجه الحسن ، المتضمن للإخلاص ، ومكارم
الأخلاق ؟

[هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا] أى : إذا ذهبنا بأخينا ، صار
سبباً لكيله لنا ، فنمير أهلنا ، ونأتى لهم ، بما هم مضطرون إليه من القوت .
[ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير] بإرساله معنا ، فإنه يكيل لكل
واحد حمل بعير .

[ذلك كيل يسير] أى : سهل ، لا ينالك منه ضرر ، لأن المدة
لا تطول ، والمصلحة قد تبينت .

يَسِيرُ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ

[قال] لهم يعقوب : [لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله]
 أى : عهداً ثقيلاً ، وتحلفون بالله [لتأتني به إلا أن يحاط بكم] أى : إلا
 أن يأتيتكم أمر ، لا قيل لكم به ، ولا تقدرون دفعه .
 [فلما آتوه موثقهم] على ما قال وأراد [قال : الله على ما نقول وكيل]
 أى تكفينا شهادته علينا ، وحفظه وكفالاته .

ثم لما أرسله معهم ، وصاهم ، إذا هم قدموا مصر ، أن [لا تدخلوا
 من باب واحد ، وادخلوا من أبواب متفرقة] وذلك لأنه خاف عليهم
 العين ، لكثرتهم وبهاء منظرهم ، لكونهم أبناء رجل واحد ، وهذا سبب .
 [و] إلا [ما أغني عنكم من الله شيئاً] فالقدر ، لا بد أن يكون .
 [إن الحكم إلا لله] أى القضاء ، قضاؤه ، والأمر أمره .
 فما قضاء وحكم به ، لا بد أن يقع .

[عليه توكلت] أى : اعتمدت على الله ، لا على ما وصيتكم به من السبب .
 [وعليه فليتوكل المتوكلون] فإن بالتوكل ، يحصل كل مطلوب ،
 ويندفع كل مرهوب .

[ولما] ذهبوا و [دخلوا من حيث أمرهم أبوهما ما كان] ذلك الفعل
 [يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها] وهو موجب
 الشفقة ، والمحبة للأولاد ، فحصل له في ذلك ، نوع طمأنينة ، وقضاء لما
 في خاطره .

وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْءٌ
 إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾
 وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ
 مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي

وليس هذا قصوراً في علمه ، فإنه من الرسل الكرام ، والعلماء
 الربانيين .

ولهذا قال عنه : [وإنه لذو علم] أى : لصاحب علم عظيم [لماعلمناه]
 أى : لتعليمنا إياه ، لا بحوله وقوته أدركه ، بل بفضل الله وتعليمه .
 [ولكن أكثر الناس لا يعلمون] عواقب الأمور ، ودقائق الأشياء
 وكذلك أهل العلم منهم ، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ، ولوازمه
 شئ كثير .

* أى : لما دخل إخوة يوسف على يوسف [آوى إليه أخاه]
 أى : شقيقه وهو « بنيامين » الذى أمرهم بالإتيان به ، وضمه إليه ،
 واختصه من بين إخوته ، وأخبره بحقيقة الحال .

[قال : إني أنا أخوك فلا تبتئس] أى : لا تحزن [بما كانوا يعملون]
 فإن العاقبة خير لنا . ثم أخبره بما يريد أن يصنع ويتحیل لبقائه عنده إلى
 أن ينتهى الأمر .

أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ

[فلما جهزهم بجهازهم] أى : كال لكل واحد من إخوته ، ومن جلتهم أخوه هذا .

[جعل السقاية] وهو : الإناء الذى يشرب به ، ويكال فيه [فى رحل أخيه ثم] أوعوا متاعهم .

فلما انطلقوا ذاهبين ، [أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون] .
ولعل هذا المؤذن ، لم يعلم بحقيقة الحال .

[قالوا] أى : إخوة يوسف [وأقبلوا عليهم] لإبعاد التهمة .
فإن السارق ، ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه ، لتسلم له سرقة .

وهؤلاء ، جاءوا مقبلين إليهم ، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة ، التى رموا بها عنهم .

فقالوا فى هذه الحال : [ماذا تفقدون] ولم يقولوا « ما الذى سرقنا »
لجزمهم بأنهم برآء من السرقة .

[قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير] أى : أجرة له ، على وجدانه [وأنا به زعيم] أى : كفيل ، وهذا يقوله المتنقذ .

زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾
قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا مِنْ

[قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض] بجميع أنواع المعاصي .
[وما كنا سارقين] فإن السرقة ، من أكبر أنواع الفساد في الأرض .
وإنما أقسموا على علمهم ، أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين ، لأنهم
عرفوا أنهم سبوا من أحوالهم ما يدلهم على عقبتهم وورعهم ، وأن هذا
الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهمهم ، وهذا أبلغ في نفي التهمة ، من أن لو
قالوا : « تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق » .

[قالوا فما جزاؤه] أي : جزاء هذا الفعل [إن كنتم كاذبين] بأن
كان معكم ؟

[قالوا جزاؤه من وجد في رحله ، فهو] أي الموجود في رحله [جزاؤه]
بأن يملكه صاحب السرقة .

وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة ، كان ملكا
لصاحب المال المسروق ، ولهذا قالوا : [كذلك نجزي الظالمين] .

[فبدأ] للفقش [بأوعيتهم قبل وعاء أخيه] وذلك لتزول الريبة التي
يظن أنها فعلت بالقصد .

[ثم] لما لم يجد في أوعيتهم شيئا [استخرجها من وعاء أخيه] ولم
يقبل « وجدها ، أو سرقها أخوه » مراعاة للحقيقة الواقعة .

وَعَاءَ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ
الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ
ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده ، على وجه لا يشعر
به إخوته .

قال تعالى : [كذلك كدنا ليوسف] أى : يَسَّرْنَا له هذا الكيد ، الذى
توصل به إلى أمر غير مذموم [ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك] لأنه ليس
من دينه أن يملك السارق ، وإنما له عندهم ، جزاء آخر .

فلوردت الحكومة إلى دين الملك ، لم يتمكن يوسف من إبقاء
أخيه عنده .

ولكنه جعل الحكم منهم ، ليتم له ما أراد .

قال تعالى [نرفع درجات من نشاء] بالعلم النافع ، ومعرفة الطرق
الموصلة إلى مقصدها ، كما رفعنا درجات يوسف .

[وفوق كل ذى علم عليم] فكل عالم ، فوقه من هو أعلم منه حتى
ينتهى العلم إلى عالم الغيب والشهادة .

فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا [قالوا إن يسرق] هذا الأخ ، فليس
هذا غريباً عنه .

[فقد سرق أخ له من قبل] يعنون : يوسف عليه السلام .

ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه ، وقد يصدر منهم ما يصدر
من السرقة ، وهما ليسا شقيقين لنا .

فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا
شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾
قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا
لَظَلَمُونَ ﴿٧٩﴾

وفي هذا من الفض عليهما ، ما فيه ، ولهذا : أسرها يوسف في نفسه
[ولم يبدها لهم] أى لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون ، بل كظم الغيظ ،
وأسر الأمر في نفسه .
و[قال] في نفسه [أنتم شر مكاناً] حيث ذمتمونا بما أنتم على أشرم منه .
[والله أعلم بما تصفون] منا ، من وصفنا بالسرقة ، يعلم الله أننا برآء منها .
ثم سلكوا معه ، مسلك التملق ، لعله يسمح لهم بأخيهم .
[قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً] أى : وإنه لا يصبر عنه ،
وسيشق عليه فراقه .

[فخذ أحداً مكانه إننا نراك من المحسنين] فأحسن إلينا وإلى أيينا بذلك .
[قال] يوسف [معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده]
أى : هذا ظلم منا ، لو أخذنا البرىء ، بذنوب من وجدنا متاعنا عنده ، ولم
يقبل « من سرق » كل هذا تحرز من الكذب .
[إننا إذاً] أى : إن أخذنا غير من وجد في رحله [لظالمون] حيث
وضعنا العقوبة في غير موضعها .

﴿١٠﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ آبِى أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠﴾ ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا

أى : فلما استيسسوا^(١) إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم [خلصوا نجياً] أى : اجتمعوا وحدهم ، ليس معهم غيرهم ، وجعلوا يثناجون فيما بينهم .

[قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم ميثاقاً من الله] فى حفظه ، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم [ومن قبل ما فرطتم فى يوسف] .

فاجتمع عليكم الأمران ، تفريطكم السابق فى يوسف ، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق ، فليس لى وجه أو اجه به أبى .

[فلن أبرح الأرض] أى : سأقيم فى هذه الأرض ، ولا أزال بها [حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى] أى : يقدر لى الجبى . وحدى ، أو مع أخى [وهو خير الحاكمين] .

ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم فقال :

[ارجعوا إلى آبائكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق] أى : وأخذ بسرقة ، ولم يحصل لنا أن نأتيك به ، مع ما بذلنا من الجهد فى ذلك .

(١) أى : فلما انقطع منهم الأمل ، ويسوا من قبول الرجاء

وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسئِلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ
الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ
أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ

والحال ، أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه ، وإنما شهدنا بما علمنا ، لأننا
رأينا الصواع ، استخرج من رحله .

[وما كنا للغيب حافظين] أى : لو كنا نعلم الغيب ، لما حرصنا ،
وبذلنا المجهود فى ذهابه معنا ، ولما أعطيناك عهدنا ومواثيقنا ، فلم نظن
أن الأمر . سيبلغ ما بلغ .

[واسئِلِ] إن شككت فى قولنا [القرية التى كنا فيها والعير التى
أقبلنا فيها] فقد اطلعوا على ما أخبرناك به [وإنا لصادقون] لم نكذب ،
ولم نغير ، ولم نبدل ، بل هذا الواقع .

فلما رجعوا إلى أبيهم ، وأخبروه بهذا الخبر ، اشتد حزنه ، وتضاعف
كده ، واتهمهم أيضاً فى هذه القضية ، كما اتهمهم فى الأولى .

و [قال : بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل] أى : ألجأ فى ذلك ،
إلى الصبر الجميل ، الذى لا يصحبه تسخط ، ولا جزع ، ولا شكوى للخلق .
ثم لجأ إلى حصول الفرج ، لما رأى أن الأمر اشتد ، والكربة
اتتهت فقال :

[عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً] أى : يوسف و « بنيامين » ، وأخوهم
الكبير ، الذى أقام فى مصر .

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ
عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذَكَّرُ
يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾

[إنه هو العليم] الذى يعلم حالى ، واحضياجى إلى تفريجه ومِنْتَه ،
واضطرابى إلى إحسانه .

[الحكيم] الذى جعل لكل شىء قدراً ، ولكل أمر منتهى ،
بحسب ما اقتضته حكمته الربانية .

* أى : وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده ، بعد ما أخبروه
هذا الخبر ، واشتد به الأسف والأسى ، وأبيضت عيناه من الحزن ، الذى
فى قلبه ، والكمد الذى أوجب له كثرة البكاء ، حيث أبيضت عيناه
من ذلك .

[فهو كظيم] أى : ممتلىء القلب من الحزن الشديد .

[وقال يا أسفى على يوسف] أى : ظهر منه ما كمن من الهم القديم ،
والشوق المقيم ، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة ، بالنسبة للأولى ، المصيبة
الأولى ، فقال له أولاده — متعجبين من حاله — :

[تالله تفتأ تذكر يوسف] أى : لا تزال تذكر يوسف فى جميع
أحوالك .

[حتى تكون حرَضاً] أى : فانياً لا حراك فيك ، ولا قدرة
على الكلام .

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ

[أو تكون من الهالكين] أى : لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً .

[قال] يعقوب [إنما أشكو بئى] أى : ما أبت من الكلام [وحزنى] الذى فى قلبى [إلى الله] وحده لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق فقولوا ما شئتم [وأعلم من الله ما لا تعلمون] من أنه سيردهم علىّ ويقر عينى بالاجتماع بهم .

* أى : قال يعقوب عليه السلام لبنيه [يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه] .

أى : احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما [ولا تأسوا من روح الله] . فإن الرجاء ، يوجب للعبد ، السعى والاجتهاد ، فيما رجاه ، والإياس : يوجب له التناقل والتباطؤ .

وأولى ما رجا العباد ، فضل الله وإحسانه ، ورحمته ، وروحه .

[إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون] .

فإنهم — لكفرهم — يستبعدون رحمته ، ورحمته بعيدة منهم ، فلا تتشبهوا بالكافرين .

مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِيَضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ
وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ
مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَأَنَّكَ

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد ، يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه .
فذهبوا [فلما دخلوا عليه] أى : على يوسف [قالوا] متضرعين إليه :
[يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل
وتصدق علينا] أى : قد اضطررنا نحن وأهلنا [وجئنا ببضاعة مزجاة]
أى : مدفوعة مرغوب عنها ، لقلتها ، وعدم وقوعها الموقع .
[فأوف لنا الكيل] أى : مع عدم وفاء العرض ، وتصدق علينا
بالزيادة عن الواجب .

[إن الله يجزي المتصدقين] بثواب الدنيا والآخرة .
فلما انتهى الأمر ، وبلغ أشده ، رقَّ لهم يوسف رِقَّةً شديدة ، وعرفهم
بنفسه ، وعاتبهم فقال :

[هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه] أما يوسف فظاهر فعلهم فيه .
وأما أخوه ، فلعله — والله أعلم — قولهم : [إن يسرق فقد سرق
أخ له من قبل] .

أو أن الحادث الذى فرَّق بينه وبين أبيه ، هم السبب فيه ، والأصل
الموجب له .

[إذ أنتم جاهلون] وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم ، أو توبيخ لهم إذ
فعلوا فعل الجاهلين ، مع أنه لا ينبغي ، ولا يليق منهم .

لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾
قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾
قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾

فعرفوا أن الذي خاطبهم ، هو يوسف فقالوا :
[أإنك لأنت يوسف ؟ قال أنا يوسف ، وهذا أخى قد من الله علينا
بالإيمان والتقوى ، والتمكين فى الدنيا ، وذلك بسبب الصبر والتقوى .
[إنه من يتق ويصبر] أى : يتقى فعل ما حرم الله ، ويصبر على الآلام
والمصائب ، وعلى الأوامر ، بامتنائها [فإن الله لا يضيع أجر المحسنين] فإن
هذا ، من الإحسان ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .
[قالوا تالله لقد آثرك الله علينا] أى : فضلك علينا ، بمكارم الأخلاق ،
ومحاسن الشيم ، وأسأنا إليك غاية الإساءة ، وحرصنا على إيصال الأذى
إليك ، والتبعيد لك عن أهلك ، فأثرك الله تعالى ، وممكنك مما تريده [وإن
كنا لخطائين] .

[قال] لهم يوسف عليه السلام ، كرما وجوداً : [لا تثريب عليكم اليوم]
أى : لا أثرب عليكم ولا ألوكم [يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين] .
فسمح لهم سماحاً تاماً ، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق ، ودعا
هم بالمغفرة والرحمة ، وهذا نهاية الإحسان ، الذى لا يأتى إلا من خواص
الخلق ، وخيار المصطفين .

﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ
قَالَ أَبُوهُمْ إِنَّنِي لِأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لَّا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا

أى : قال يوسف عليه السلام لإخوته : [اذهبوا بقميصي هذا فألقوه
على وجه أبى يأت بصيراً] لأن كل داء يداوى بضده .

فهذا القميص — لما كان فيه أثر ريح يوسف ، الذى أودع قلب أبيه
من الحزن ، والشوق ، ما الله به عليم — أراد أن يشمه ، فترجع إليه
روحه ، وتراجع إليه نفسه ، ويرجع إليه بصره .

ولله فى ذلك حكم وأسرار ، لا يطاع عليها العباد ، وقد اطاع يوسف
من ذلك على هذا الأمر .

[وأتوني بأهلكم أجمعين] أى : أولادكم وعشيرتكم ، وتوابعكم
كلهم ، ليحصل تمام اللقاء ، ويحول عنكم نكد المعيشة ، وضنك الرزق .
[ولما فصلت العير] عن أرض مصر ، مقبلة إلى أرض فلسطين ،
شمَّ يعقوب ريح القميص فقال :

[إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون] أى : تسخرون منى ،
وتزعمون أن هذا الكلام ، صدر منى ، من غير شعور ، لأنه رأى منهم
من التعجب من حاله ، ما أوجب له هذا القول .

فوقع ما ظنه بهم فتالوا : [نال الله إناك لنى ضاللك القديم] أى : لا تزال
نائهاً فى بحر لجى لا تدري ما تقول .

تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَنِيْ صَلِّكَ الْقَدِيْمَ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أُنْجِيَ الْبَشِيْرُ أَلْقَاهُ
عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيْرًا قَالِ اَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّيْ أَعْلَمُ مِنْ اَللّٰهِ
مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يٰٓأَبَانَا اُسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوْبَنَا إِنَّا كُنَّا
خٰطِيْنَ ﴿٩٧﴾ قَالِ سَوْفَ اَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُوْرُ
الرَّحِيْمُ ﴿٩٨﴾

[فلما أن جاء البشير] بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم .
[ألقاه] أى : التميص [على وجهه ، فارتد بصيراً] أى : رجع
إلى حاله الأولى بصيراً ، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن .
فقال لمن حضره من أولاده وأهله ، الذين كانوا يفندون رأيه ،
ويتعجبون منه منتصراً عليهم ، مقتبطين بنعمة الله عليه :
[ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون] حيث كنت مترجياً للقاء
يوسف ، مترقباً لزوال الهم والغم والحزن .
فأقروا بذنبهم و [قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين]
حيث فعلنا معك ما فعلنا .
[قال] مجيباً لطلبتهم ، ومسرعا لإجابتهم : [سوف أستغفر لكم ربى ،
إنه هو الغفور الرحيم] ورجائى به ، أن يغفر لكم ، ويرحمكم ، ويقدمكم
برحمته .

وقد قيل : إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل ، ليكون
أتم للاستغفار ، وأقرب للإجابة .

﴿٩٩﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰهِ أَبُوهُ
وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوهُ عَلَى
الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَسَّابَتِ هَذَا تَوَائِلُ رُءُوسِي مِن

أى : [فلما] تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون ، وارتحلوا
من بلادهم ، قاصدين الوصول إلى يوسف فى مصر وسكنها .

فلما وصلوا إليه ، و [دخلوا على يوسف آوى إليه أبوه] أى : ضمها
إليه ، واختصمها بقربه ، وأبدى لهما من البر والإحسان ، والتبجيل
والإعظام شيئاً عظيماً .

[وقال] لجميع أهله : [ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين] من جميع
المكازر والخواف .

فدخلوا فى هذه الحال السارة ، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة ،
وحصل السرور والبهجة .

[ورفع أبوه على العرش] أى : على سرير الملك ، ومجلس العز .
[وخرّوا له سجداً] أى : أبوه ، وأمه ، وإخوته ، سجوداً على وجه
التعظيم والتبجيل والإكرام .

[وقال] لما رأى هذه الحال ، ورأى سجودهم له : [يا أبت هذا تأويل
رُءُوسِي من قبل] حين رأى أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر له ساجدين .
فهذا وقوعها ، الذى آلت إليه ووصلت [قد جعلها ربى حقاً] فلم
يجعلها أضغاث أحلام .

قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ
وَجَاءَ بِكُمْ مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي

[وقد أحسن بي] إحساناً جسيماً [إذ أخرجني من السجن وجاء بكم
من البدو] .

وهذا من لطفه ، وحسن خطابه ، عليه السلام ، حيث ذكر حاله
في السجن ، ولم يذكر حاله في الحب ، لتمام عفوه عن إخوته ، وأنه لا يذكر
ذلك الذنب ، وأن إتيانكم من البادية ، من إحسان الله .

فلم يقل : جاء بكم من الجوع والنصب .

ولا قال : « أَحْسَنَ بِكُمْ » بل قال « أَحْسَنَ بِي » .

جعل الإحسان ، عائداً إليه .

فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده ، ويهب لهم من لدنه
رحمة ، إنه هو الوهاب .

[من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي] فلم يقل « نزغ الشيطان
إخوتي » بل كان الذنب والجهل ، صدر من الطرفين .

فالحمد لله ، الذي أخزى الشيطان ودحره ، وجمعنا بعد تلك
الفرقة الشاقة .

إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

[إن ربي لطيف لما يشاء] يوصل بره وإحسانه إلى العبد ، من حيث لا يشعر ، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور بكرهها .
[وإنه هو العليم] الذى يعلم ظواهر الأمور وبواطنها ، وسرائر العباد وضمائرهم .
[الحكيم] فى وضعه الأشياء مواضعها ، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدره لها .

* لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين فى الأرض والملك وأقر عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذى أعطاه الله إياه فقال مقراً بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثبات على الإسلام [رب قد آتيتنى من الملك] وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتديرها ووزيراً كبيراً للملك [وعلمتنى من تأويل الأحاديث] أى من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم [فاطر السموات والأرض توفنى مسلماً] أى أدم على الإسلام وثبتنى عليه حتى تتوفانى عليه ، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت ، [وألحقنى بالصالحين] من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار .

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ
إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَنْكُرُونَ﴾ (١٠٢) ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

لما قص الله هذه القصة على محمد صلى الله عليه وسلم قال الله له :
[ذلك] النبا الذى أخبرناك به [من أنباء الغيب نوحيه إليك]
ولولا إيماننا إليك ، لما وصل إليك هذا الخبر الجليل .

[و] أنك [ما كنت] حاضراً [لديهم] [إذ أجمعوا أمرهم] أى : إخوة
يوسف [وهم يمكرون] به ، حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه ،
فى حالة ، لا يطلع عليها إلا الله تعالى ، ولا يمكن أحداً أن يصل إلى علمها ،
إلا بتعليم الله له إياها .

كما قال تعالى لما قص قصة موسى ، وما جرى له ، ذكر الحال التى
لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه فقال :

« وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت
من الشاهدين » الآيات ، فهذا أدل دليل ، على أن ما جاء بها رسول الله
حق وصدق .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم [وما أکثر الناس ولو حرصت]
على إيمانهم [بمؤمنين] فإن مداركهم ومقاصدهم ، قد أصبحت فاسدة ، فلا
ينفعهم حرص الناصحين عليهم ، ولو عدمت الموانع ، بأنهم كانوا يعلمونهم ،
ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، من غير أجر ولا عوض ،
ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ، ما أقاموا .

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾
وَكَايْنٌ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

ولهذا قال : [وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين]
يتذكرون به ما ينفعهم ، ليفعلوه ، وما يضرهم ليعتركوه .
[وكاين] أى : وكم [من آية فى السموات والأرض يرون عليها]
دالة لهم على توحيد الله [وهم عنها معرضون] .
ومع هذا [و] إن وجد منهم بعض الإيمان [ما يؤمن أكثرهم بالله
إلا وهم مشركون] .
فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى ، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع
الأمور ، فإنهم يشركون فى ألوهية الله وتوحيده .
فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال ، لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم
العذاب ، ويفاجئهم العقاب وهم آمنون ، ولهذا قال :
[أفأمنوا] أى : الفاعلون لتلك الأفعال ، المعرضون عن آيات الله
[أن تأتيتهم غاشية من عذاب الله] أى : عذاب ، يغشاهم ويعمهم ،
ويستأصلهم .
[أو تأتيتهم الساعة بغتة] أى : فجأة [وهم لا يشعرون] أى : فإنهم
قد استوجبوا ذلك ، فليتبوا إلى الله وليتركوا ، ما يكون سبباً فى عقابهم .

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [قل] للناس [هذه سبيلي]
أى : طريقى ، التى أدعوا إليها ، وهى السبيل الموصلة إلى الله ، وإلى دار
كرامته ، المتضمنة للعلم بالحق ، والعمل به ، وإيثاره وإخلاص الدين لله وحده
لا شريك له .

[أدعو إلى الله] أى : أحث الخلق والعباد ، على الوصول إلى ربهم ،
وأرغبهم فى ذلك ، وأرهبهم مما يبعدهم عنه .

ومع هذا ، فأنا [على بصيرة] من دىنى ، أى : على علم و يقين ، من غير
شك ولا امتراء ، ولا مرية .

[أنا و] كذلك [من اتبعنى] يدعو إلى الله ، كما أدعو ، على بصيرة
من أمره .

[وسبحان الله] عما ينسب إليه ، مما لا يليق بجلاله ، أو يتنافى كماله .

[وما أنا من المشركين] فى جميع أمورى ، بل أعبد الله ، مخلصاً له الدين .

ثم قال تعالى : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً [أى : لم نرسل ملائكة
ولا غيرهم من أصناف الخلق .

فلأى شىء يستغرب قومك رسالتك ، ويزعمون أنه ليس عليهم فضل .

فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة [نوحى إليهم من أهل القرى]

فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾
﴿١١٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُم قَدْ كُذِّبُوا
جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ

أى : لا من البادية ، بل من أهل القرى ، الذين هم أكل عقولا ،
وأصح آراء ، ولتبين أمرهم ، ويتضح شأنهم .
[أفلم يسيروا فى الأرض] إذا لم يصدقوا لقولك .
[فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم] كيف أهلكهم الله
بتكذيبهم .

فاحذروا ، أن تقيموا على ما قاموا عليه ، فيصيبكم ما أصابهم .
[ولدار الآخرة] أى : الجنة وما فيها ، من النعيم المقيم .
[خير للذين اتقوا] الله ، فى امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه .
فإن نعيم الدنيا ، منغص منكد ، منقطع .
ونعيم الآخرة ، تام كامل ، لا يفنى أبداً ، بل هو على الدوام ، فى تزايد
وتواصل ، « عطاء غير مجذوذ » [أفلا تعقلون] أى : أفلا تكون لكم
عقول ، تؤثروا الذى هو خير ، على الأدنى .

* يخبر تعالى : أنه يرسل الرسل الكرام ، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام .
وأن الله تعالى يمهلهم ، ليرجعوا إلى الحق .
ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل .

الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

حتى إن الرسل — على كمال يقينهم ، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده — ربما أنه يخطر بقلوبهم ، نوع من الإياس ، ونوع من ضعف العلم والتصديق .

فإذا بلغ الأمر هذه الحال [جاءهم نصرنا فنجى من نشاء] وهم الرسل وأتباعهم .

[ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين] أى : ولا يرد عذابنا ، عن اجترم ، وتجراً على الله « فإلهم من قوة ولا ناصر » .

[لقد كان في قصصهم] أى قصص الأنبياء والرسل مع قومهم .
[عبرة لأولى الألباب] أى : يعتبرون بها ، أهل الخير ، وأهل الشر .
وأن من فعل مثل فعلهم ، ناله ما نالهم ، من كرامة ، أو إهانة .
ويعتبرون بها أيضاً ، ما لله ، من صفات الكمال والحكمة العظيمة ،
وأنه الله ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وحده لا شريك له .

وقوله [ما كان حديثاً يفترى] أى : ما كان هذا القرآن ، الذى قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص ، من الأحاديث المفتراة المختلقة .
[ولكن] كان تصديق [الذى بين يديه] من الكتب السابقة ، يوافقها ، ويشهد لها بالصحة .

[وتفصيل كل شيء] يحتاج إليه العباد ، من أصول الدين وفروعه ، ومن الأدلة والبراهين .

[وهدى ورحمة لقوم يؤمنون] فإنهم — بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره — يحصل لهم الهدى ، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل ، تحصل لهم الرحمة .

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة التي قال الله في أولها [نحن نقص عليك أحسن القصص] وقال [لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين] وقال في آخرها [لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب] غير ما تقدم في مطاويها من الفوائد .

فمن ذلك ، أن هذه القصة ، من أحسن القصص وأوضحها ، وأبينها ، لما فيها من أنواع التنقلات ، من حال إلى حال ، ومن محنة إلى محنة ، ومن محنة إلى منحة ومنة ، ومن ذل إلى عز ومن رقي إلى ملك ، ومن فرقة وشتات ، إلى اجتماع وائتلاف ، ومن حزن إلى سرور ، ومن رخاء إلى جذب ، ومن جذب إلى رخاء ، ومن ضيق إلى سعة ، ومن إنكار إلى قرار .

فتبارك من قصها ، فأحسنها ، ووضحها وبيَّنَّها .

ومنها : أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا ، فإن علم التعبير ، من العلوم المهمة ، التي يعطيها الله من يشاء من عباده ، وإن أغلب ما تبني عليه ، المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة .

فإن رؤيا يوسف ، التي رأى فيها الشمس والقمر ، وأحد عشر كوكباً له ساجدين ، وجه المناسبة فيها : أن هذه الأنوار ، هي زينة السماء وجالها ، وبها منافعها .

فكذلك الأنبياء والعلماء ، زينة للأرض وجمال ، وبهم يهتدى
في الظلمات ، كما يهتدى بهذه الأنوار ، ولأن الأصل أبوه وأمه ، وإخوته
هم الفرع .

فن المناسب أن يكون الأصل ، أعظم نوراً ، وجرمًا ، لما هو فرع عنه .
فلذلك كانت الشمس أمه ، والقمر أباه ، والكواكب إخوته .
ومن المناسبة أن الشمس ، لفظ مؤنث ، فلذلك كانت أمه ، والقمر
والكواكب ، مذكرات ، فكانت لأبيه وإخوته .

ومن المناسبة ، أن الساجد معظم محترم للمسجود له ، والمسجود ،
معظم محترم .

فلذلك ، دل ذلك ، على أن يوسف يكون معظماً محترماً ، عند أبويه
وإخوته .

ومن لازم ذلك ، أن يكون محبتي مفضلاً ، في العلم والفضائل ،
الموجبة لذلك .

ولذلك قال أبوه : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » .

ومن المناسبة في رؤيا الفتين ، أن الرؤيا الأولى ، التي رأى صاحبها ،
أنه يعصر خمراً ، أن الذي يعصر خمراً في العادة ، يكون خادماً لغيره ،
والمعصر يقصد لغيره .

فلذلك أوله بما يشول إليه ، أنه يسقى ربه ، وذلك متضمن لخروجه
من السجن .

وأول رؤيا الآخر ، أى : أنه يحمل فوق رأسه خبزاً ، تأكل الطير

منه ، بأن جلدة رأسه ولحمه ، وما فى ذلك من المخ ، أنه هو الذى يحمل ،
وأنه سيرز للطيور ، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه .
فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل
من رأسه .

وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل .
وأول رؤيا الملك ، للبقرات والسنبالات ، بالسنين المحصبة ، والسنين
المجدبة .

ووجه المناسبة ، أن الملك ، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها ،
وبصلاحه تصلح ، وبفساده تفسد .
وكذلك السنون ، بها صلاح أحوال الرعية ، واستقامة أمر المعاش ،
أو عدمه .

وأما البقر ، فإنها تحرث الأرض عليها ، ويستقى عليها الماء .
وإذا أخصبت السنة ، سمت ، وإذا أجذبت ، صارت عجافاً .
وكذلك السنبال فى الخصب ، تكثر وتخضر ، وفى الجذب ، تقل
وتيبس وهى أفضل غلال الأرض .

ومنها : ما فيها من الأدلة ، على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ،
حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة ، وهو لم يقرأ كتب الأولين ،
ولا دارس أحداً .

يراه قومه ، بين أظهرهم ، صباحا ومساء ، وهو أمى لا يخط ولا يقرأ .
وهى موافقة ، لما فى الكتب السابقة ، وما كان لديهم ، إذ أجمعوا
أمرهم وهم يمكرون .

ومنها : أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر ، وكتمان ما تخشى مضرته ،
لقول يعقوب ليوسف [لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا] .
ومنها أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله :
[فيكيدوا لك كيدا] .

ومنها : أن نعمة الله على العبد ، نعمة على من يتعلق به ، من أهل
بيته ، وأقاربه ، وأصحابه ، وأنه ربما شملهم ، وحصل لهم ما حصل له سببه ،
كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف [وكذلك يمتدح ربك ويعلمك
من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب] .

ولما تمت النعمة على يوسف ، حصل لآل يعقوب ، من العز والتمسكين
في الأرض ، والسرور والغبطة ، ما حصل بسبب يوسف .

ومنها : أن العدل مطلوب في كل الأمور ، لا في معاملة السلطان
رعيته فقط ، ولا فيما دونه ، بل حتى في معاملة الوالد لأولاده ، في المحبة
والإيثاء ، وغيره ، وأن في الإخلال بذلك ، يخل على الأمر ، وتفسد
الأحوال .

ولهذا ، لما قدم يعقوب يوسف في المحبة ، وآثره على إخوته ، جرى
منهم ما جرى على أنفسهم ، وعلى أبيهم وأخيه .

ومنها : الحذر من شؤم الذنوب ، وأن الذنب الواحد ، يستتبع ذنوباً
متعددة ، ولا يتم لفاعله ، إلا بعد جرائم .

فإخوة يوسف ، لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه ، احتالوا لذلك
بأنواع من الخيل ، وكذبوا عدة مرات ، وزوروا على أبيهم في القميص

والدم ، الذى فيه ، وفى إتيانهم عشاء ييكون ، ولا تسبعد أنه قد كثر
البحث فيها ، فى تلك المدة ، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف .
وكلا صار البحث ، حصل من الإخبار بالكذب ، والافتراء ، ما حصل .
وهذا شؤم الذنب ، وآثاره التابعة ، والسابقة ، واللاحقة .

ومنها : أن العبرة فى حال العبد ، بكامل النهاية ، لا بتقص البداية .
فإن أولاد يعقوب ، عليه السلام ، جرى منهم ماجرى ، فى أول الأمر ،
مما هو أكبر أسباب النقص واللوم ، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح ،
والسماح التام ، من يوسف ، ومن أبيهم ، والدعاء بالمغفرة والرحمة .
وإذا سمح العبد عن حقه ، فالله خير الراحمين .

ولهذا — فى أصح الأقوال — أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى [وأوحينا
إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط] .
والأسباط هم : أولاد يعقوب الاثنا عشر ، وذريتهم .

ومما يدل على ذلك ، أن فى رؤيا يوسف ، أنه رأى كواكب نيرة ،
والكواكب فيها النور والهداية ، وذلك من صفات الأنبياء ، فإن لم
يكونوا أنبياء ، فإنهم علماء هداة .

ومنها : ما من الله به على يوسف ، عليه الصلاة والسلام ، من العلم ،
والحلم ، ومكارم الأخلاق ، والدعوة إلى الله ، وإلى دينه ، وعفوه عن
إخوته الخاطئين ، عفوًا بادرهم به ، وتم ذلك بأن لا يثرب عليهم ،
ولا يعيرهم به .

ثم برّهُ العظيم بأبويه ، وإحسانه لإخوته ، بل لعموم الخلق .
ومنها : أن بعض الشر ، أهون من بعض ، وارتكاب أخف الضررين ،
أولى من ارتكاب أعظمهما .

فإن إخوة يوسف ، لما اتفقوا على قتل يوسف ، أو إلثامه أرضاً وقال
قائل منهم : [لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب] كان قوله أحسن
منهم وأخف ، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير .

ومنها : أن الشيء إذا تداولته الأيدي ، وصار من جملة الأموال ، ولم
يعلم أنه كان على غير الشرع ، أنه لا إثم على من باشره ، ببيع ، أو شراء ،
أو خدمة ، أو انتفاع ، أو استعمال .

فإن يوسف عليه السلام ، باعه إخوته بيعاً حراماً ، لا يجوز .
ثم ذهبت به السيارة إلى مصر ، فباعوه بها ، وبقي عند سيده غلاماً
رقيقاً ، وسماه الله سيدياً ، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم .
ومنها : الحذر من الخلوة بالنساء ، اللأئي يخشى منهن الفتنة ، والحذر
أيضاً من المحبة ، التي يخشى ضررها .

فإن امرأة العزيز ، جرى منها ما جرى ، بسبب انفرادها بيوسف ،
وحبها الشديد له ، الذي ما تركها ، حتى راودته تلك المراودة ، ثم كذبت
عليه ، فسجن — بسببها — مدة طويلة .

ومنها : أن الهمّ الذي ، همّ به يوسف بالمرأة ، ثم تركه الله ، مما يرقيه
إلى الله زلفى ، لأن الهمّ داع من دواعي النفس ، الأماراة بالسوء ، وهو
طبيعة لأغلب الخلق .

فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته ، غلبت محبة الله وخشيته ، داعى النفس والهوى .

فكان ممن « خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » .

ومن السبعة الذين يظلمهم الله فى ظل عرشه ، يوم لا ظل إلا ظله ، أحدهم رجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله .

وإنما الهم الذى يلام عليه العبد ، الهم الذى يساكنه ، ويصير عزما ، ربما اقترن به الفعل .

ومنها : أن من دخل الإيمان قلبه ، وكان مخلصا لله ، فى جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه ، وصدق إخلاصه ، من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصى ، ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله . [وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين] على قراءة من قرأها بكسر اللام .

ومن قرأها بالفتح ، فإنه من إخلاص الله إياه ، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه .

فلما أخلص عمله لله ، أخلصه الله ، وخلصه من السوء والفحشاء .

ومنها : أنه ينبغى للعبد ، إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية ، أن يفر منه ، ويهرب ، غاية ما يمكنه ، ليتمكن من التخلص من المعصية .

لأن يوسف عليه السلام — لما راودته التى هو فى بيتها — فر هاربا ، يطلب الباب ، ليتخلص من شرها .

ومنها : أن القرائن يعمل بها ، عند الاشتباه .

فلو تخاصم رجل وامراته في شيء ، من أواني الدار ، فما يصلح للرجل ، فإنه للرجل ، وما يصلح للمرأة ، فهو لها ، هذا إذا لم يكن بينة .

وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرقتهما ، من غير بينة .

والعمل بالقيافة ، في الأشباه والأثر ، من هذا الباب .

فإن شاهد يوسف ، شهد بالقرينة ، وحكم بها في قد القميص ، واستدل بِقَدِّه من دبره على صدق يوسف وكذبها .

ومما يدل على هذه القاعدة ، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة ، من غير بينة شهادة ، ولا إقرار .

فعلى هذا ، إذا وجد المروق في يد السارق ، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة ، فإنه يحكم عليه بالسرقة ، وهذا أبلغ من الشهادة .

وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر ، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد ، حاملاً ، فإنه يقام بذلك ، الحد ، ما لم يتم مانع منه .

ولهذا سمي الله هذا الحكم شاهداً فقال : [وشهد شاهد من أهلها] .

ومنها : ما عليه يوسف ، من الجمال الظاهر والباطن .

فإن جماله الظاهر ، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ، ما أوجب .

وللنساء اللاتي جمعتهن حين لُئِمْنَها على ذلك أن قطعن أيديهن وقلن [ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم] .

وأما جماله الباطن ، فهو العفة العظيمة عن المعصية ، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها ، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ، ببراءته .

ولهذا قالت امرأة العزيز: [ولقد راودته عن نفسه فاستعصم] .

وقالت بعد ذلك : [الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين] .

وقالت النسوة : [حاش لله ما علمنا عليه من سوء] .

ومنها : أن يوسف عليه السلام ، اختار السجن على المعصية .

فمكذا ينبغي للعبد ، إذا ابتلى بين أمرين — إما فعل معصية ، وإما عقوبة دنيوية — أن يختار العقوبة الدنيوية ، على مواجهة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة ، في الدنيا والآخرة .

ولهذا من علامات الإيمان ، أن يكره العبد أن يعود في الكفر ، بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى في النار .

ومنها : أنه ينبغي للعبد ، أن يلتجئ إلى الله ، ويحتجى بحماه عند وجود أسباب المعصية ، ويتبرأ من حوله وقوته ، لقول يوسف عليه السلام [وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين] .

ومنها : أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير ، وينهيانه عن الشر .

وأن الجهل ، يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس ، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه .

ومنها : أنه كما على العبد عبودية لله في الرضاء ، فعليه عبودية له في الشدة .

ف « يوسف » عليه السلام ، لم يزل يدعو إلى الله ، فلما دخل السجن ، استمر على ذلك ، ودعا الفتيين إلى التوحيد ، ونهاهما عن الشرك .

ومن فطنته عليه السلام ، أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته ، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالوا : [إنا نراك من المحسنين] وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما ، فرآهما ، متشوقين لتعبيرها عنده — رأى ذلك فرصة ، فانتبهزها ، فدعاهما إلى الله تعالى ، قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده ، وأقرب لحصول مطلوبه .

وبين لهما أولاً ، أن الذي أوصله إلى الحال التي رآياه فيها ، من الكمال والعلم ، إيمانه ، وتوحيده ، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وهذا دعاء لهما بلسان الحال .

ثم دعاهما بالمقال ، وبين فساد الشرك ، وبرهن عليه ، وحقيقة التوحيد ، وبرهن عليه .

ومنها : أنه يبدأ بالأهم فالأهم ، وأنه إذا سئل الفتى ، وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنه ، أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله .

فإن هذا ، علامة على نصح المعلم وفطنته ، وحسن إرشاده وتعليمه .

فإن يوسف — لما سأله الفتيان عن الرؤيا — قدم لهما قبل تعبيرها — دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له .

ومنها : أن من وقع في مكروه وشدة ، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تحليله ، أو الإخبار بحاله ، وأن هذا ، لا يكون شكوى للمخلوق

فإن هذا ، من الأمور العادية ، التي جرى العرف باستعانة الناس ، بعضهم ببعض .

ولهذا قال يوسف ، للذى ظن أنه ناج من الفتيين : [اذكرنى عند ربك] .

ومنها : أنه ينبغي ويتأكد على المعلم ، استعمال الإخلاص التام فى تعليمه وأن لا يجعل تعليمه ، وسيلة لمعاوضة أحد فى مال ، أو جاه ، أو نفع ، وأن لا يتمتع من التعليم ، أولاً ينصح فيه ، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم .

فإن يوسف عليه السلام قد قال ، ووصى أحد الفتيين ، أن يذكره عند ربه ، فلم يذكره ونسى .

فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف ، أرسلوا ذلك الفتى ، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا ، فلم يعنفه يوسف ، ولا وبخه ، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله ، جواباً تاماً من كل وجه .

ومنها : أنه ينبغي للمستئول أن يدل السائل على أمر ينفعه ، مما يتعلق بسؤاله ، ويرشده إلى الطريق ، التى ينتفع بها ، فى دينه ودنياه ، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته ، وحسن إرشاده .

فإن يوسف ، عليه السلام ، لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك . بل دلم - مع ذلك - على ما يصنعون فى تلك السنين الخصبات ، من كثرة الزرع ، وكثرة جبايته .

ومنها : أنه لا يلام الإنسان على السعى فى دفع التهمة عن نفسه ، وطلب

البراءة لها ، بل يحمد على ذلك ، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تثبت لهم براءته بحال النسوة ، اللاتي قطعن أيديهن .

ومنها : فضيلة العلم ، علم الأحكام والشرع ، وعلم تعبير الرؤيا ، وعلم التدبير والتربية ؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة ، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف .

فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك الحنة ، والسجن ، وبسبب عمله ، حصل له العز والرفعة ، والتمكين في الأرض .

فإن كل خير في الدنيا والآخرة ، من آثار العلم وموجباته .

ومنها : أن علم التعبير ، من العلوم الشرعية ، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه ، وأن تعبير الرؤيا ، داخل في الفتوى ، لقوله للفتيين :

[قضى الأمر الذى فيه تستفتيان] وقال الملك [أفتونى فى رؤياى] .
وقال الفتى ليوسف : [أفئنا فى سبع بقرات] الآيات .

فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا ، من غير علم .

ومنها : أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما فى نفسه ، من صفات الكمال من علم أو عمل ، إذا كان فى ذلك مصلحة ، ولم يقصد به العبد الرياء ، وسلم من الكذب .

لقول يوسف : [اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم] .

وكذلك لا تدم الولاية ، إذا كان التولى فيها ، يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله ، وحقوق عباده ، وأنه لا بأس بطلبها ، إذا كان أعظم كفاءة من غيره .

وإنما الذى يذم ، إذا لم يكن فيه كفاية ، أو كان موجوداً غيره مثله ، أو أعلى منه ، أو لم يرد بها إقامة أمر الله .

فبهذه الأمور ، ينهى عن طلبها ، والتعرض لها .

ومنها : أن الله واسع الجود والكرم ، يجود على عبده ، بخير الدنيا والآخرة ، وأن خير الآخرة ، له سببان : الإيمان ، والتقوى . وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها .

وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه ، ويشوقها لثواب الله ، ولا يدعها تحزن ، إذا رأت زينة أهل الدنيا ولذاتها ، وهى غير قادرة عليها ، بل يسليها بثواب الله الأخرى ، وفضله العظيم لقوله تعالى : [ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون] .

ومنها : أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس ، من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها ، لأن يوسف أسرهم بجباية الأرزاق والأطعمة ، فى السنين المخصبات ، للاستعداد للسنين المجذبة .

وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله ، بل يتوكل العبد على الله ، ويعمل الأسباب التى تنفعه ، فى دينه ودنياه .

ومنها : حسن تدبير يوسف ، لما تولى خزائن الأرض ، حتى كثرت عندهم الغلات جداً ، وحتى صار أهل الأقطار ، يقصدون مصر لطلب الميرة منها ، لعلمهم بوفورها فيها ، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل ، لا يزيد كل قادم على كيل بغير وحمله .

ومنها : مشروعية الضيافة ، وأنها من سنن المرسلين ، وإكرام

الضيف لقول يوسف لإخوته [ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير
المنزلين] .

ومنها : أن سوء الظن — مع وجود القرائن الدالة عليه — غير ممنوع
ولا محرم .

فإن يعقوب قال لأولاده — بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم
حتى عاجلوه أشد المعالجة ، ثم قال لهم بعد ما أتوه ، وزعموا أن الذئب أكله
[بل سولت لكم أنفسكم أمراً] .

قال لهم في الأخ الآخر : [هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه
من قبل] .

ثم لما احتبس يوسف عنده ، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم : [بل سولت
لكم أنفسكم أمراً] فهم في الأخيرة — وأن لم يكونوا مفرطين ، فقد جرى
منهم ، ما أوجب لأبيهم ، أن قال ما قال ، من غير إثم عليه ولا حرج .

ومنها : أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من الكاره ،
أو الرافعة لها بعد نزولها ، غير ممنوع ، بل جائز ، وإن كان لا يقع شيء
إلا بقضاء وقدر .

فإن الأسباب أيضاً ، من القضاء والقدر لأمر يعقوب ، حيث قال
لبنيه ، [يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة] .

ومنها : جواز استعمال المكاييد ، التي يتوصل بها إلى الحقوق ، وأن
العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها ، مما يحمد عليه العبد .

.

وإنما المنوع ، التحيل على إسقاط واجب ، أو فعل محرم .
ومنها : أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره ، بأمر لا يجب أن يطلع عليه ، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية ، المانعة من الكذب .
كما فعل يوسف ، حيث ألقى الصواع في رحل أخيه ، ثم استخرجها منه ، موها أنه سارق ، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته .
وقال بعد ذلك : [معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده]
ولم يقل « من سرق متاعنا » وكذلك لم يقل « إنا وجدنا متاعنا عنده » بل أتى بكلام عام ، يصلح له ولغيره .
وليس في ذلك محذور ، وإنما فيه إيهام أنه سارق ، ليحصل المقصود الحاضر ، وأن يبقى عنده أخوه ، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام ، بعد ما تبينت الحال .
ومنها : أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه ، وتحققه بمشاهدة ، أو خبر من يثق به ، وتطمئن إليه النفس لقولهم : [وما شهدنا إلا بما علمنا] .
ومنها : هذه الحنة العظيمة ، التي امتحن الله بها نبيه وصفيه ، يعقوب عليه السلام ، حيث قضى بالتفريق ، بينه وبين ابنه يوسف ، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة ، ويحزنه ذلك أشد الحزن .
فحصل التفريق بينه وبينه ، مدة طويلة ، لا تقصر عن ثلاثين سنة .
ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة [وابتيضت عيناه من الحزن فهو كظيم] .

ثم ازداد به الأمر شدة ، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثانى ، شقيق يوسف .

هذا هو صابر لأمر الله ، محتسب الأجر من الله ، قد وعد من نفسه الصبر الجميل ، ولا شك أنه وفى بما وعد به .

ولا ينافى ذلك ، قوله : [إنما أشكو بنى وحزنى إلى الله] فإن الشكوى إلى الله ، لاتنافى الصبر .

وإنما الذى ينافيه ، الشكوى إلى المخلوقين .

ومنها : أن الفرج مع الكرب ؛ وأن مع العسر يسراً .

فإنه لما طال الحزن على يعقوب ، واشتد به إلى أنهى^(١) ما يكون ، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ، ومسهم الضر ، أذنب الله حينئذ ، بالفرج .

فحصل التلاقى ، فى أشد^(٢) الأوقات إليه حاجة واضطراباً ، فتم بذلك الأجر ، وحصل السرور .

وعلم من ذلك ، أن الله يبطل أوليائه بالشدة والرخاء ، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم ، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفانهم .

(١) أنهى . أى : بلغ أقصى ما يتصوره الإنسان .

(٢) قوله « فى أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً » فيه أنه لو قال

فحصل التلاقى أحوج ما يكون إليه « لوضح المعنى وحصل المقصود مع الاختصار فى الكلام .

ومنها : جواز إخبار الإنسان بما يجد ، وما هو فيه ، من مرض ، أو فقر ونحوهما ، على غير وجه التسخط .

لأن إخوة يوسف قالوا : [يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر] ولم ينكر عليهم يوسف .

ومنها : فضيلة التقوى ، وأن كل خير في الدنيا والآخرة ، فمن آثار التقوى والصبر ، وأن عاقبة أهلها ، أحسن العواقب لقوله :

[قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين] .

ومنها : أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة ، بعد شدة ، وفقر ، وسوء حال ، أن يعترف بنعمة الله عليه ، وأن لا يزال ذا كراهة حاله الأولى ، ليحدث لذلك شكراً ، كلما ذكرها ، لقول يوسف عليه السلام :

[وقد أحسن بي إذا أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو] .

ومنها : لطف الله العظيم بيوسف ، حيث نقله في تلك الأحوال ، وأوصل إليه الشدائد والحن ، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ، ورفيع الدرجات .

ومنها : أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائماً ، في تثبيت إيمانه ، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك ، ويسأل الله حسن الخاتمة ، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام :

[ربّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين].
فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر ، في هذه القصة المباركة ، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك .

فنسأله تعالى ، علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة يوسف عليه الصلاة والسلام

والحمد لله رب العالمين

تفسير

سُورَةُ الرِّعْدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١)

* يخبر تعالى : أن هذا القرآن ، هو آيات الكتاب الدالة ، على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه ، وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه ، هو الحق المبين .

لأن إخباره صدق ، وأوامره ، ونواهيه ، عدل ، مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة .

فمن أقبل عليه ، وعلى علمه ، كان من أهل العلم بالحق ، الذي يوجب لهم علمهم به ، العمل بما أوجب الله .

[ولكن أكثر الناس لا يؤمنون] بهذا القرآن ، إما جهلاً ، وإعراضاً عنه ، وعدم اهتمام به ، وإما عناداً وظلماً .

فلذلك أكثر الناس ، غير منتفعين به ، لعدم السبب الموجب للانتفاع .

سُبْحَانَ اللَّهِ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ
أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَجَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

* يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير ، والعظمة والسلطان ، الدال
على أنه وحده المعبود ، الذي لا تنبغي العبادة إلا له قال :

[الله الذى رفع السموات] على عظمها واتساعها ، بقدرته العظيمة .

[بغير عمد ترونها] أى ليس لها عمد من تحتها ، فإنه لو كان لها عمد ،
لأيتموها .

[ثم] بعد ما خلق السموات والأرض [استوى على العرش] العظيم
الذى هو أعلى المخلوقات ، استواء يليق بجلاله ، ويناسب كماله .

[وسجّر الشمس والقمر] لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم .

[كل] من الشمس والقمر [يجرى] بتدبير العزيز العليم .

[إلى أجل مسمى] بسير منتظم ، لا يفتران ، ولا ينيان ، حتى يحىء
الأجل المسمى وهو طى الله هذا العالم ، ونقلهم إلى الدار الآخرة ، التى هى
دار القرار .

فعند ذلك يطوى الله السموات ، ويبدلها ، ويغير الأرض ويبدلها .

فتكور الشمس والقمر ، ويجمع بينهما ، فيلقيان فى النار ، ليرى من
عبدهما أنهما غير أهل للعبادة فيتحسر بذلك أشد الحسرة ، وليعلم الذين
كفروا ، أنهم كانوا كاذبين .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

وقوله [يدبر الأمر يفصل الآيات] هذا جمع بين الخلق والأمر .
أى : قد استوى الله العظيم على سرير الملك ، يدبر الأمور في العالم
العالى والسفلى .

فيخلق ويرزق ، ويغنى ، ويفقر ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين ،
ويعز ويذل ، ويخفض ويرفع ، ويقل العثرات ، ويفرج الكربات ، وينفذ
الأقدار في أوقاتها ، التى سبق بها علمه ، وجرى بها قلمه .

ويرسل ملائكته الكرام ، لتدبير ما جعلهم على تدبيره .
وينزل الكتب الإلهية على رسله ، ويبين ما يحتاج إليه العباد من
الشرائع ، والأوامر والنواهي ، ويفصلها غاية التفصيل ، يبينها ، وإيضاحها
وتمييزها .

[لعلكم] بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفيقة ، والآيات
القرآنية .

[بقاء ربكم توقنون] فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها ، من
أسباب حصول اليقين ، فى جميع الأمور الإلهية ، خصوصاً فى العقائد
الكبار ، كالبعث والنشور والإخراج من القبور .

وأيضاً ، فقد علم أن الله تعالى ، حكيم لا يخلق الخلق سدى ،
ولا يتركهم عبثاً .

فكما أنه أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، لأمر العباد ونهيههم ، فلا بد أن
ينقلهم إلى دار ، يحل فيها جزاؤه ، فيجازى المحسنين بأحسن الجزاء ،
ويجازى المسيئين بإساءتهم .

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ
جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

[وهو الذى مد الأرض] أى : خلقها للعباد ، ووسعها ، وبارك فيها ،
ومدها للعباد ، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع .

[وجعل فيها رواسى] أى : جبالا عظاما ، لثباتها بالخلق .

فإنه لولا الجبال ، لمادت بأهلها ، لأنها على تيار ماء ، لا ثبوت لها ،
ولا استقرار ، إلا بالجبال الرواسى ، التى جعلها الله أوتادا لها .

[و] جعل فيها [أنهاراً] تسقى الآدميين وبها ثمرهم وحروثهم .

فأخرج بها من الأشجار والزرع والثمار ، خيرا كثيرا ولهذا قال :

[ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين] أى : صنفين ، مما يحتاج
إليه العباد .

[يغشى الليل النهار] فتظلم الآفاق ، فيسكن كل حيوان إلى مأواه ،
ويستريحون من التعب والنصب فى النهار .

ثم إذا قضوا مأربهم من النوم ، غشى النهار الليل ، فإذا هم مصبحون
ينتشرون فى مصالحهم وأعمالهم فى النهار .

« ومن رحمته ، جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من
فضله ، ولعلكم تشكرون » .

[إن فى ذلك لآيات] على المطالب الإلهية [لقوم يتفكرون] فيها ،
وينظرون فيها نظرة اعتبار دالة على أن الذى خلقها ودبرها ، وصرفها ، هو
الله الذى لا إله إلا هو ، ولا معبود سواه ، وأنه عالم الغيب والشهادة ،

لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِّنْ
أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ

الرحمن الرحيم ، وأنه القادر على كل شيء ، الحكيم في كل شيء ، الحمود
على ما خلقه وأمر به ، تبارك وتعالى .

[و] من الآيات على كمال قدرته ، وبديع صنعته .

[في الأرض قطع متجاورات وجنات] فيها أنواع الأشجار [من
أعناب وزرع ونخيل] وغير ذلك .

والنخيل التي بعضها [صنوان] أى : عدة أشجار في أصل واحد .
[وغير صنوان] بأن كان كل شجرة على حدها .

والجميع [يسقى بماء واحد] وأرضه واحدة [ونفضل بعضها على بعض
في الأكل] لونا ، وطعما ، ونفعا ، ولذة .

فهذه أرض طيبة ، تنبت الكلأ والعشب الكثير ، والأشجار
والزروع .

وهذه أرض تلاصقها ، لاتنبت كلأ ، ولاتمسك ماء .

وهذه تمسك الماء ، ولاتنبت الكلأ .

وهذه تنبت الزرع والأشجار ، ولاتنبت الكلأ .

وهذه الثمرة حلوة ، وهذه مرة ، وهذه بين ذلك .

فهل هذا التنوع ، في ذاتها وطبيعتها ؟ أم ذلك تقدير العزيز

الرحيم ؟

وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجِّبْ قَوْلَهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَعْنَا لَنِي

[إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون] أى : لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم ، وتقودهم إلى ما يرشدون به ويعقلون عن الله ، وصاياه وأوامره ونواهيهِ .

وأما أهل الإعراض ، وأهل البلادة ، فهم في ظلماتهم يعمهون ، وفي غيهم يترددون .

لا يهتدون إلى ربهم سبيلا ، ولا يعون له قبيلا .

* يحتمل أن معنى قوله [وإن تعجب] من عظمة الله تعالى ، وكثرة أدلة التوحيد .

فإن العجب — مع هذا — إنكار المكذبين ، وتكذيبهم بالبعث .

وقولهم [أإذا كنا ترابا أإنا لفي خاق جديد] أى : هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم ، أنهم بعد ما كانوا ترابا ، أن الله يعيدهم .

فإنهم — من جهلهم — قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق .

فلما رأوا هذا ممتنعا ، في قدرة المخلوق ، ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق .

ونسوا أن الله خلقهم أول مرة ، ولم يكونوا شيئا .

خَلَقَ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَلُ
فِي آعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾
﴿٧﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ

ويحتمل أن معناه : وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم للبعث ، فإن
ذلك من العجائب .

فإن الذي توضح له الآيات ، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ،
ما لا يقبل الشك والريب ، ثم ينكر ذلك ، فإن قوله من العجائب .
واسكن ذلك لا يستغرب على [أولئك الذين كفروا بربهم] وجحدوا
وحدانته ، وهي أظهر الأشياء وأجلاها .

[وأولئك الأغلال] المانعة لهم من الهدى [في آعناقهم] حيث دعوا
إلى الإيمان ، فلم يؤمنوا ، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا .
فقلبت قلوبهم وأفئدتهم ، عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة .
[وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] لا يخرجون منها أبداً .

* يخبر تعالى ، عن جهل المكذبين لرسوله ، المشركين به ، الذين وعظوا
فلم يتعظوا ، وأقيمت عليهم الأدلة ، فلم ينقادوا لها .

بل جاهرُوا بالإنكار ، واستدلوا بحلم الله الواحد القهار عنهم ، وعدم
معاجلتهم بذنوبهم ، أنهم على حق ، وجعلوا يتعجلون الرسول بالعذاب ،
ويقول قائلهم : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة
من السماء ، أو اتنا بعذاب أليم » .

قَبْلِهِمُ أَمْثَلْتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

[و] الحال أنه [قد خلت من قبلهم المثلاث] أى : وقائع الله وأيامه
فى الأمم المكذبين ، أفلا يتفكرون فى حالهم ، ويتركون جهلهم .
[وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم] أى : لا يزال خيره إليهم ،
وإحسانه ، وبره ، وعفوه نازلاً إلى العباد .
وهم لا يزال شرهم ، وعصيانهم إليه صاعداً .
يعصونه فيدعوهم إلى بابه ، ويجرمون ، فلا يحرمهم خيره وإحسانه .
فإن تابوا إليه ، فهو حبيبهم ، لأنه يحب التوابين ، ويجب المتطهرين
وإن لم يتوبوا ، فهو طيبهم ، يبتليهم بالمصائب ، ليظهرهم من المعائب
« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن
الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » .
[وإن ربك لشديد العقاب] على من لم يزل مصراً على الذنوب ، قد
أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز الغفار .
فليحذر العباد عقوباته بأهل الجرائم ، فإن أخذه أليم شديد .

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

* أى : ويقترح الكفار عليك من الآيات ، التى يعينون ويقولون :

[لولا أنزل عليه آية من ربه] ويعملون هذا القول منهم . عذراً لهم
فى عدم الإجابة إلى الرسول .

والحال ، أنه منذر ، ليس له من الأمر شىء ، والله الذى ينزل
الآيات .

وقد أيدته بالأدلة البينات ، التى لا تخفى على أولى الأبواب ، وبها يهتدى
من قصده الحق .

وأما الكافر ، الذى - من ظلمه وجهله - يقترح على الله الآيات ،
فهذا اقتراح منه ، باطل وكذب وافتراء .

فإنه لو جاءت أى آية كانت ، لم يؤمن ولم ينقد ، لأنه لم يمتنع من
الإيمان ، لعدم مايدله على صحته ، وإنما ذلك ، لهوى نفسه ، واتباع شهوته .
[ولكل قوم هاد] أى : داع يدعوهم إلى الهدى ، من الرسل
وأتباعهم .

ومعهم من الأدلة والبراهين ، ما يدل على صحة ما معهم من الهدى .

﴿١﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ

* يخبر تعالى ، بعموم علمه ، وسعة اطلاعه ، وإحاطته بكل شيء . فقال :

[الله يعلم ما تحمل كل أنثى] من بنى آدم وغيرهم .

[وما تغيص الأرحام] أى : تنقص مما فيها ، إما أن يهلك الحمل ،
أو يتضاءل أو يضمحل .

[وما تزداد] الأرحام وتكبر الأجنة التى فيها .

[وكل شيء عنده بمقدار] لا يتقدم عليه ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص
إلا بما تقتضيه حكمته وعلمه .

فإنه [عالم الغيب والشهادة الكبير] فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته
[المتعال] على جميع خلقه ، بذاته وقدرته ، وقهره .

[سواء منكم] فى علمه وسمعه ، وبصره .

[من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل] أى : مستقر
بمكان خفى فيه .

[وسارب بالنهار] أى : داخل سريره فى النهار ، والسرب هو :
ما يستخفى فيه الإنسان ، إما جوف بيته ، أو غار ، أو مغارة ، أو
نحو ذلك .

[له] أى للإنسان [معقبات] من الملائكة ، يتعاقبون فى الليل والنهار .

بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ
حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ
وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنَ وَالٍ ﴿١١﴾

[من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله] أى : يحفظون بدنه
وروحه ، من كل من يريده بسوء ، ويحفظون عليه أعماله ، وهم ملازمون
له دائماً .

فكما أن علم الله محيط به ، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد ،
بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم ، ولا ينسى منها شيئاً .

[إن الله لا يغير ما بقوم] من النعمة والإحسان ، ورغد العيش [حتى يغيروا
ما بأنفسهم] بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ، ومن الطاعة إلى المعصية .
أو من شكر نعم الله إلى البطر بها ، فيسلبهم الله إياها عند ذلك .
وكذلك إذا غير العباد ، ما بأنفسهم من المعصية ، فانتقلوا إلى طاعة
الله ، غيّر الله عليهم ، ما كانوا فيه من الشقاء ، إلى الخير والسرور
والغبطة والرحمة .

[وإذا أراد الله بقوم سوءاً] أى : عذاباً وشدة ، وأمرًا يكرهونه ،
فإن إرادته ، لا بد أن تنفذ فيهم .

[ف] إنه [لا مرد له] ولا أحد يمنعهم منه .

[وما لهم من دونه من وال] يتولى أمورهم ، فيجلب لهم المحبوب ،
ويدفع عنهم المكروه .

فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله ، خشية أن يحل بهم من العقاب
مالا يرد عن القوم المجرمين .

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٣﴾

* يقول تعالى : [هو الذى يريك البرق خوفا وطمعا] أى : يخاف منه الصواعق والهدم ، وأنواع الضرر ، على بعض الثمار ونحوها ، ويطمع فى خيره ونفعه .

[وينشئ السحاب الثقال] بالمطر الغزير ، الذى به نفع العباد والبلاذ . [ويسبح الرعد بحمده] وهو الصوت ، الذى يسمع من السحاب المزعج للعباد ، فهو خاضع لربه ، مسبح بحمده .

[و] تسبح [للملائكة من خيفته] أى : خشعا لربهم ، خائفين من سطوته .

[ويرسل الصواعق] وهى هذه النار ، التى تخرج من السحاب .

[فيصيب بها من يشاء] من عباده ، بحسب ما شاءه وأراده [وهم يجادلون فى الله وهو شديد الحال] أى : شديد الحول والقوة ، فلا يريد شيئا إلا فعله ، ولا يتعاصى عليه شيء ، ولا يفوته هارب .

فإذا كان هو وحده ، الذى يسوق للعباد الأمطار والسحب ، التى فيها مادة أرزاقهم ، وهو الذى يدبر الأمور ، وتخضع له المخلوقات العظام ، التى يخاف منها ، وتزعج العباد ، وهو شديد القوة — فهو الذى يستحق أن يعبد وحده ولا شريك له .

ولهذا قال : [له دعوة الحق] إلى [إلا فى ضلال] .

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ
لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ

* [له] أى : لله وحده [دعوة الحق] وهى : عبادته وحده لاشريك له
وإخلاص دعاء العبادة ، ودعاء المسألة له تعالى .

أى : هو الذى ينبغى أن يصرف له الدعاء ، والخوف ، والرجاء ،
والحب ، والرغبة ، والرغبة ، والإنابة ، لأن ألوهيته ، هى الحق ، وألوهية
غيره ، باطلة .

[والذين يدعون من دونه] من الأوثان ، والأنداد ، التى جعلوها
شركاء لله .

[لا يستجيبون لهم] أى : لمن يدعوها ويعبدها ، بشىء قليل
ولا كثير ، لامن أمور الدنيا ، ولا من أمور الآخرة .
[إلا كباسط كفيه إلى الماء] الذى لاتناله كفاه لبعده .

[ليلبغ] يبسط كفيه إلى الماء [فاه] ، فإنه عطشان ، ومن شدة
عطشه ، يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه ، فلا
يصل إليه .

كذلك الكفار ، الذين يدعون مع الله آلهة ، لا يستجيبون لهم
شىء ، ولا ينفعونهم فى أشد الأوقات إليهم حاجة ، لأنهم فقراء ، كما أن
من دعوهم فقراء ، لا يملكون مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وما لهم
فيها من شرك ، وماله منهم من ظهير .

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَضَلَالًا لَهُمْ يَأْتُوا بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ ﴿١٥﴾

[وما دعاء الكافرين إلا في ضلال] لبطلان ما يدعون من دون الله .
فبطلت عبادتهم ودعاؤهم ، لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها .
ولما كان الله تعالى ، هو الملك الحق المبين ، كانت عبادته حقاً ، متصلة
النفع بصاحبها في الدنيا والآخرة .
وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله ، بالذى يبسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه
من أحسن الأمثلة .

فإن ذلك تشبيه بأمر محال ، فكما أن هذا محال ، فالتشبيه به محال .
والتعليق على المحال ، من أبلغ ما يكون في نفي الشيء كما قال تعالى
« إن الذين كفروا وكذبوا بآياتنا لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون
الجنة حتى يبلج الجمل في سم الخياط » .

* أى : جميع ما احتوت عليه السموات والأرض كلها ، خاضعة لربها ،
تسجد له [طوعاً وكرهاً] .

فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع ، اختياراً ، كالؤمنين .
والكره ، لمن يستكبر عن عبادة ربه ، وحاله وفطرته ، تكذبه في ذلك .
[وظلالهم بالقُدور والأصال] أى : وتسجد له ظلال المخلوقات ، أول
النهار وآخره ، وسجود كل شيء ، بحسب حاله كما قال تعالى :
« وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ
مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعا وكرها ، كان هو الإله
حقا ، المعبود المحمود حقا ، وإلهية غيره باطلة .

ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله : [قل من رب السموات]
إلى [الواحد القهار] .

* أى : قل لهؤلاء المشركين به ، أوثانا وأندادا ، يحبونها كما يحبون
الله ، ويبدلون لها أنواع التقربات والعبادات : أفثاها عقواكم ، حتى
اتخذتم من دونه أولياء ، تقولونهم بالعبادة ، وليسوا بأهل لذلك ؟

فإنهم [لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا] ، وتكون ولاية من هو
كامل الأسماء والصفات ، المالك للأحياء والأموات ، الذى بيده الخلق
والتدبير ، والذئع والضر ؟

فما تستوى عبادة الله وحده ، وعبادة المشركين به .

[قل هل يستوى الأعشى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور] ؟
فإن كان عندهم شك واشتباة ، وجعلوا له شركاء ، زعموا أنهم خلقوا
كخلقه ، وفعلوا كفعله ، فأرل عنهم هذا الاشتباة واللبس ، بالبرهان
الذال على تفرد الإله بالوحدانية .

فقل لهم : [الله خالق كل شىء] فإنه من الحال أن يخلق شىء من
الأشياء نفسه .

لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

﴿١٧﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا
فَأَخْتَلَّ السَّيْلُ زَبَدًا رَايَا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ

ومن الحال أيضاً ، أن يوجد من دون خالق .
فتعين أن لها إلهاً خالقاً ، لا شريك له في خلقه ، لأنه الواحد القهار .
فإنه لا توجد الوحدة والقهر ، إلا الله وحده .
فالمخلوقات وكل مخلوق ، فوقه مخلوق يقهره ثم فوق ذلك القاهر ، قاهر
أعلى منه ، حتى ينتهى القهر للواحد القهار .
فالقهر والتوحيد ، متلازمان ، متعينان لله وحده .
فتبين بالدليل العقلي القاهر ، أن ما يدعى من دون الله ، ليس له شيء
من خلق المخلوقات ، وبذلك كانت عبادته باطلة .
* شبه تعالى الهدى ، الذى أنزل على رسوله حياة القلوب والأرواح ،
بالماء الذى أنزله لحياة الأشباح .
وشبه ما فى الهدى من النفع العام الكثير ، الذى يضطر إليه العباد ،
بما فى المطر من النفع العام الضرورى .
وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها ، بالأودية التى تسيل فيها السيول .
فوَادٍ كبير ، يسع ماء كثيراً ، كقلب كبير ، يسع علماً كثيراً .
ووَادٍ صغير ، يأخذ ماء قليلاً ، كقلب صغير ، يسع علماً قليلاً ، وهكذا .

حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا
الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات ، عند وصول الحق إليها ، بالزبد الذي يعلو الماء ، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها ، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له ، حتى تذهب وتضمحل ، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي ، والحلية الخالصة .

كذلك الشبهات والشهوات ، لا يزال القلب يكرهها ، ويجاهدها بالبراهين الصادقة ، والإرادات الجازمة ، حتى تذهب وتضمحل ، ويبقى القلب خالصاً صافياً ، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق ، وإيثاره ، والرغبة فيه .

فالباطل يذهب ويمحقه الحق [إن الباطل كان زهوقاً] .

وقال هنا : [كذلك يضرب الله الأمثال] ليتضح الحق من الباطل والهدى والضلال .

* لما بينَ تعالى ، الحق من الباطل ، ذكر أن الناس على قسمين :

مستجيب لربه ، فذكر ثوابه ، وغير مستجيب ، فذكر عقابه فقال :

[للذين استجابوا لربهم] أى : اتقادت قلوبهم للعلم والإيمان ، وجوارحهم

للأمر والنهي ، وصاروا موافقين لربهم فيما يريد منهم .

فلهم [الحسنى] أى : الحالة الحسنة ، والثواب الحسن .

لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾

فلهم من الصفات أجَلُّها ، ومن المناقب أفضلها . ومن الثواب العاجل
والآجل ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[والذين لم يستجيبوا له] بعد ما ضرب لهم الأمثال ، وبين لهم الحق ،
لهم الحالة غير الحسنة .

و[لو أن لهم ما في الأرض جميعاً] من ذهب وفضة وغيرها .

[ومثله معه لافقدوا به] من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ، وأنى
لهم ذلك ؟ !!! .

[أولئك لهم سوء الحساب] ، وهو الحساب الذى يأتى على كل ما
أسلفوه ، من عمل سيئ ، وما ضيعوه من حقوق عباده قد كتب ذلك ،
وسطر عليهم ، وقالوا : « ياويلتنا مال هذا الكتاب ، لا يغادر صغيرة
ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » .

[و] بعد هذا الحساب السيئ [مأواهم جهنم] الجامعة لكل عذاب ،
من الجوع الشديد ، والعطش الوجيع ، والنار الحامية ، والزقوم ، والزمهرير ،
والضريع ، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب .

[وبئس المهاد] أى : المقر ، والسكن ، مسكنهم .

﴿١٩﴾ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ

* يقول تعالى : مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم :

[أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق] ففهم ذلك ، وعمل به .

[كمن هو أعمى] لا يعلم الحق ، ولا يعمل به ، فيبينهما من الفرق ، كما بين السماء والأرض .

فحقيق بالعبد ، أن يتذكر ويفكر ، أي الفريقين ، أحسن حالا ، وخير مآلاً ، فيؤثر طريقها ، ويسلك خلف فريقها .

ولكن ما كل أحد ، يتذكر ما ينفعه ويضره .

[إنما يتذكر أولو الأبواب] أي : أولو العقول الرزينة ، والآراء الكاملة ، الذين هم ، لبُّ العالم ، وصفوة بني آدم .

فإن سألت عن وصفهم ، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله :

[الذين يوفون بعهد الله] الذي عهده إليهم ، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة ، فالوفاء بها ، توفيتها حقها ، من التنمية لها ، والنصح فيها .

[و] تمام الوفاء بها ، أنهم [لا ينقضون الميثاق] أي : العهد الذي عاهدوا الله عليه .

فدخل في ذلك ، جميع الموائيق والمعهود ، والأيمان والنذور ، التي يعقدها العباد .

وَلَا يَنْقُضُونَ أَلْمِيقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا
أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا

فلا يكون العبد من أولى الألباب ، الذين لهم الثواب العظيم ، إلا
بأدائها كاملة ، وعدم نقضها وبخسها .

[والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل] وهذا عام في كل ما أمر الله
بوصله ، من الإيمان به ، وبرسوله ، ومحبته ، ومحبة رسوله ، والالتقاد
لعبادته وحده لا شريك له ، ولطاعة رسوله .

ويصلون آباءهم وأمهاتهم ، ببرهم بالقول والفعل ، وعدم عقوبتهم .

ويصلون الأقارب والأرحام ، بالإحسان إليهم ، قولاً وفعلاً .

ويصلون ما بينهم وبين الأزواج ، والأصحاب ، والمالِك ، بأداء حقهم ،

كاملاً موفراً ، من الحقوق الدينية والدنيوية .

والسبب الذى يجعل العبد واصلاً ما أمر الله به ، أن يوصل خشية الله ،

وخوف يوم الحساب ، ولهذا قال :

[ويخشون ربهم] أى : يخافونه ، فيمنعهم خوفهم منه ، ومن القُدوم

عليه يوم الحساب ، أن يتجرأوا على معاصي الله ، أو يقصروا فى شيء مما

أمر الله به ، خوفاً من العقاب ، ورجاءاً للثواب .

[والذين صبروا] على المأمورات بامتنالها ، وعن المنهيات بالانكفاف

عنها ، والبعد منها ، وعلى أقدار الله المؤلّة ، بعدم تسخطها .

وَعَلَانِيَةً وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر [ابتغاء وجه ربهم] لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة ، فإن هذا هو الصبر النافع ، الذى يحبس به العبد نفسه ، طلباً لمرضاة ربه ، ورجاء للقرب منه .

والحظوة بثوابه ، هو الصبر الذى من خصائص أهل الإيمان .

وأما الصبر المشترك ، الذى غايته التجلد ، ومنتهاه ، الفخر ، فهذا يصدر من البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، فليس هو المدوح ، على الحقيقة .

[وأقاموا الصلاة] بأركانها ، وشروطها ، ومكملاتها ، ظاهراً وباطناً .

[وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية] دخل فى ذلك ، النفقات الواجبة ، كالزكوات ، والكفارات ، والنفقات المستحبة ، وأنهم ينفقون ، حيث دعت الحاجة إلى النفقة ، سراً وعلانية .

[ويدروا أن بالحسنة السيئة] أى : من أساء إليهم ، بقول أو فعل ، لم يقابلوه بفعله ، بل قابلوه بالإحسان إليه .

فيعطون من حرمهم ، ويعفون عن ظلمهم ، ويصلون من قطعهم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم .

وإذا كانوا يقابلون السيء بالإحسان ، فما ظنك بغير السيء ؟ !

[أولئك] الذين وصفت صفاتهم الجليلة ، ومناقبهم الجميلة [لهم عاقبة الدار] .

فسرها بقوله : [جنات عدن] أى : إقامة ، لا يزولون منها ، ولا يبغون عنها حِوْلاً ، لأنهم يرون فوقها : غاية لما اشتملت عليه من النعيم ، والسرور ، الذى تنتهى إليه المطالب والغايات .

جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا
صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم ، أنهم [يدخلونها ، ومن صلح
من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم] من الذكور والإناث وكذلك النظراء
والأشباه ، والأصحاب ، والأحاب ، فإنهم من قبيل أزواجهم وذرياتهم .
[والملائكة يدخلون عليهم من كل باب] يهتوهم بالسلامة ، وكرامة
الله لهم ويقولون :

[سلام عليكم] أى : حَلَّتْ عليكم السلامة والتحية من الله ،
حصلت لكم .

وذلك متضمن لزوال كل مكروه ، ومستلزم لحصول كل محبوب .

[بما صبرتم] أى : بسبب صبركم ، وهو الذى أوصلكم إلى هذه المنازل
العالية ، والجنان الغالية .

[فنعم عقبى الدار] فحقيق بمن نصح نفسه ، وكان لها عنده قيمة ، أن
يجاهدها ، لعلها تأخذ من أوصاف أولى الأبواب بنصيب .

ولعلها تحظى بهذه الدار ، التى هى منية النفوس ، وسرور الأرواح ،
الجامعة لجميع اللذات والأفراح .

فلمثلها ، فليعمل العاملون ، وفيها ، فليتنافس المتنافسون .

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ
الْعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾

* لما ذكر حال أهل الجنة ، ذكر أن أهل النار ، بعكس ما وصفهم
به فقال عنهم :

[الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه] أى : من بعد ما أوكده
عليهم على أيدي رسله ، وغلظ عليهم ، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم ، بل
قابلوه بالإعراض والنقض .

[ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل] فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم
بالإيمان والعمل الصالح ، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق ، بل
أفسدوا في الأرض ، بالكفر والمعاصي ، والصد عن سبيل الله ،
وابتغائها عوجاً .

[أولئك لهم اللعنة] أى البعد والذم ، من الله وملائكته ، وعباده
المؤمنين .

[ولهم سوء الدار] وهى : الجحيم ، بما فيها من العذاب الأليم .

﴿٢٦﴾ اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾
﴿٢٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ
قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ

* أى : هو وحده ، يوسع الرزق ويسطه على من يشاء ، ويقدره ويضيقه
على من يشاء .

[وفرحوا] أى : الكفار [بالحياة الدنيا] فرحاً ، أوجب لهم أن
يطمنئوا بها ، ويغفلوا عن الآخرة ، وذلك لنقصان عقولهم .

[وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع] أى : شئ حقير ، يتمتع به
قليلاً ، ويفارق أهله وأصحابه ، ويعقبهم ويلا طويلاً .

* يخبر تعالى ، أن الذين كفروا بآيات الله ، يتعمنون على رسول الله ،
ويتترحون ويقولون :

[لولا أنزل عليه آية من ربه] وبزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا ،
فأجابهم الله بقوله :

[قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب] أى : طلب
رضوانه .

فليست الهداية والضلال بأيديهم ، حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات .

ومع ذلك ، فهم كاذبون ، فلو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلهم الموتى ،
وحشرنا عليهم كل شئ قبلاً ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن
أكثرهم يجهلون .

ءَامِنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

ولا يلزم أن يأتي الرسول ، بالآية ، التي يعينونها ، ويقترحونها ، بل إذا جاءهم بآية ، وتبين ما جاء به من الحق ، كفى ذلك ، وحصل المقصود ، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها .

فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا ، فلم يؤمنوا بها ، لعاجلهم العذاب . ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال : [الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله] أى : يزول قلقها واضطرابها ، وتحضرها أفراحها ولذاتها . [ألا بذكر الله تطمئن القلوب] أى : حقيق بها ، وحرى أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره ، فإنه لا شيء ألد للقلوب ولا أحلى ، من محبة خالقها ، والأنس به ومعرفته .

وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له ، يكون ذكرها له . هذا على القول بأن ذكر الله ، هو ذكر العبد لربه ، من تسبيح ، وتهليل ، وتكبير وغير ذلك .

وقيل : إن المراد بذكر الله ، كتابه ، الذى أنزله ، ذكرى للمؤمنين . فعلى هذا ، معنى طمأنينة القلب بذكر الله : أنها حين تعرف معانى القرآن وأحكامه ، تطمئن لها ، فإنها تدل على الحق المبين ، المؤيد بالأدلة والبراهين ، وبذلك تطمئن القلوب ، فإنها لا تطمئن القلوب ، إلا باليقين والعلم ، وذلك فى كتاب الله ، مضمون على أتم الوجوه وأكملها .

وأما ما سواه من الكتب ، التي لا ترجع إليه ، فلا تطمئن بها ، بل لا تزال قلقة من تعارض الأدلة ، وتضاد الأحكام .

الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ
مَآبٍ ﴿٢٩﴾

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وهذا إنما يعرفه من خبر كتاب الله ، وتدبره ، وتدبر غيره من أنواع العلوم ، فإنه يجد بينها وبينه فرقاً عظيماً .

ثم قال تعالى : [الذين آمنوا وعملوا الصالحات] أى : آمنوا بقلوبهم بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وصدقوا هذا الإيمان ، بالأعمال الصالحة ، أعمال القلوب ، كمحبة الله ، وخشيته . ورجائه ، وأعمال الجوارح ، كالصلاة ونحوها .

[طوبى لهم وحسن مآب] أى : لهم حالة طيبة ، ومرجع حسن .

وذلك بما ينالون ، من رضوان الله وكرامته ، فى الدنيا والآخرة ، وأن لهم كمال الراحة ، وتمام الطمأنينة .

ومن جملة ذلك ، شجرة طوبى ، التى فى الجنة ، التى يسير الراكب فى ظلها ، مائة عام ما يقطعها ، كما وردت بها الأحاديث الصحيحة .

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ
لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ اللَّذَى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ
رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (٣٠)

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [كذلك أرسلناك] إلى قومك تدعوهم إلى الهدى .

[فى أمة قد خلت من قبلها أمم] أرسلنا فيهم رسلنا .

فلمست يبدع من الرسل ، حتى يستنكروا رسالتك .

ولست تقول من تلقاء نفسك .

بل تلو عليهم آيات الله ، التى أوحاها الله إليك ، التى تطهر القلوب ،
وتركى النفوس .

والحال أن قومك ، يكفرون بالرحمن ، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه —
التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا ، وأنزلنا عليك كتاباً — بالقبول
والشكر ، بل قابلوها بالإنكار والرد .

فلا يمتبرون بمن خلا من قبلهم ، من القرون المكذبة ، كيف أخذهم
الله بذنوبهم .

[قل هو ربى لا إله إلا هو] وهذا متضمن التوحيدين ، توحيد
الألوهية ، وتوحيد الربوبية .

فهو ربى ، الذى ربانى بنعمه ، منذ أوجدنى ، وهو إلهى الذى [عليه
توكلت] فى جميع أمورى [وإليه أنيب] أى : أرجع فى جميع عباداتى ،
وفى حاجاتى .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ
الْأَرْضُ أَوْ كُلُّ نَفْسٍ بِهِ مَأْمُوتٌ ۚ بَلْ لَّئِنْ لَّمْ يَأْمُرْ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْمُرِ الَّذِينَ
آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ
وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٣١)

* يقول تعالى — مبيناً فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة —:

[ولو أن قرآنًا] من الكتب الإلهية [سيرت به الجبال] عن أماكنها
[وقطعت به الأرض] جناناً وأنهاراً [وكلم به الموتى] لكان هذا القرآن .
[بل لله الأمر جميعاً] فيأتى بالآيات ، التى تقتضيهما حكمته .

فما بال المكذبين ، يقترحون من الآيات — ما يقترحون ؟

فهل لهم ولنغيرهم من الأمر شيء ؟ .

[أفلم يبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً] فليعلموا
أنه قادر على هدايتهم جميعاً ، ولكن لا يشاء ذلك ، بل يهدى من يشاء
ويضل من يشاء .

[ولا يزال الذين كفروا] على كفرهم ، لا يعتبرون ، ولا يتعظون .
والله تعالى يوالى عليهم القوارع ، التى تصيبهم فى ديارهم ، أو تحل
قريباً منها ، وهم مصرون على كفرهم [حتى يأتى وعد الله] الذى وعدهم به ،
لنزول العذاب المتصل ، الذى لا يمكن رفعه .

[إن الله لا يخلف الميعاد] وهذا تهديد وتخويف لهم من نزول ،
ما وعدهم الله به على كفرهم ، وعنادهم ، وظلمهم .

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾
أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا
لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظُهُرِ

يقول تعالى لرسوله — مثبِّتاً له ، ومسلماً —

[ولقد استهزىء برسول من قبلك] فليست أول رسول ، كُذِّبَ وأُوذِيَ
[فأملت للذين كفروا] برسلمهم ، أى : أمهلتهم مدة ، حتى ظنوا
أنهم غير معذبين .

[ثم أخذتهم] بأنواع العذاب [فكيف كان عقاب] كان عقاباً
شديداً ، وعذاباً ألماً .

فلا يفتر هؤلاء الذين كذبوك ، واستهزأوا بك ، يأمهالنا فلهم أسوة
فيمن قبلهم من الأمم ، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك .

* يقول تعالى : [أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت] بالجزاء العاجل
والآجل ، بالعدل والقسط ، وهو : الله تبارك وتعالى ، كمن ليس كذلك ؟
ولهذا قال : [وجعلوا لله شركاء] وهو الله الأحد ، الفرد ، الصمد ،
الذى لا شريك له ، ولا يد ولا نظير .

[قل] لهم ، إن كانوا صادقين : سموهم [لنعلم حالهم] .

[أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض] فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة ،
وهو لا يعلم له شريكاً ، علم بذلك ، بطلان دعوى الشريك له وأنكم بمنزلة

مَنْ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ
وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾

الذى يُعَلِّمُ الله أن له شريكا ، وهو لا يعلمه ، وهذا أبطل ما يكون ، ولهذا
قال : [أم بظاهر من القول] أى : غاية ما يمكن من دعوى الشريك له
تعالى ، أنه بظاهر أقوالكم .

وأما فى الحقيقة ، فلا إله إلا الله ، وليس أحد من الخلق ، يستحق
شيئا من العبادة .

[بل زين للذين كفروا مكرهم] الذى مكروه ، وهو كفرهم ، وشرهم ،
وتسكذيبهم لآيات الله .

[وصدوا عن السبيل] أى : عن الطريق المستقيمة ، الموصلة إلى الله ،
وإلى دار كرامته .

[ومن يضل الله فما له من هادٍ] لأنه ليس لأحد من الأمر شيء .

[لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق] من عذاب
الدنيا ، لشدة ودوامه .

[وما لهم من الله من واقٍ] يقيهم من عذابه ، فعذابه إذا وجهه إليهم ،
لامانع منه .

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى
الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ (٣٥)

﴿وَالَّذِينَ اتَّيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ

* يقول تعالى : [مثل الجنة التي وعد المتقون] الذين تركوا ما نهاهم الله عنه ، ولم يقصروا فيما أمرهم به ، أى صفتها وحقيقتها [تجرى من تحتها الأنهار] أنهار العسل ، وأنهار الخمر ، وأنهار اللبن ، وأنهار الماء التي تجرى في غير أخدود .

فتسقى تلك البساتين ، والأشجار ، فتحمل جميع أنواع الثمار .

[أكلها دائم وظلها] دائم أيضاً .

[تلك عُقبى الذين اتقوا] أى : ما لهم وعاقبتهم ، التي إليها يصيرون .

[وعقبى الكافرين النار] فكم بين الفريقين من الفرق المبين ؟ !!

* يقول تعالى : [والذين أتيناكم الكتاب] أى : مننا عليهم به وبمعرفته .

[يفرحون بما أنزل إليك] فيؤمنون به ، ويصدقونه ، ويفرحون

بموافقة الكتب بعضها لبعض ، وتصديق بعضها بعضاً ، وهذه حال من آمن ،

من أهل الكتاب .

[ومن الأحزاب من ينكر بعضه] أى : ومن طوائف الكفار

المنحرفين عن الحق ، من ينكر بعض هذا القرآن ، ولا يصدقه .

وَلَا أُشْرِكْ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَأْبُ ﴿٣٦﴾
 وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَنْ تُبَيِّنَ
 أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ
 وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

« فن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها » إنما أنت يا محمد
 منذر ، تدعوا إلى الله .
 [قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به] أى : بإخلاص الدين
 لله وحده .

[إليه أَدْعُوا وإليه مَأْبُ] أى : مرجعى الذى أرجع به إليه ، فيجازينى
 بماقت به من الدعوة ، إلى دينه ، والقيام بما أمرت به .
 * أى : ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب ، حكماً عربياً ، أى : محكماً
 متقناً ، بأوضح الألسنة ، وأفصح اللغات ، لئلا يقع فيه شك واشتباه ،
 وليوجب أن يتبع وحده ، ولا يداهن فيه ، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه ،
 من أهواء الذين لا يعلمون .

ولهذا تواعد رسوله - مع أنه معصوم - لئتن عليه بعصمته ، وليكون
 لأمتة أسوة فى الأحكام ، فقال : [ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من
 العلم] البين الذى ينهك عن اتباع أهوائهم .

[مالك من الله من ولى] يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب .

[ولا واق] يقيك من الأمر المكروه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمُ أَزْوَاجًا
وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ
أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ

* أى : لست أول رسول أرسل إلى الناس ، حتى يستغربوا رسالتك .

[ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية] فلا يعيبك
أعداؤك ، بأن يكون لك أزواج وذرية ، كما كان لإخوانك المرسلين .

فلأى شيء يقدحون فيك بذلك ؟ وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك
إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم .

وإن طلبوا منك آية اقترحوها ، فليس لك من الأمر شيء .

[وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله] والله لا يأذن فيها ،
إلا في وقتها الذى قدره وقضاه .

[لكل أجل كتاب] لا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه .

فليس استعجالهم بالآيات أو العذاب ، موجبا ، لأن يقدم الله ما كتب
أنه يؤخر ، مع أنه تعالى فعال لما يريد .

[يمحوا الله ما يشاء] من الأقدار [ويثبت] ما يشاء منها ، وهذا
الحو والتغيير ، فى غير ماسبق به علمه ، وكتبه قلمه ، فإن هذا لا يقع فيه
تبديل ولا تغيير ، لأن ذلك محال على الله ، أن يقع فى علمه نقص ، أو خلل ،
ولهذا قال :

أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعَنَّكَ

[وعنده أم الكتاب] أى : اللوح المحفوظ ، الذى ترجع إليه سائر الأشياء ، فهو أصلها ، وهى فروع وشعب .

فالتغيير والتبديل ، يقع فى الفروع والشعب ، كأعمال اليوم والليلة ، التى تكتبها الملائكة ، ويجعل الله لثبوتها أسباباً ، ولحوها أسباباً ، لاتتعدى تلك الأسباب ، مارسم فى اللوح المحفوظ .

كما جعل الله البر ، والصلة ، والإحسان ، من أسباب طول العمر ، وسعة الرزق .

وكما جعل المعاصى ، سبباً لحق بركة الرزق والعمر .

وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب ، سبباً للسلامة .

وجعل التعرض لذلك ، سبباً للعطب .

فهو الذى يدبر الأمور ، بحسب قدرته وإرادته .

ومايدبره منها ، لا يخالف ما قد علمه وكتبه ، فى اللوح المحفوظ .

* يقول تعالى ، لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : لا تعجل عليهم ، بإصابة ما يوعدون من العذاب .

فهم ، إن استمروا على طغيانهم وكفرهم ، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به .

[إما نرينك] إياه فى الدنيا ، فقتر بذلك عينك .

بل هى مبنية على القسط والعدل والحمد فلا يتعقبها أحد ، ولا سبيل إلى

القدح فيها .

[أو نتوفينك] قبل إصابتهم ، فليس ذلك شغلا لك [فإنما عليك البلاغ]

والتبيين للخلق .

فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ
وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

[وعلينا الحساب] فتحاسب الخلق على ما قاموا به ، بما عليهم ،
أو ضيعوه ، ونثيبهم أو نعاقبهم .

ثم قال — متوعداً للمكذبين — [أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا
مِنْ أَطْرَافِهَا] : قيل بإهلاك المكذبين ، واستئصال الظالمين .

وقيل : بفتح بلدان المشركين ، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم ، وقيل
غير ذلك من الأقوال .

والظاهر — والله أعلم — أن المراد بذلك ، أن أراضى هؤلاء المكذبين
جعل الله ، يفتحها ويحتاحها ، ويحل القوارع بأطرافها ، تنبئها لهم قبل أن
يحتاجهم النقص ، ويوقع الله بهم من القوارع ، مالا يرده أحد .

ولهذا قال : [والله يحكم لا معقب لحكمه] ويدخل في هذا ، حكمه
الشرعى ، والقدرى والجزائى .

فهذه الأحكام ، التى يحكم الله فيها ، توجد فى غاية الحكمة والإنقان ،
لا خلل فيها ولا نقص .

بل هى مبنية على القسط والعدل والحمد ، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل
إلى القدح فيها .

بخلاف حكم غيره ، فإنه قد يوافق الصواب ، وقد لا يوافقه .
[وهو سريع الحساب] أى : فلا يستعجلوا بالعذاب ، فإن كل ما هو
آت ، فهو قريب .

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ
مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (٤٢)
وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي

* يقول تعالى : [وقد مكر الذين من قبلهم] برسلهم ، وبالحق الذي
جاءت به الرسل ، فلم يغن عنهم مكرهم ، ولم يصنعوا شيئاً ، فإنهم يحاربون
الله ويبارزونه .
[فله المكر جميعاً] أى : لا يقدر أحد أن يمكر مكرّاً إلا يأذنه ،
وتحت قضائه وقدره .

فإذا كانوا يمكرون بدينه ، فإن مكرهم ، سيعود عليهم بالخبية والندم .
فإن الله [يعلم ما تكسب كل نفس] أى : هو مهمل وإراداتها وأعمالها
الظاهرة والباطنة .

والمكر ، لا بد أن يكون من كسبها ، فلا يخفى على الله مكرهم .
فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله ، ويفيدهم شيئاً .
[وسيعلم الكفار لمن عقبي الدار] أى : ألهم أو لرسله ؟
ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين ، لا للكفر وأهله .
[ويقول الذين كفروا لست مرسلًا] أى : يكذبونك ، ويكذبون
ما أرسلت به .

[قل] لهم — إن طلبوا على ذلك شهيداً : [كفى بالله شهيداً بيني
وبينكم] وشهادته بقوله وفعله وإقراره .
أما قوله ، فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه ، مما يثبت به رسالته .

وَيَنْتَظِرُكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

وأما فعله ، فلأن الله تعالى أيد رسوله ، ونصره نصراً خارجاً عن قدرته وقدره أصحابه وأتباعه ، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد .
وأما إقراره ، فإنه أخبر الرسول عنه ، أنه رسول ، وأنه أمر الناس باتباعه .

فمن اتبعه ، فله رضوان الله وكرامته .

ومن لم يتبعه ، فله النار والسخط ، وحل له ماله ودمه ، والله يقره على ذلك ، فلو تقول عليه بعض الأقاويل ، لعاجله بالعقوبة .
[ومن عنده علم الكتاب] وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين .

فإنهم يشهد منهم للرسول ، من آمن ، واتبع الحق ، فصرح بتلك الشهادة التي عليه .

ومن كتم ذلك ، فإخبار الله عنه ، أن عنده شهادة ، أبلغ من خبره .
ولو لم يكن عنده شهادة ، لرد استشهاده بالبرهان .
فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة .

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب ، لأنهم أهل هذا الشأن .
وكل أمر ، إنما يستشهد فيه أهله ، ومن هم أعلم به من غيرهم .
بخلاف من هو أجنبي عنه ، كالأميين ، من مشركي العرب وغيرهم ،
فلا فائدة في استشهادهم ، لعدم خبرتهم ومعرفتهم . والله أعلم .
تم تفسير سورة الرعد — والحمد لله رب العالمين

تفسير

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الَّذِي نَتْلُوهُ عَلَيْكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَعَلَّكَ تُدْرِكُهُ أَلْهُامٌ مِّنْ أَلْفٍ مِّنْ أَلْفَيْنِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَالِقِينَ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ

* يخبر تعالى ، أنه أنزل كتابه على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، لنفع الخلق ، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة ، وأنواع المعاصي ، إلى نور العلم والإيمان ، والأخلاق الحسنة .
وقوله [ياذن ربهم] أى : لا يحصل منهم المراد المحبوب لله ، إلا بإرادة من الله ومعونة .

ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم .

ثم فسر النور الذى يهديهم إليه هذا الكتاب ، فقال :

[إلى صراط العزيز الحميد] أى : الموصل إليه وإلى دار كرامته ،

المشتمل على العلم بالحق والعمل به .

وفى ذكر « العزيز الحميد » بعد ذكر الصراط الموصل إليه ، إشارة إلى

أن من سلكه ، فهو عزيز بعزة الله ، قوى ، ولو لم يكن له أنصار إلا الله ، محمود فى أموره ، حسن العاقبة .

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ
شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

وليدل ذلك على أن صراط الله ، من أكبر الأدلة على ما الله ، من
صفات الكمال ، ونعوت الجلال .

وأن الذى نصبه لعباده ، عزيز السلطان ، حميد ، فى أقواله ، وأفعاله ،
وأحكامه .

وأنه مآلوه معبود بالعبادات ، التى هى منازل الصراط المستقيم .
وأنه كما أن له ملك السموات والأرض ، خلقا ورزقا ، وتديرا ، فله
الحكم على عباده بأحكامه الدينية ، لأنهم ملكه ، ولا يليق به أن
يتركهم سدى .

فلما بين الدليل والبرهان ، تواعد من لم ينتقد لذلك فقال :
[وويل للكافرين من عذاب شديد] لا يقدر قدره ، ولا يوصف أمره .
ثم وصفهم بأنهم [الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة] فرضوا
بها ، واطمأنوا ، وغفلوا عن الدار الآخرة .

[ويصدون] الناس [عن سبيل الله] التى نصبها لعباده ، وبينها فى
كتبه ، وعلى السنة رساله ، فهؤلاء قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والحاربة .

[ويبغونها] أى : سبيل الله [عوجًا] أى : يحرصون على تهجينها
وتقبيحها ، للتنفير منها ، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره
الكافرون .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤)

[أولئك] الذين ذكر وصفهم [في ضلال بعيد] لأنهم ضلوا، وأضلوا وشاقوا الله ورسوله، وحاربوه. فأى ضلال أبعد من هذا؟! .
وأما أهل الإيمان، فعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويحسنونها، مهما أمكنهم، ويبغون استقامتها.

* وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولا، إلا بلسان قومه، ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به.
بخلاف ما لو أتى على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى تلك اللغة، التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه.

فإذا بين الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله، فيضل الله من يشاء، ممن لم ينقل للهدى، ويهدي من يشاء، ممن اختصه برحمته.

وهو العزيز الحكيم، الذى — من عزته — أنه انفرد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء.

ومن حكمته، أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله، إلا بالحل اللائق به.
ويستدل بهذه الآية السكرية، على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله، أمور مطلوبة، محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ
مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا

إلا إذا كان الناس في حالة ، لا يحتاجون إليها ، وذلك إذا تمرنوا على
العربية ، ونشأ عليها صغيروهم ، وصارت طبيعة لهم ، فحينئذ قد اكتفوا المؤنة
وصلحوا الآن يتلقوا عن الله وعن رسوله ، ابتداء ، كما تلقى الصحابة رضى
الله عنهم .

* يخبر تعالى : أنه أرسل موسى بآياته العظيمة ، الدالة على صدق ما جاء به
وصحته ، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، بل وبما أمر
به جميع الرسل قومهم .

[أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور] أى : ظلمات الجهل
والكفر وفروعه ، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه .

[وذكروهم بآيات الله] أى : بنعمه عليهم ، وإحسانه إليهم وبآيame في
الأمم المكذبين ، ووقائعه بالكافرين ، ليشكروا نعمه ، وليحذروا عقابه .

[إن في ذلك] أى : في أيام الله على العباد [لكل صبار شكور]
أى : صبار في الضراء والعسر والضييق ، شكور على السراء والنعمة .

فإنه يستدل بآيame ، على كمال قدرته ، وعميم إحسانه ، وتتمام عدله
وحكمته .

ولهذا امتثل موسى عليه السلام أمر ربه ، فذكروهم نعم الله فقال :
[اذكروا نعمة الله عليكم] أى : بقلوبكم وألسنتكم .

نِعْمَةً اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ
بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ
لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ

[إذا أنجاكم من آل فرعون يسومونكم] أى : يولونكم^(١)
[سوء العذاب] أى أشده ، وفسر ذلك بقوله :

[ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم] أى : يبقونهن فلا يقتلونهن .
[وفى ذلكم] الإنجا . [بلاء من ربكم عظيم] أى : نعمة عظيمة .
أو فى ذلكم العذاب ، الذى ابتليتم به من فرعون وملائه ابتلاء من الله
عظيم لكم ، لينظر هل تعتبرون أم لا ؟
وقال لهم — حاثا على شكر نعم الله — : [وإذ تأذن ربكم] أى أعلم
ووعد .

[لئن شكرتم لأزيدنكم] من نعمى [ولئن كفرتم إن عذابي لشديد]
ومن ذلك ، أن يزيل عنهم النعمة ، التى أنعم بها عليهم .
والشكر هو اعتراف القلب بنعم الله ، والثناء على الله بها ، وصرها فى
مرضاة الله تعالى ، وكفر النعمة ، ضد ذلك .

(١) قوله : (يولونكم) تعبير فيه إيهام ولو قال (يذيقونكم
أو يكلفونكم) لكان أوضح ولأن الذين شرحوا معانى مفردات القرآن
فسروا « يسومونكم » بـ « يذيقونكم » أو « يكلفونكم » .

إِنْ تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ
حَمِيدٌ ﴿٨﴾

﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَتَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ

[وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً] فلن تضروا
الله شيئاً .

[فإن الله لغنى حميد] فالطاعات لا تزيد في ملكه ، والمعاصي ،
لا تنقص .

وهو كامل الغنى ، حميد في ذاته ، وأسمائه وصفاته ، وأفعاله .

ليس له من الصفات ، إلا كل صفة حمد وكمال .

ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن .

ولا من الأفعال ، إلا كل فعل جميل .

* يقول تعالى — مخوفاً عباده ، ما أحله بالأثم المكذبة ، حين جاءتهم
الرسول ، فكذبوهم ، فعاقبهم بالعقاب العاجل ، الذي رآه الناس وسمعوه
فقال: [ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وتمود] .

وقد ذكر الله قصصهم في كتابه ، وبسطها .

[والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله] من كثرتهم ، وكون أخبارهم

اندرست .

بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ

فهؤلاء ، كلهم [جاءتهم رسلهم بالبينات] أى : بالأدلة الدالة على صدق ما جاءوا به .

فلم يرسل الله رسولا ، إلا أتاه من الآيات ، ما يؤمن على مثله الشر .
فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم ينقادوا لها ، بل استكبروا عنها .

[فردوا أيديهم في أفواههم] أى : لم يؤمنوا بما جاءوا به ، ولم يقنوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله [جعلوا أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت] .

[وقالوا] صريحا لرسلهم : [إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ] أى : موقع في الريبة ، وقد كذبوا في ذلك وظلموا .

ولهذا [قالت] لهم [رسلهم أفى الله شك] أى : فإنه أظهر الأشياء وأجلها .

فمن شك في الله [فاطر السموات والأرض] الذى وجود الأشياء مستند إلى وجوده ، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات ، حتى الأمور المحسوسة .
ولهذا خاطبتهم الرسل ، خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الريب فيه .

[يدعوكم] إلى منافعكم ومصالحكم [ليغفر لكم من ذنوبكم] وبؤخركم إلى أجل مسمى [أى : ليثيبكم على الاستجابة لدعوته ، بالثواب العاجل

ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ
مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ

والآجل ، فلم يدعكم لينتفع بعبادتكم ، بل النفع عائد إليكم .

فردوا على رسلهم ، رد السفهاء الجاهلين [وقالوا] لهم : [إن أنتم
إلا بشر مثلنا] أى : فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة .

[تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا] فكيف نترك رأى الآباء
وسيرتهم ، لرأيكم ؟ وكيف نطيعكم وأنتم بشر مثلنا ؟
[فأتونا بسلطان مبين] أى : بحجة وبينة ظاهرة .

ومرادهم بينة يقترحونهاهم ، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم
بالبينات .

[قالت لهم رسلهم] مجيبين لاقتراحهم واعتراضهم : [إن نحن إلا بشر
مثلكم] أى : صحيح وحقيقة ، إننا بشر مثلكم .

[ولكن] ليس فى ذلك ، ما يدفع ما جئنا به من الحق ، فإن [الله يمين
على من يشاء من عباده] فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته ، فذلك فضله
وإحسانه ، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله .

فانظروا ما جئناكم به ، فإن كان حقاً ، فاقبلوه ، وإن كان غير ذلك ،
فردوه ولا تجعلوا حالنا ، حجة لكم على رد ما جئناكم به .

وقولكم : « فأتونا بسلطان مبين » فإن هذا ليس بأيدينا ، وليس لنا
من الأمر شيء .

اللَّهُ يَمْنُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ
بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا

[وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله] فهو الذى إن شاء
جاءكم به وإن شاء ، لم يأتكم به ، وهو لا يفعل إلا ما هو متقضى حكمته
ورحمته .

[وعلى الله] لاعلى غيره [فليتوكل المؤمنون] فيعتمدون عليه فى جلب
مصلحتهم ، ودفع مضارهم ، لعلمهم بتمام كفايته ، وكال قدرته ، وعميم
إحسانه .

ويشقون به ، فى تيسير ذلك ، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون
توكلهم .

فعلم بهذا ، وجوب التوكل ، وأنه من لوازم الإيمان ، ومن العبادات
الكبار ، التى يحبها الله ويرضاها ، لتوقف سائر العبادات عليه .

[وما لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا] أى : أى شئ يمنعنا
من التوكل على الله ، والحال ، أننا على الحق والهدى .

ومن كان على الحق والهدى ، فإن هداه ، يوجب له تمام التوكل .
وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدى وكفايته ، يدعو
إلى ذلك .

بخلاف من لم يكن على الحق والهدى ، فإنه ليس ضامنا على الله ، فإن
حاله مناقضة لحال المتوكل .

أَلَّا تَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

وفي هذا كإشارة من الرسل ، عليهم الصلاة والسلام لقومهم ،
بآية عظيمة .

وهو أن قومهم — في الغالب — أن لهم القهر والغلبة عليهم .
فتحدثهم رسلهم ، بأنهم متوكلون على الله ، في دفع كيدهم ومكرهم ،
وجازمون بكفائته بإيهم .

وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إيلافهم ، وإطفاء مامعهم من الحق .
فيكون هذا ، كقول نوح لقومه : « يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى
وتذكيرى بآيات الله ، فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم
لا يكن أمركم عليكم غمّة ، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون » الآيات .

وقول هود عليه السلام « إني أشهد الله واشهدوا ، أنى برى ،
مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون » .

[ولنصبرن على ما آذيتمونا] أى : ولنستمرن على دعوتكم ، ووعظكم ،
وتذكيركم ، ولا نبالى بما يأتينا منكم ، من الأذى ، فإننا سنوطن أنفسنا على
ما ينالنا منكم من الأذى ، احتسابا للأجر ، ونصحا لكم ، لعل الله أن
يهديكم مع كثرة التذكير .

[وعلى الله] وحده لا على غيره [فيتوكل المتوكلون] فإن التوكل
عليه ، مفتاح لكل خير .

واعلم أن الرسل ، عليهم الصلاة والسلام ، توكلهم فى أعلى المطالب
وأشرف المراتب ، وهو التوكل على الله ، فى إقامة دينه ونصره ، وهداية
عبيده ، وإزالة الضلال عنهم ، وهذا أكمل ما يكون من التوكل .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ
أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ

* لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك ، وعدم ملهم ، ذكر
منتهى ما وصلت بهم الحال ، مع قومهم فقال :

[وقال الذين كفروا لرسولهم] متوعدين لهم — [لنخرجنكم من
أرضنا أو لتعودن في ملتنا] وهذا أبلغ ما يكون من الرد ، وليس بعد هذا
فيهم ، مطمع .

لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى ، بل توعدهم بالإخراج من
ديارهم ونسبوا إلى أنفسهم ، وزعموا أن الرسل ، لاحق لهم فيها .
وهذا من أعظم الظلم ، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض ، وأمرهم
بعبادته ، وسخر لهم الأرض وما عليها ، يستعينون بها على عبادته .

فمن استعان بذلك على عبادة الله ، حل له ذلك ، وخرج من التبعة .
ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي ، لم يكن ذلك خالصاً
له ، ولم يحل له .

فلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ، ليس لهم شيء من الأرض ، التي
توعدها الرسل بإخراجهم منها .

وإن رجعنا إلى مجرد العادة ، فإن الرسل من جملة أهل بلادهم ،
وأفراد منهم .

فلأى شيء يمنعونهم حقاً لهم ، صريحاً واضحاً ؟ !

هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالسكينة ؟

الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُصَبِّحَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ
مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَأُسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾
مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسول إلى هذه الحال ، ما بقي حينئذ ، إلا أن
يمضى الله أمره ، وينصر أوليائه .

[فأوحى إليهم ربهم لنهلك الظالمين] بأنواع العقوبات .

[ولنصحبكم الأرض من بعدهم ذلك] أى : العاقبة الحسنة التى جعلها
الله للرسول ومن تبعهم ، جزاء [لمن خاف مقامى] عليه فى الدنيا ، وراقب
الله مراقبة من يعلم أنه يراه .

[وخاف وعيد] أى : ما توعدت به من عصاى ، فأوجب له ذلك ،
الانكفاف عما يكرهه الله ، والمبادرة إلى ما يحبه الله .

[واستفتحوا] أى : الكفار ، أى : هم الذين طلبوا ، واستمعجوا فتح
الله وفرقانه ، بين أوليائه وأعدائه ، فجاءهم ما استفتحوا به ، وإلا فالله
عليم حليم ، لا يعاجل من عصاه بالعتوبة .

[وخاب كل جبار عنيد] أى : خسر فى الدنيا والآخرة ، من تجبر
على الله وعلى الحق ، وعلى عباد الله ، واستكبر فى الأرض ، وعاند
الرسول ، وشاقهم .

[من ورائه جهنم] أى : جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد ، فلا بد له
من ورودها ، فيذاق حينئذ العذاب الشديد .

[ويسقى من ماء صديد] فى لونه ، وطعمه ، ورائحته الخبيثة ، وهو فى
غاية الحرارة .

يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ
عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾
﴿١٨﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ

[بتجرعه] من العطش الشديد [ولا يكاد يسغه] فإنه إذا قرب إلى
وجهه ، شواه ، وإذا وصل إلى بطنه ، قطع ما أتى عليه من الأمعاء .

[ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت] أى : يأتيه العذاب
الشديد من كل نوع من أنواع العذاب ، وكل نوع منه ، من شدته يبلغ
إلى الموت ولكن الله قضى أن لا يموتوا كما قال تعالى :

« لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي
كل كفور * » وهم يصطرون فيها .

[ومن ورائه] أى : الجبار العنيد [عذاب غليظ] أى : قوى
شديد ، لا يعلم وصفه وشدته ، إلا الله تعالى .

* يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها : إما أن المراد بها ، الأعمال
التي عملوها لله ، بأنها فى ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد ،
الذى هو أدق الأشياء وأخفها ، إذا اشتدت به الريح فى يوم عاصف شديد
الهبوب ، فإنه لا يبقى منه شيئا ، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل .

فكذلك أعمال الكفار [لا يقدر أن يثبتوا على شيء] ولا على
مثقال ذرة منه ، لأنه مبنى على الكفر والتكذيب .

بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ
هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

[ذلك هو الضلال البعيد] حيث بطل سعيهم ، واضمحل عملهم .
وإما أن المراد بذلك ، أعمال الكفار التي عملوها ، ليكيدوا
بها الحق .

فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك ، ومكرهم عائد عليهم ، ولن يضروا
الله ورسله وجنده وما معهم ، من الحق شيئاً .

* ينبه تعالى عباده بأن [الله خلق السموات والأرض بالحق] أى : ليعبده
الخلق ويعرفوه ، ويأمرهم وينهاهم ، وليستدلوا بهما ، وما فيهما ، على ماله ،
من صفات الكمال .

وليعلموا أن الذى خلق السموات والأرض — على عظمها وسعتهما
— قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً ، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم ، وأن
قدرته ومشيئته ، لا تقصر عن ذلك ، ولهذا قال : [إن يشأ يذهبكم ويأت
بخلق جديد] .

يمتثل أن المعنى : إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم ، يكونون أطوع
لله منكم .

ويمتثل أن المراد : إن يشأ يفنيكم ، ثم يعيدكم بالبعث خلقاً جديداً .
ويدل على هذا الاحتمال ، ما ذكره بعده ، من أحوال يوم القيامة .

بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا
إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُغْنَا أَمْ صَبَرْنَا
مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾

[وما ذلك على الله بعزيز] أى : بممتنع بل هو سهل عليه جداً .
« ما خلقكم ولا بمشكم إلا كنفس واحدة » « وهو الذى يبدأ الخلق
ثم يعيده وهو أهون عليه » .
[وبرزوا] أى : الخلائق [لله جميعاً] حين ينفخ فى الصور ، فيخرجون
من الأجداث إلى ربهم ، فيقفون فى أرض مستوية ، قاع صنف ، لا ترى
فيها عوجاً ولا أمثاً ويرزون له ، لا يخفى عليه منهم خافية .
فإذا برزوا ، صاروا يتحاجون ، وكل يدفع عن نفسه ، ويدافع ما يقدر
عليه ولكن أنى لهم ذلك ؟
[فقال الضعفاء] أى : التابعون والمقلدون [للذين استكبروا]
وهم : المتبوعون ، الذين هم قادة فى الضلال :
[إنا كنا لكم تبعاً] أى : فى الدنيا ، أمرتمونا بالضلال ، وزينتموه
لنا ، فأغويتمونا .
[فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء] أى : ولومثقال ذرة .
[قالوا] أى : المتبوعون والرؤساء « أغويناكم كما غوينا »
و [لو هدانا الله لهديناكم] فلا يغنى أحد أحداً .
[سواء علينا أجزعنا] من العذاب [أم صبرنا] عليه .
[ما لنا من محيص] أى : لا ملجأ نلجأ إليه ، ولا مهرب لنا من عذاب الله .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ
وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ
إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمُوا أَنْفُسَكُمْ
مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ

* أى: [وقال الشيطان] الذى هو سبب لكل شر يقع ووقع فى العالم،
مخاطباً لأهل النار، ومتبرئاً منهم [لما قضى الأمر] ودخل أهل الجنة
الجنة وأهل النار النار:

[إن الله وعدهم وعده الحق] على السنة رسله، فلم تطيعوه، فلو
أطعتموه، لأدرتكم الفوز العظيم.

[ووعدتكم] الخير [فأخلفتكم] أى: لم يحصل، ولن يحصل لكم
ما منيتكم به، من الأمانى الباطلة.

[وما كان لى عليكم من سلطان] أى: من حجة على تأييد قولى.

[إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى] أى: هذه نهاية ما عندى، أنى
دعوتكم إلى مرادى، وزينته لكم، فاستجبتم لى، اتباعاً لأهوائكم
وشهواتكم.

فإذا كانت الحال بهذه الصورة [فلا تلوومونى ولوموا أنفسكم] فأنتم
السبب، وعليكم المذار فى موجب العقاب.

[ما أنا بمصْرِخِكُمْ] أى: بمغِيثِكُمْ من الشدة التى أنتم بها [وما أنتم
بمَصْرِخِي] كل له قسط من العذاب.

مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا

[إني كفرت بما أشركتموني من قبل] أي : تبرأت من جعلكم لي شريكاً مع الله ، فليست شريكاً لله ، ولا تجب طاعتي .

[إن الظالمين] لأنفسهم بطاعة الشيطان [لهم عذاب أليم] خالدين فيه أبداً .

وهذا من لطف الله بعباده ، أن حذرهم من طاعة الشيطان وأخبر بمداخله ، التي يدخل منها على الإنسان ومقاصده فيه ، وأنه يقصد أن يدخله النيران .

وهنا بين لنا أنه إذا دخل النار هو وجنده ، أنه يتبرأ منهم هذه البراءة ، ويكفر بشركتهم « ولا يثبتك مثل خير » .

واعلم أن الله ذكر في هذه الآية ، أن الشيطان ليس له سلطان . وقال في آية أخرى « إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون » .

فالسلطان الذي نفاه عنه ، هو سلطان الحجة والدليل . فليس له حجة أصلاً ، على ما يدعو إليه . وإِنَّمَا نِهَايَةُ ذَلِكَ ، أن يقيم لهم من الشبه والتزيينات ، ما به يتجرأون على المعاصي .

وأما السلطان ، الذي أثبتته ، فهو التسلط بالإغراء على المعاصي لأوليائه يُوْزَمُّ إِلَى المعاصي أَرْأَ ، وهم الذين سلطوه على أنفسهم ، بموالاته ، والاتحاق بحزبه .

ولهذا ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون .

وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ
رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ ﴿٢٤﴾
﴿٢٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ
طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أ كُلَّ حِينٍ

ولما ذكر عقاب الظالمين ، ذكر ثواب الطائعين فقال :

[وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات] أى : الذين قاموا بالدين ،
قولا ، وعملا ، واعتقاداً .

[جنات تجري من تحتها الأنهار] فيها من اللذات والشهوات ، مالا
عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[خالدين فيها بإذن ربهم] أى : لا يحولهم وقوتهم ، بل بحول الله
وقوته .

[تحييتهم فيها سلام] أى : يُحيي بعضهم بعضاً بالسلام ، والتحية ،
والكلام الطيب .

* يقول تعالى : [ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة] وهى شهادة
أن لا إله إلا الله ، وفروعها .

[كشجرة طيبة] وهى النخلة [أصلها ثابت] فى الأرض [وفرعها]
منتشر [فى السماء] وهى كثيرة النفع دائماً .

[توتى أكلها] أى ثمرتها [كل حين بإذن ربها] .

فكذلك شجرة الإيمان ، أصلها ثابت فى قلب المؤمن ، علماً ، واعتقاداً .

يَاذُنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ
مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

وفرعها من الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، والأخلاق المرضية ،
والآداب الحسنة ، في السماء دائماً ، يصعد إلى الله منه ، من الأعمال
والأقوال ، التي تخرجها شجرة الإيمان ، ما ينتفع به المؤمن ، وينتفع غيره .
[ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون] مأمرهم به ونهاهم عنه .
فإن في ضرب الأمثال ، تقريباً للمعاني المعقولة ، من الأمثال المحسوسة ،
ويتبين المعنى الذي أراحه الله ، غاية البيان ، ويتضح ، غاية الوضوح ، وهذا
من رحمته ، وحسن تعليمه . فله أتم الحمد وأكمله وأعمه .

فهذه صفة كلمة التوحيد وثباتها ، في قلب المؤمن .

ثم ذكر ضدها وهي : كلمة الكفر ، وفرعها فقال :

[ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة] المأكل والمطعم ، وهي : شجرة
الحنظل ونحوها .

[اجْتُثَّتْ] هذه الشجرة [من فوق الأرض ما لها من قرار] أي : ثبوت

فلا عروق تمسكها ، ولا ثمرة صالحة ، تنتجها ، بل إن وجد فيها ثمرة ،
فهي ثمرة خبيثة .

كذلك كلمة الكفر والمعاصي ، ليس لها ثبوت نافع في القلب ، ولا تثمر
إلا كل قول خبيث ، وعمل خبيث ، يؤذى صاحبه ، ولا يصعد إلى الله منه
عمل صالح ، ولا ينفع نفسه ولا ينتفع به غيره .

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ
مَا يَشَاءُ﴾ (٢٧)

* يخبر تعالى : أنه يثبت عباده المؤمنين أى : الذين قاموا بما عليهم من الإيمان القلبي التام ، الذى يستلزم أعمال الجوارح ويشمرها .
فيثبتهم الله فى الحياة الدنيا ، عند ورود الشبهات ، بالهداية إلى اليقين .
وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة ، على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومرادها .

وفى الآخرة عند الموت ، بالثبات على الدين الإسلامى ، والخاتمة الحسنة .
وفى القبر عند سؤال الملكين ، للجواب الصحيح ، إذا قيل للميت « من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ » هدام للجواب الصحيح ، بأن يقول المؤمن : « الله ربى ، والإسلام دينى ، ومحمد نبي » .

[ويضل الله الظالمين] عن الصواب فى الدنيا والآخرة ، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم .

وفى هذه الآية ، دلالة على فتنة القبر ، وعذابه ، ونعيمه ، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فى الفتنة وصفقتها ، ونعيم القبر وعذابه .

﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

* يقول تعالى — مبيناً حال المكذبين لرسوله ، من كفار قريش ، وما آل إليه أمرهم :

[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا] ونعمة الله هي : إرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة ، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة .

فبدلوا هذه النعمة ، بردها ، والكفر بها والصد عنها ، بأنفسهم .

[و] صدم غيرهم حتى [أحلوا قومهم دار البوار] وهى : النار، حيث تسبوا لإضلالهم ، فصاروا وبالاً على قومهم ، من حيث يظن نفعهم .

ومن ذلك أنهم ، زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله . فجرى عليهم ما جرى ، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم ، فى تلك الواقعة .

[جهنم يصلونها] أى : يحيط بهم حرها ، من جميع جوانبهم [وبئس القرار] [وجعلوا لله أنداداً] أى : نظراء وشركاء [ليضلوا عن سبيله] أى : ليضلوا العباد عن سبيل الله ، بسبب ما جعلوا الله من الأنداد ، ودعواهم إلى عبادتها .

[قل] لهم متوعدا : [تمتعوا] بكفركم وضلالكم قليلا ، فليس ذلك بنافعكم . [فإن مصيركم إلى النار] أى : ما لكم وماؤاكم فيها ، وبئس المصير .

﴿قُلْ لِّلْعِبَادِیَ الَّذِیْنَ ءَامَنُوا یُقِیْمُوا الصَّلَاةَ وَیُنْفِقُوا
مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِیَةً مِّنْ قَبْلِ اَنْ یَّاتِیَ یَوْمٌ لَا یَنۢفَعُ فِیْهِ
وَلَا خِلَلٌ﴾ (٣١)

* أى : [قل لعبادی الذین آمنوا] آمرا لهم بما فیه غایة صلاحهم ، وأن
یتهزوا الفرصة ، قبل أن لا یمکنهم ذلك :

[یموموا الصلاة] ظاهرا وباطناً [وینفقوا مما رزقناهم] أى : من النعم
التي أنعمنا بها علیهم ، قلیلا أو كثيرا [سرّاً وعلانية] .

وهذا یشمل النفقة الواجبة ، كالزكاة ، ونفقة من تجب علیه نفقته ،
والمستحبة ، كالصدقات ونحوها .

[من قبل أن یأتی يوم لا بیع فیه ولا خلال] أى : لا ینفع فیه شیء ،
ولا سبیل إلى استدراك ما فات ، لا بمعاوضة بیع وشراء ، ولا بهبة
خلیل وصدیق .

فكل امرئ له شأن یغنیه .

فلیقدم العبد لنفسه ، ولینظر ما قدمه لغد ، ولیتفقد أعماله ، ویمحاسب
نفسه ، قبل الحساب الأكبر .

﴿٢٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ
الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٢٣﴾ وَسَخَّرَ
لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٢٤﴾

* يخبر تعالى : أنه وحده [الذى خلق السموات والأرض] على اتساعهما
وعظمهما .

[وأنزل من السماء ماء] وهو : المطر الذى ينزله الله من السحاب .
[فأخرج به] أى : بذلك الماء [من الثمرات] المختلفة الأنواع .
[رزقاً لكم] ورزقاً لأنعامكم [وسخر لكم الفلك] أى : السفن
والمراكب .

[لتجرى فى البحر بأمره] فهو الذى يَسِّرُ لكم صنعتها ، وأقدركم عليها ،
وحفظها على تيار الماء ، لتحملكم ، وتحمل تجارتكم وأمتعتكم ، إلى بلد
تقصدونه .

[وسخر لكم الأنهار] لتسقى حروثكم وأشجاركم ، وتشربوا منها .
[وسخر لكم الشمس والقمر دائبين] لا يفتران ، ولا ينيان ، يسعيان
لصالحكم ، من حساب أزمئتكم ومصالح أبدانكم ، وحيواناتكم ،
وزروعكم ، وثماركم .

[وسخر لكم الليل] لتسكنوا فيه [والنهار] مبصراً ، لتبتغوا
من فضله .

وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا
 إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾
 وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي

[وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ] أى : أعطاكم من كل ما تعلق به
 أمانيتكم وحاجتكم ، مما تسألونه إياه . بلسان الحال ، أو بلسان المقال ،
 من أنعام ، وآلات ، وصناعات وغير ذلك .

[وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها] فضلا عن قيامكم بشكرها [إن
 الإنسان لظلوم كفار] أى : هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرب
 على المعاصي ، مقصر في حقوق ربه ، كفار لنعم الله ، لا يشكرها ولا يعترف
 بها ، إلا من هداه الله ، فشكر نعمه ، وعرف حق ربه ، وقام به .

ففي هذه الآيات ، من أصناف نعم الله على العباد ، شئ عظيم ، مجمل ،
 ومنفصل ، يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره ، ويحثهم على ذلك ،
 ويرغبهم في سؤاله ودعائه ، آناء الليل والنهار ، كما أن نعمته ، تتكرر عليهم ،
 في جميع الأوقات .

* أى : [و] اذكر إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، في هذه الحالة الجميلة .
 [إذ قال رب اجعل هذا البلد] أى : الحرم [آمنا] .

فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرأً ، فخرمه الله في الشرع ، ويسر
 من أسباب حرمة ، قدرا ، ما هو معلوم .

حتى إنه لم يردّه ظالم بسوء ، إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل
 وغيرهم .

وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ
فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا
إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ

ولما دعا له بالأمن ، دعا له ولبنيه بالأمن فقال : [واجنبنى وبني أن
نعبد الأصنام] .

أى : اجعلنى وإياهم ، جانباً بعيداً عن عبادتها ، والإلمام بها .
ثم ذكر الوجوب لخوفه عليه وعلى بنيه ، بكثرة من افتتن وابتلى
بعبادتها ، فقال :

[ربى إنهم أضلن كثيراً من الناس] أى : ضلوا بسببها .
[فمن تبعنى] على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين
[فإنه منى] لتأم الموافقة ومن أحب قوماً واتبعهم ، التحق بهم .
[ومن عصانى فإنك غفور رحيم] وهذا من شفقة الخليل ، عليه الصلاة
والسلام ، حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله ، والله تبارك وتعالى ،
أرحم منه بعباده ، لا يعذب إلا من تمرد عليه .

[ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم]
وذلك أنه أتى بـ « هاجر » أم إسماعيل وابنها إسماعيل ، عليه الصلاة
والسلام ، وهو فى الرضاع ، من الشام ، حتى وضعهما فى مكة ،
وهى — إذ ذاك — ليس فيها سكن ، ولا داع ، ولا محيب .

فلما وضعهما ، دعا ربه بهذا الدعاء ، فقال — متضرعاً مقوكلاً على ربه :

رَبَّنَا لِتُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ

[ربنا إني أسكنت من ذريتي] أي : لا كل ذريتي ، لأن إسحق
في الشام ، وباقي بنيهِ كذلك ، وإنما أسكن في مكة ، إسماعيل وذريته .
وقوله : [بواد غير ذي ذرع] أي : لأن أرض مكة لم يكن فيها ماء .
[ربنا ليقيموا الصلاة] أي : اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة ،
لأن إقامة الصلاة من أخص ، وأفضل العبادات الدينية ، فن أقامها ، كان
مقيما لدينه .

[فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم] أي : تحبهم ، وتحب الموضع
الذي هم ساكنون فيه .

فأجاب الله دعاءه ، فأخرج من ذرية إسماعيل ، محمدا صلى الله عليه وسلم ،
حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي ، وإلى ملة أبيهم إبراهيم ، فاستجابوا
له وصاروا مقيمي الصلاة .

وافترض الله حج هذا البيت ، الذي أسكن به ذرية إبراهيم ، وجعل
فيه سرا عجيبا ، جاذبا للقلوب ، فهي تحجه ، ولا تقضى منه وطرا على الدوام .
بل كلما أ كثر العبد التردد إليه ، ازداد شوقه ، وعظم ولعه وتوقُّفه .
وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة .

[وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون] فأجاب الله دعاءه .

فصار يجبي إليه ، ثمرات كل شيء .

فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت ، والثمار فيها متوفرة ، والأرزاق
تتوالى إليها من كل جانب .

مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ
ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾

[ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن] أى : أنت أعلم بنا منا .
فنسألك من تديرك وتريتك لنا ، أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها ،
والتي لا نعلمها ، ما هو مقتضى علمك ورحمتك .
[وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء] ومن ذلك ،
هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير ، وكثرة الشكر لله رب العالمين .
[الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق] فذلك
من أكبر النعم .
وكونه على الكبر ، في حال الإياس من الأولاد ، نعمة أخرى .
وكونهم أنبياء صالحين ، أجل وأفضل .
[إن ربي لسميع الدعاء] أى : لقريب الإجابة ، ممن دعاه ، وقد دعوته ،
ولم يخيب رجائي .

ثم دعا لنفسه ولذريته فقال : [رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي
ربنا وتقبل دعائي . ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب] .
فاستجاب الله له في ذلك كله ، إلا أن دعاءه لأبيه ، إنما كان عن موعدة

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢) ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئَدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (٤٣) ﴿

وعده إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله ، تبرأ منه .

ثم قال تعالى : « ولا تحسبن الله غافلاً » إلى « وأفئدتهم هواء » .

* هذا وعيد شديد للظالمين ، وتسلية للمظلومين . يقول تعالى :

[ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون] حيث أمهلهم وأدبر عليهم الأرزاق ، وتركهم يتقلبون في البلاد ، آمنين مطمئنين .

فليس في هذا ، ما يدل على حسن حالهم ، فإن الله يُمَلِّى للظالم ويمهله ، ليزداد إثمًا ، حتى إذا أخذه ، لم يفلهته « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

والظلم — ههنا — يشمل الظلم فيما بين العبد وربّه ، وظلمه لعباد الله .

[إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار] أى : لا تطأرف من شدة ماترى ، من الأحوال وما أزعجها من القلاقل .

[مهطعين] أى : مسرعين إلى إجابة الداعى حين يدعوه إلى الحضور بين يدي الله للحساب ، لا امتناع لهم ولا محيص ، ولا ملجأ .

[مقنعي رؤوسهم] أى : رافعيها قد فُلت أيديهم إلى الأذقان ، فارتفعت لذلك ، رؤوسهم .

[لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء] أى : أفئدتهم فارغة من قلوبهم ، قد صعدت إلى الحناجر ، لكنها مملوءة من كل هم رغم ، وحزن وقلق .

﴿٤٤﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [وأذّر الناس يوم يأتيهم العذاب] أى : صِفْ لَهُمْ تِلْكَ الْحَالُ ، وَحَذِّرْهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمَوْجِبَةِ لِلْعَذَابِ ، الِذِى حِينَ يَأْتِى فِي شِدَائِهِ وَقِلَاقِلِهِ .

[فيقول الذين ظلموا] بالكفر والتكذيب ، وأنواع المعاصى ، نادمين على ما فعلوا ، سائلين للرجعة فى غير وقتها .

[ربنا أخرنا إلى أجل قريب] أى : رُدَّنَا إِلَى الدُّنْيَا ، فَإِنَا قَدْ أَصْرْنَا . [نجب دعوتك] والله يدعوا إلى دار السلام [وتنبع الرسل] وهذا كله ، لأمل التخلص من العذاب الأليم ، وإلاّ فهم كَذَبَةٌ فِي هَذَا الْوَعْدِ « فلو ردوا ، لعادوا لما نهوا عنه » .

ولهذا يوبخون ويقال لهم : [أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال] عن الدنيا ، وانتقال إلى الآخرة ، فيها ، قد تبين لكم حِنْثُكُمْ فِي إِقْسَامِكُمْ ، وَكَذِبِكُمْ فِيمَا تَدْعُونَ .

[و] ليس عملكم قاصراً فى الدنيا من أجل الآيات البينات .

بل [سكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم] من أنواع العقوبات ؟ وكيف أحلّ الله بهم العقوبات ، حين كذبوا بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ الْوَاضِحَةَ الَّتِى لَا تَدْعُ إِلَى شَكِّ فِي الْقَلْبِ إِلَّا أَرَاكَ .

فلم تنفع فيكم تلك الآيات ، بل أعرضتم ، ودمتم على باطلكم ، حتى

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ
كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا
مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ
الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

صار ما صار : ووصلتم إلى هذا اليوم الذى لا ينفع فيه اعتذار ، من اعتذر
بباطل .

[وقد مكروا] أى : المكذبون للرسل [مكرهم] الذى وصلت إليه
إرادتهم ، وقدروا عليه .

[وعند الله مكرهم] أى : هو محيط به علما وقدرة ، وقد عاد مكرهم
عليهم « ولا يحيق المكر السوء إلا بأهله » [وإن كان مكرهم لتزول
منه الجبال] أى : ولقد كان مكر الكفار المكذبين للرسل ، بالحق ، وبمن
جاء به — من عظمه — لتزول الجبال الراسيات بسببه ، عن أماكنها .

أى : « مكروا مكرًا كُتِبَ رَأً » لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم
فى منحورهم .

ويدخل فى هذا ، كل مَنْ مكر من الخالفين للرسل ، لينصر باطلا ،
أو يبطل حقا .

والقصد أن مكرهم ، لم يغن عنهم شيئا ، ولم يضرُوا الله شيئا ، وإنما
ضروا أنفسهم .

﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
ذُو انْتِقَامٍ﴾ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ

* بقول تعالى : [فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله] بنجاتهم ، ونجاة
أتباعهم وسعادتهم ، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا ، وعقابهم
في الآخرة .

فهذا لا بد من وقوعه ، لأنه وعده الصادق قولاً ، على السنة أصدق
خلقه ، وهم : الرسل ، وهذا أعلى ما يكون من الأخبار .

خصوصاً ، وهو مطابق للحكمة الإلهية ، والسنن الربانية ، وللعقول
الصحيحة .

و [إن الله] لا يمجزه شيء ، فإنه [عزيز ذو انتقام] .
أى : إذا أراد أن ينتقم من أحد ، فإنه لا يفوته ولا يمجزه ، وذلك
في يوم القيامة .

[«يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات»] تبدل غير السماوات .
وهذا التبديل ، تبديل صفات ، لا تبديل ذات ، فإن الأرض يوم
القيامة تسوى وتمد كمد الأديم ، ويلقى ما على ظهرها من جبل ومعلم ،
فتصير قاعاً صافصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً .

وتكون السماء ، كالمهل ، من شدة أهوال ذلك اليوم ، ثم يطويها
الله تعالى بيمينه .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ
فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَّابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾
لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾

[وبرزوا] أى : الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم ، ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء .

[لله الواحد القهار] أى : المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته ، وأفعاله العظيمة ، وقهره لكل العوالم فكلها تحت تصرفه وتديره ، فلا يتحرك منها متحرك ، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه .

[وترى المجرمين] أى : الذين وصفهم الإجماع ، وكثرة الذنوب .
[يومئذ] فى ذلك اليوم [مقرنين فى الأصفاذ] أى : يسلسل كل أهل عمل من المجرمين ، بسلاسل من نار ، فيقادون إلى العذاب ، فى أذل صورة وأشنعها ، وأبشعها .

[سراويلهم] أى : ثيابهم [من قطران] وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها ، وتنت ريحها .

[وتغشى وجوههم] التى هى أشرف ما فى أبدانهم [النار] أى : تحيط بها ، وتصلها من كل جانب ، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى .

وليس هذا ظلما من الله ، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا ، ولهذا قال تعالى :

[ليجزى الله كل نفس ما كسبت] من خير وشر ، بالعدل والقسط ، الذى لا جور فيه بوجه من الوجوه .

هَذَا بَلَّغَ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ
وَلِيَذْكُرُوا أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

[إن الله سريع الحساب] كقوله تعالى :

« اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون » .

ويحتمل أن معناه : سريع المحاسبة ، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة كما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير ، في لحظة واحدة ، لا يشغله شأن عن شأن ، وليس ذلك بعسير عليه .

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن ، قال في مدحه :

[هذا بلاغ للناس] أى : يتبلغون به ، ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات ، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع ، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد .

[وليُنْذِرُوا بِهِ] لما فيه من الترهيب من أعمال الشر ، وما أعد الله لأهلها من العقاب .

[وليَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ] حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين ، على ألوهيته ووحدانيته ، ما صار ذلك حق اليقين .

[وليَذْكُرُوا أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ] أى : العقول الكاملة ، ما ينفعهم ، فيفعلونه وما يضرهم ، فيتركونه ، وبذلك صاروا أولى الأبواب والبصائر .

إذ بالقرآن ، ازدادت معارفهم وآراؤهم ، وتنورت أفكارهم ، لما أخذوه غصاً طرياً ، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها .

ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها .
وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي ، لم يزل في صعود ورقى على الدوام في كل خصلة حميدة . والحمد لله رب العالمين .

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام .

تفسير

سُورَةُ الْحَجَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ (١) رَبِّمَا

يقول تعالى — معظماً لكتابه ، ما دحاً له :

[تلك آيات الكتاب] أى : الآيات الدالة على أحسن المعاني ، وأفضل المطالب .

[وقرآن مبين] للحقائق ، بأحسن لفظ وأوضحه ، وأدله على المقصود .
وهذا مما يوجب على الخلق ، الانقياد إليه ، والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول ، والفرح والسرور .

فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها ، والكفر بها ، فإنه من المكذبين الضالين ، الذين سيأتى عليهم وقت ، يتمنون أنهم مسلمون ، أى : منقادون لأحكامه ، وذلك حين ينكشف الغطاء ، وتظهر أوائل الآخرة ، ومقدمات الموت

فإنهم فى أحوال الآخرة كلها ، يتمنون أنهم مسلمون ، وقد فات وقت الإمكان .

يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا
وَمِلَهُمْ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ
إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا
وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٥﴾

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ

ولكنهم في هذه الدنيا مغترون .

[ذرهم يأكلوا ويتمتعوا] بذاتهم [ويلهم الأمل] أى : يؤملون
البقاء في الدنيا ، فيلهمهم عن الآخرة .

[فسوف يعلمون] أن ما هم عليه باطل ، وأن أعمالهم ذهبت خسراناً
عليهم ، ولا يغفروا بإمهال الله تعالى ، فإن هذه ، سنته في الأمم .

[وما أهلكنا من قرية] كانت مستحقة للعذاب [إلا ولها كتاب
معلوم] مقدر لإهلاكها .

[ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون] وإلا ، فالذنوب لا بد من
وقوع أثرها ، وإن تأخر .

* أى : وقال المكذبون لحمد صلى الله عليه وسلم ، استهزاء وسخرية :

[يا أيها الذى نزل عليه الذكر] على زعمك [إنك لجنون] إذ تظن
أنا سنتبعك ، ونترك ما وجدنا عليه آباءنا ، لمجرد قولك :

لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٧﴾
مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾

[لو ما تأتينا بالملائكة] يشهدون لك بصحة ما جئت به [إن كنت
من الصادقين] فلما لم تأت بالملائكة ، فليست بصادق .
وهذا من أعظم الظلم والجهل .

أما الظلم ، فظاهر ، فإن هذا تجرؤ على الله وتعت بتعيين الآيات ، التي
لم يخترها ، وحصل القصور والبرهان بدونها ، من الآيات الكثيرة ، الدالة
على صحة ما جاء به .

وأما الجهل ، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم .
فليس في إنزال الملائكة ، خير لهم ، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق
الذي لا إمهال على من لم يتبعه ويتقده .
[وما كانوا إذاً] أى : حين تنزل الملائكة ، إن لم يؤمنوا ، ولن
يؤمنوا [منظرين] أى : بمهلين .

فصار طلبهم لإنزال الملائكة ، تعجيلاً لأنفسهم بالهلاك والدمار .

فإن الإيمان ليس في أيديهم ، وإنما هو بيد الله .

« ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء
قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون »
ويكفيهم من الآيات ، إن كانوا صادقين ، هذا القرآن العظيم ولهذا
قال هنا :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾
وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ

[إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ] أى : القرآن الذى فيه ذكرى لكل شىء ،
من المسائل والدلائل الواضحة ، وفيه يتذكر من أراد التذكّر .
[وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ] أى : فى حال إنزاله ، وبعد إنزاله .
ففى حال إنزاله حافظون له ، من استراق كل شيطان رجيم .
وبعد إنزاله أودعه الله فى قلب رسوله ، واستودعه فى قلوب أمته ،
وحفظ الله ألفاظه من التغير فيها ، والزيادة والنقص ، ومعانيه ، من
التبديل .

فلا يحرف محرف معنى من معانيه ، إلا وقض الله له من بين
الحق المبين .

وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين .
ومن حفظه : أن الله يحفظ أهله من أعدائهم ، ولا يسلط عدوا
يحتاجهم .

يقول تعالى لنبيه إذ كذبه المشركون : لم يزل هذا دأب الأمم الخالية
والقرون الماضية : [ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين] .

* أى ، فرقههم وجماعتهم ، رسلا .
[وما يأتىهم من رسول] يدعوهم إلى الحق والهدى [إلا كانوا به
يستهزون] .

نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ
سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾
وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ
يَعْرَجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ
مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

[كذلك نسلكه] أى : ندخل التكذيب [فى قلوب المجرمين]
أى : الذين وصفهم الظالم والبهت ، عاقبتناهم لما تشابهت قلوبهم بالكفر
والتكذيب ، وتشابهت معاملتهم لأنبيائهم ، ورسلمهم بالاستهزاء والسخرية
وعدم الإيمان ، ولهذا قال :

[لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين] أى : عادة الله فيهم ، يهلك
من لم يؤمن بآيات الله .

* أى : ولو جاءتهم كل آية عظيمة ، لم يؤمنوا وكابروا .

[ولو فتحنا عليهم باباً من السماء] فصاروا يعرجون فيه ، ويشاهدونه ،
عياناً بأنفسهم ، لقالوا — من ظلمهم وعنادهم ، منكرين لهذه الآية : —

[إنما سكرت أبصارنا] أى : أصابها سكر وغشاوة ، حتى رأينا ما لم نر

[بل نحن قوم مسحورون] أى : ليس هذا بحقيقة ، بل هذا سحر .

وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار ، فإنهم لامطمع فيهم ولا رجاء .

ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال :

[ولقد جعلنا فى السماء بروجاً] إلى [برازقين] .

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦)
 وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ
 فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ

* يقول تعالى — مبينا كمال اقتداره ورحمته بخلقه :

[ولقد جعلنا في السماء بروجاً] أى : نجوماً كالأبراج ، والأعلام العظام
 يهتدى بها في ظلمات البر والبحر .

[وزيناها للناظرين] ، فإنه لولا النجوم ، لما كان للسماء هذا المنظر
 البهى ، والهيئة العجيبة .

وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها ، والنظر في معانيها ،
 والاستدلال بها ، على باريها .

[وحفظناها من كل شيطان رجيم] إذا استرق السمع ، أتبعته الشهب
 الثواقب ، فبقيت السماء ، ظاهرها ، محجلاً بالنجوم النيرات ، وباطنها ،
 محروساً ممنوعاً ، من الآفات .

[إلا من استرق السمع] أى : فى بعض الأوقات ، قد يسترق بعض
 الشياطين السمع ، بخفية واختلاس .

[فأتبعه شهاب مبين] أى : بين منير ، يقتله ، أو يحبله .

فربما أدركه الشهاب ، قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه ، فينقطع خبر
 السماء عن الأرض .

وربما ألقاها إلى وليه ، قبل أن يدركه الشهاب ، فيضهما ويكذب مع
 مائة كذبة .

وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ
وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾

ويستدل بتلك الكلمة التي ، سمعت من السماء .

[والأرض مددناها] أى وسعناها سعة، يتمكن الآدميون والحيوانات
كلها ، من الامتداد بأرجائها ، والتناول من أرزاقها ، والسكون
في نواحيها .

[وألقينا فيها رواسى] أى : جيالا عظاما ، تحفظ الأرض بإذن الله ،
أن تميد ، وثبتها أن تزول .

[وأنبتنا فيها من كل شيء موزون] أى : نافع متقوم ، يضطر إليه
العباد والبلاد ، ما بين نخيل ، وأعناب ، وأصناف الأشجار ، وأنواع
النبات ، والمعادن .

[وجعلنا لكم فيها معاش] من الحرث ، ومن الماشية ، ومن أنواع
المكاسب والحرف .

[ومن لستم له برازقين] أى : أنعمنا عليكم بعبيد وإماء ، وأنعام ،
لنفعكم ، ومصالحكم ، وليس عليكم رزقها ، بل خولكم الله إياها ،
وتكفل بأرزاقها .

﴿٢١﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا
بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾
﴿٢٢﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَنْسَقَيْنَاكُمْ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾

* أى : جميع الأرزاق وأصناف الأقدار ، لا يملكها أحد إلا الله .
خزائنها بيده ، يعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، بحسب حكمته ورحمته
الواسعة .

[وما نزله] أى : المقدر من كل شيء ، من مطر وغيره .
[إلا بقدر معلوم] فلا يزيد على ما قدره الله ، ولا ينقص منه .

* أى : وسخرنا الرياح ، رياح الرحمة ، تلقح السحاب ، كما يلقح
الذكر الأنثى .

فينشأ عن ذلك ، الماء ، بإذن الله ، فيسقيه الله العباد ، ومواسيهم ،
وأرضهم ، ويبقى فى الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم ، ما هو مقتضى
قدرته ورحمته .

[وما أنتم له بخازنين] أى : لا قدرة لكم على خزنه وادخاره .
ولكن الله يخزنه لكم ، ويسلكه ينابيع فى الأرض ، رحمة بكم ،
وإحساناً إليكم .

﴿٢٣﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾
 وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾
 وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴿٢٥﴾
 ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

* أى : هو وحده ، لا شريك له ، الذى يحيى الخلق من العدم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ويميتهم لآجالهم ، التى قدرها [ونحن الوارثون] كقوله : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » .

وليس ذلك بعزیز ، ولا ممتنع على الله ، فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم ، ويعلم ما تنقص الأرض منهم ، وما تفرق من أجزائهم .

وهو الذى ، قدرته لا يعجزها معجز ، فيعيد عباده خلقاً جديداً ، ويحشرهم إليه .

[إنه حكيم عليم] يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها ، ويجازى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أيينا آدم عليه السلام ، وما جرى من عدوه إبليس ، وفى ضمن ذلك ، التحذير لنا من شره وفتنته ، فقال تعالى : [ولقد خلقنا الإنسان] أى آدم عليه السلام [من صلصال من حمإ مسنون] أى : من طين قد ييس ، بعد ما خر حتى صار له صلصلة وصوت ، كصوت الفخار .

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا
سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ
أَلْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ
مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ

والجآن المسنون ، الطين المتغير لونه وريحه ، من طول مكثه .

[والجان] وهو : أبو الجن أى : إبليس [خلقناه من قبل] خلق
آدم [من نار السموم] أى : من النار الشديدة الحرارة .

فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة : [إني خالق بشرأ من صلصال
من حمأ مسنون فإذا سويته] جسداً تاماً [ونفخت فيه من روحى فقعوا له
ساجدين] فامثلوا أمر ربهم [فسجد الملائكة كلهم أجمعون] .

تأكيد بعد تأكيد ، ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد ، وذلك ،
تعظيماً لأمر الله ، وإكراماً لآدم ، حيث علم ما لم يعلموا .

[إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين] وهذا أول عداوته لآدم
وذريته .

قال الله : [يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين ؟ قال : لم أكن
لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون] .

فاستكبر على أمر الله ، وأبدى العداوة لآدم وذريته ، وأعجب بعنصره
وقال : أنا خير من آدم .

السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ
مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ
عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ
يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ
الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِنَا أَعْوَيْتَنِي لِأَظِنَّةٍ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ

[قال] الله — معاقباً له على كفره واستكباره — [فاخرج منها
فإنك رجيم] .

أى : مطرود ومبعد من كل خير .

[وإن عليك اللعنة] أى : الذم ، والعيب ، والبعد عن رحمة الله
[إلى يوم الدين] .

ففيها ، وما أشبهها ، دليل على أنه سيستمر على كفره ، وبعده
من الخير .

[قال رب فأنظرنى] أى : أمهاني [إلى يوم يبعثون] . قال : فإنك من
المنظرين إلى الوقت المعلوم .

وليس إجابة الله لدعائه ، كرامة في حقه ، وإنما ذلك ، امتحان وابتلاء
من الله له وللعباد ، ليتبين الصادق الذى يطيع مولاه دون عدوه ، ممن ليس
كذلك .

ولذلك حذرنا منه ، غاية التحذير ، وشرح لنا ، ما يريده منا .

[قال رب بما أعويتني لأزين لهم في الأرض] أى : أزين لهم الدنيا ،
وأدعومهم إلى إشارها على الأخرى ، حتى يكونوا متقادين لكل معصية .

وَلَاغُوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٤٠﴾
 قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ
 إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾
 لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

[ولأغوينهم أجمعين] أى : أضدهم كلهم عن الصراط المستقيم .
 [إلا عبادك منهم المخلصين] أى : الذين أخلصتهم واجتبيتهم ،
 لإخلاصهم ، وإيمانهم ، وتوكلهم .
 قال الله تعالى : [هذا صراط على مستقيم] أى : معتدل موصل إلى ،
 وإلى دار كرامتى .

[إن عبادى ليس لك عليهم سلطان] تليهم به إلى ما تشاء من أنواع
 الضلالات ، بسبب عبوديتهم لربهم ، وانقيادهم لأوامره ، أعانهم الله
 وعصمهم من الشيطان .

[إلا من اتبعك] فرضى بولايتك وطاعتك ، بدلا من طاعة الرحمن .
 [من الغاوين] والغاوى : ضد الراشد ، فهو : الذى عرف الحق وتركه .
 والضال : الذى تركه من غير علم منه به .

[وإن جهنم لموعدهم أجمعين] أى : إبليس وجنوده .
 [لها سبعة أبواب] كل باب أسفل من الآخر .

[لكل باب منهم] أى : من أتباع إبليس [جزء مقسوم] بحسب أعمالهم .
 قال تعالى : « فكبكبوا فيها هم والغاؤون ، وجنود إبليس أجمعون » .
 ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه ، أتباع إبليس ، من النكال والعذاب

﴿٤٥﴾ اَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ
إِٰمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ
مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

الشديد ، ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم ، والنعيم المقيم فقال : إن المتقين « إلى « هو العذاب الأليم » .

* يقول تعالى : [إن المتقين] الذين اتقوا طاعة الشيطان ، وما يدعوهم إليه ، من جميع الذنوب والعصيان [في جنات وعيون] قد احتوت على جميع الأشجار ، وأنبعت فيها جميع الثمار اللذيذة ، في جميع الأوقات .
ويقال لهم حال دخولها : [ادخلوها بسلام آمنين] من الموت ، والنوم والنصب ، والغوب ، وانقطاع شيء من النعيم ، الذي هم فيه أو نقصانه ، ومن المرض ، والحزن ، والهم ، وسائر المكدرات .
[ونزعنا ما في صدورهم من غل] فتبقى قلوبهم سالمة ، من كل غل ، وحسد ، متصافية متحابية « إخوانا على سررٍ متقابلين » .

دل ذلك على تزاورهم ، واجتماعهم ، وحسن أدبهم فيما بينهم ، في كون كل منهم مقابلاً للآخر ، لا مستدبراً له ، متكئين على تلك السرر المزينة ، بالفرش واللؤلؤ ، وأنواع الجواهر [لا يمسهم فيها نصب ^(١)] لا ظاهر ولا باطن .

وذلك ، لأن الله ينشئهم نشأة وحياة كاملة ، لا تقبل شيئاً من الآفات .
[وما هم منها بمخرجين] على سائر الأوقات .

(١) نصب . أى : تعب وكدر .

تَبَيَّنَ عِبَادِي إِنِّي أَنَا الْغُفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْمَذَابُ
الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرغبة ، من مفعولات الله ، من الجنة ،
والنار ، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال :

[نبي عبادى] أى : أخبرهم خبراً جازماً ، مؤيداً بالأدلة .

[أنى أنا الغفور الرحيم] فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرته ، سعوا
بالأسباب الموصلة لهم إلى رحمته ، وأقلعوا عن الذنوب ، وتابوا منها ،
لينالوا مغفرته .

ومع هذا ، فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن
والإدلال^(١) .

فنبههم [أن عذابي هو العذاب الأليم] أى : لا عذاب فى الحقيقة ،
إلا عذاب الله ، الذى لا يقادر قدره ، ولا يبلغ كنهه ، نعوذ به
من عذابه .

فإنهم إذا عرفوا أنه « لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد »
حذروا ، وبعثوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب .

فالعبد ، ينبغي أن يكون قلبه دائماً ، بين الخوف والرجاء ، والرغبة
والرهبة .

فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرته ، وجوده وإحسانه ، أحدث له ذلك
الرجاء والرغبة .

وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره فى حقوق ربه ، أحدث له الخوف والرهبة
والإقلاع عنها .

(١) كذا فى الأصل ، والعبارة غير واضحة . أ . هـ مصححه .

وَبَشِّرْهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوَجَّلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ
بِعِلْمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [ونبشركم عن صيف إبراهيم] .

أى : عن تلك القصة العجيبة ، فإن فى قصصك عليهم أنباء الرسل ، وما جرى لهم ، ما يوجب لهم العبرة ، والاقتداء بهم .

خصوصاً ، إبراهيم الخليل ، الذى أمرنا الله أن نتبع ملته .

وضيفه هم : الملائكة الكرام ، أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه .

[إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً] أى : سلموا عليه ، فرد عليهم [قال : إنا منكم وجلون] أى : خائفون .

لأنه لما دخلوا عليه ، وحسبهم ضيوفاً ، ذهب مسرعاً إلى بيته ، فأحضر لهم ضيافتهم ، عجلاً حنيذاً ^(١) فقدمه إليهم .

فلما رأى أيديهم لاتصل إليه ، خاف منهم أن يكونوا لصوصاً أو نحوه .

[قالوا] له : [لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم] وهو : إسحق عليه الصلاة والسلام .

تضمنت هذه البشارة ، بأنه ذكر لا أنثى ، عليم ، أى : كثير العلم .

وفى الآية الأخرى « وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين » .

(١) حنيذا . أى : مشوياً .

تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشِّرْ نَكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾
قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾

قال لهم متعجبا من هذه البشارة : [أبشروني] بالولد [على أن مسنى
الكبر] وصار نوع إياس منه [فبم تبشرون] أى : على أى وجه تبشرون
وقد عدت الأسباب ؟

[قالوا بشرناك بالحق] الذى لاشك فيه ، لأن الله على كل شىء قدير ،
وأنتم بالخصوص — يا أهل هذا البيت — رحمة الله وبركاته عليكم ،
فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم .

[فلا تكن من القانطين] الذين يستبعدون وجود الخير ، بل لا تزال
راجيا لفضل الله وإحسانه ، وبره وامتنانه .

فأجابهم إبراهيم بقوله : [ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون]
الذين لا علم لهم بربهم ، وكال اقتداره .

وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم ، فلا سبيل إلى القنوط
إليه ، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق ، لرحمة الله ،
شيئا كثيراً .

ثم لما بشروه بهذه البشارة ، عرف أنهم مرسلون لأمرهم .

﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا
أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا لُوطٌ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا أَمْرًا تَهُ قَدَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ
إِلَ لُوطٍ أَلْمَزْسُلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّكَرُونَ ﴿٦٢﴾
قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بَمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ

* أى : [قال] الخليل عليه السلام للملائكة [فما خطبكم أيها المرسلون] .

أى : ما شأنكم ، ولأى شىء أرسلتم ؟

[قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين] أى : كثر فسادهم ، وعظم شرهم ،

لنعذبهم ونعاقبهم .

[إلا آل لوط إنا لمنجوههم أجمعين] أى : إلا لوطا ، وأهله [إلا امرأته

قدرنا أنها لمن الغابرين] أى : الباقيين بالعذاب .

وأما لوط ، فلنخرجنه وأهله ، وننجيهم منها :

فجعل إبراهيم ، يجادل الرسل فى إهلاكمهم ، ويراجعهم .

فقيل له : « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم

أتيهم عذاب غير مردود » فذهبوا عنه .

[فلما جاء آل لوط المرسلون قال] لهم لوط [إنكم قوم منكرون]

أى : لا أعرفكم ولا أدرى من أنتم .

[قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون] أى : جئناك بعذابهم الذى

كانوا يشكون فيه ، ويكذبونك حين توعدهم به .

[وأتيناك بالحق] الذى ليس بالهزل [وإنا لصادقون] فيما قلنا لك .

وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ
أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾
وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾
وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي

[فأسر بأهلك بقطع من الليل] أى : فى أثنائه حين تنام الميون ،
ولا يدرى أحد عن مسراك .

[واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد] أى : بادروا وأسرعوا .
[وامضوا حيث تؤمرون] كأن معهم دليلاً يدهم إلى أين يتوجهون .
[وقضينا إليه ذلك] أى : أخبرناه خبراً لا مثنوية فيه .
[أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين] أى : سيصبحهم العذاب الذى
يحتاجهم ويستأصلهم .

[وجاء أهل المدينة] أى : المدينة التى فيها قوم لوط [يستبشرون]
أى . يبشر بعضهم بعضاً ، بأضياف لوط ، وصباحة وجوههم واقتدارهم
عليهم ، وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم .
فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط ، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه ،
ولوط يستعيز منهم ويقول :

[إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تحزون] أى : راقبوا
الله أول ذلك ، وإن كان ليس فيكم خوف من الله ، فلا تفضحون فى أضيافى ،
وتنتهكوا منهم حرمتهم بفعل الأمر الشنيع .

فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ
نَنْهَكَ عَنِ الْمُتَلِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾
لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ
مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ

و [قالوا] له جواباً عن قوله ولا تخزون فقط: [أولم نهك عن العالمين]
أن تضيفهم ، فنحن قد أذرناك ، ومن أذرك فقد أعذر .

[قال] لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه : [هؤلاء بناتي إن كنتم
فاعلين] .

فلم يبالوا بقوله ، ولهذا قال الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم [لعمرك
إنهم لفى سكرتهم يعمهون] وهذه السكره ، هى سكرة محبة الفاحشة ، التى
لا يبالون معها بعذل ولا لوم .

فلما بينت له الرسل حالهم ، زال عن لوط ما كان يحده من الضيق
والكرب .

فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلا ، فنجوا .

وأما أهل القرية [فأخذتهم الصيحة مشرقين] أى : وقت شروق
الشمس ، حيث كانت العقوبة عليهم أشد .

[فجعلنا عاليها سافلها] أى : قلبنا عليهم مدينتهم .

[وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل] . تتبع فيها من شذ من البلد .

سَجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ
مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

[إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ] أى : المتأملين المتفكرين ، الذين لهم
فكر وروية وفراصة ، يفهمون بها ما أريد بذلك ، من أن من تجرأ على
معاصي الله ، خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة ، أن الله سيعاقبهم بأشنع
العقوبات ، كما تجرأوا على أشنع السيئات .

[وَإِنَّهَا] أى : مدينة قوم لوط [لِبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ] للسالكين ، يعرفه
كل من تردد فى تلك الديار [إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ] .
وفى هذه القصة من العبر : عنايته تعالى بخليله إبراهيم .

فإن لوطاً عليه السلام ، من أتباعه ، ومن آمن به فكأنه تلميذه .
فحين أراد الله إهلاك قوم لوط ، حين استحقوا ذلك ، أمر رسله أن
يمروا على إبراهيم عليه السلام ، كي يشرّوه بالولد ، ويخبروه بما بعثوا له ،
حتى إنه جادلهم عليه السلام فى إهلاكهم ، حتى أقنعوه ، فطابت نفسه .

وكذلك لوط عليه السلام ، لما كانوا أهل وطنه ، فربما أخذته الرقة
عليهم والرأفة بهم ، قدّر الله من الأسباب ، ما به يشتد غيظه وحنقه
عليهم ، حتى استبطن إهلاكهم لما قيل له : « إن موعدهم الصبح أليس
الصبح ب قريب » .

ومنها : أن الله تعالى ، إذا أراد أن يهلك قرية ، زاد شرهم وطغيانهم .
فإذا انتهى ، أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه .

﴿٧٨﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ ظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مَّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَبُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ

* وهؤلاء قوم شعيب، نعتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو: البستان كثير الأشجار، ليدكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبينهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكاييل والموازين، وعالجهم على ذلك على أشد المعالجة، فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق، وفي حق الخلق، ولهذا، وصفهم، هنا، بالظلم.

[فانتقمنا منهم] فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم.
[وإنهما] أي: ديار قوم لوط، وأصحاب الأيكة [لبإمام مبين]
أي: لطريق واضح، يمر بهم المسافرون كل وقت، فيبين من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار، فيعتبر بذلك أولوا الأبواب.

* يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم، قوم صالح، الذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين، أي: كذبوا صالحا.
ومن كذب رسولا، فقد كذب سائر الرسل، لاتفاق دعوتهم.
وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به.

[وآتيناهم آياتنا] الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، ومن جملتها: تلك الناقة، هي من آيات الله العظيمة.

مِنَ الْجِبَالِ يُؤْتَا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾
فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

[فكانوا عنها معرضين] كبيراً وتجبراً على الله .

[وكانوا] — من كثرة إناعام الله عليهم — [ينحتون من الجبال
بيوتاً آمنين] من المخاوف مطمئنين في ديارهم .

فلو شكروا النعمة ، وصدقوا نبيهم صالحاً ، عليه السلام ، لَأَدَّرَ اللَّهُ
عليهم الأرزاق ، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل .

ولكنهم — لما كذبوا ، وعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ،
وقالوا : « يا صالح ائتنا بما تعدنا ، إن كنت من الصادقين » [فأخذتهم
الصيحة مصبحين] .

فتقطعت قلوبهم في أجوافهم ، وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى ، مع
ما يتبع ذلك ، من الخزي واللعنة المستمرة .

[فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون] لأن أمر الله إذا جاء ، لا يرده
كثرة جنود ، ولا قوة أنصار ، ولا غزارة أموال .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الَّذِي خَلَقَ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

* أى : ما خلقناها عبثاً باطلاً ، كما يظن أعداء الله .

بل ما خلقناها [إلا بالحق] الذى منه ، أن تكونا بما فيهما دالتين
على كمال خالتهما ، واقتداره ، وسعة رحمته ، وحكمته ، وعلمه المحيط ، وأنه
الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وحده لا شريك له .

[وإن الساعة لآتية] لا ريب فيها ، لأن خلق السموات والأرض
ابتداء ، أكبر من خلق الناس مرة أخرى .

[فاصفح الصفح الجميل] وهو الصفح ، الذى لا أذية فيه ، بل قابل
إساءة السوء بالإحسان ، وذنبه بالففران ، لتنال من ربك ، جزيل الأجر
والثواب ، فإن كل ما هو آت فهو قريب .
وقد ظهر لى معنى أحسن مما ذكرت هنا .

وهو : أن المأمور به ، هو الصفح الجميل ، أى : الحسن الذى قد سلم
من الحقد ، والأذية القولية والفعلية .

دون الصفح الذى ليس بجميل ، وهو : الصفح فى غير محله .

فلا يصفح ، حيث اقتضى المقام العقوبة ، كعقوبة المعتدين الظالمين ،
الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة ، وهذا هو المعنى .

[إن ربك هو الخلاق] لكل مخلوق [العليم] بكل شيء ، فلا يعجزه أحد
من جميع ما أحاط به علمه ، وجرى عليه خلقه ، وذلك : سائر الموجودات .

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ
الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَأخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي

* يقول تعالى مُتَمَتِّيًا على رسوله : [ولقد آتيناك سبعا من المثاني] وهن
— على الصحيح — السور السبع الطوال : « البقرة » و « آل عمران » ،
و « النساء » و « المائدة » و « الأنعام » و « الأعراف » و « الأنفال » مع
« التوبة » . أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات .

فيكون عطف [والقرآن العظيم] على ذلك ، من باب عطف العام
على الخاص ، لكثرة ما في المثاني من التوحيد ، وعلوم الغيب ، والأحكام
الجليلة ، وتثنيها فيها .

وعلى القول ، بأن « الفاتحة » هي السبع المثاني ، معناها : أنها سبع
آيات ، تنفي في كل ركعة .

وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني ، كان قد أعطاه
أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون ، وأعظم ما فرح به المؤمنون .
« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

ولذلك قال بعده : [لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم]
أي : لا تعجب إعجابا يحملك على إشغال فكرك ، بشهوات الدنيا ، التي
تتمتع بها المترفون ، واغتر بها الجاهلون ، واستغن بما آتاك الله ، من المثاني
والقرآن العظيم .

[ولا تحزن عليهم] فإنهم لا خير فيهم يُرجى ، ولا نفع يرْتَقَبُ .

أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ
جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

فلك في المؤمنين عنهم ، أحسن البذل ، وأفضل العوض .
[واخفض جناحك للمؤمنين] أى ألن لهم جانبك ، وحسن لهم خلقك ،
محبة ، وإكراماً ، وتودُّداً .
[وقل إني أنا النذير المبين] أى : قم بما عليك من النذارة ، وأداء
الرسالة ، والتبليغ للقريب والبعيد ، والعدو ، والصديق .
فإنك إذا فعلت ذلك ، فليس عليك من حسابهم من شيء ، وما من
حسابك عليهم من شيء .
وقوله . [كما أنزلنا على المقتسمين] أى . كما أنزلنا العقوبة على
بطلان ما جئت به ، الساعين لصد الناس عن سبيل الله .
[الذين جعلوا القرآن عضين] أى : أصنافاً ، وأعضاءاً ، وأجزاءاً ،
يصرفونه بحسب ما يهوونه .
فمنهم من يقول : سحر ، ومنهم من يقول : كهانة ومنهم من يقول
مُفْتَرًى إلى غير ذلك من أقوال الكفرة للكافرين به ، الذين جعلوا قدهم
فيه ، ليصدوا الناس عن الهدى .
[فوركك لنسألهم أجمعين] أى : جميع من قدح فيه وعابه ، وحرّفه
وبدّله [عما كانوا يعملون] .
وفى هذا أعظم تهريب ، وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا يعملون .

﴿٩٤﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

* ثم أمر الله رسوله أن لا يبالى بهم ، ولا بغيرهم ، وأن يصدع بما أمر الله ، ويعلن بذلك لكل أحد ولا يُعَوِّقُهُ عن أمره عائق ولا تصدّه أقوال المتهاونين .

[وأعرض عن المشركين [أى لا تبال بهم ، واترك مشائيتهم ومسائبتهم ، مقبلا على شأنك .

[إنا كفيناك المستهزين [بك وبما جئت به ، وهذا وعد من الله لرسوله ، أن لا يضره المستهزون ، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة . وقد فعل تعالى ، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، إلا أهلكه الله ، وقتله شر قتلة .

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يارسول الله .
فإنهم أيضاً ، يؤذون الله [الذين يعملون مع الله إلهاً آخر] وهو ربهم وخالقهم ، ومنه برهم [فسوف يعلمون] غيباً أفعالهم إذا وردوا القيامة .
[ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون] لك من التكذيب والاستهزاء .

فنحن قادرون على استنصالحهم بالعذاب ، والتعجيل لهم بما يستحقونه ، ولكن الله يمهلهم ولا يمهلهم .

[ف] أنت يا محمد [سبيح بحمد ربك وكن من الساجدين] أى : أكثر من ذكر الله ، وتسبيحه ، وتحميده ، والصلاة ، فإن ذلك يوسع الصدر ، وبشرحه ، ويعينك على أمورك .

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا
يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ
رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

[واعبد ربك حتى يأتيك اليقين] أى : الموت ، أى : استمر في جميع
الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات .

فامتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه ، فلم يزل دائباً في العبادة ، حتى
أتاه اليقين من ربه صلى الله عليه وسلم ، تسليماً كثيراً .

تم تفسير سورة الحجر — والحمد لله رب العالمين آمين

تفسير

سُورَةُ النِّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ

* يقول تعالى — مقرباً لما وعد به محققاً لوقوعه — [أتى أمر الله فلا تستعجلوه] .

فإنه أت ، وما هو أت ، فإنه قريب .

[سبحانه وتعالى عما يشركون] من نسبة الشريك ، والولد ، والصاحبة ، والكف ، وغير ذلك ، مما نسبته إليه المشركون ، مما لا يليق بجلاله ، أو ينافي كماله .

ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه ، ذكر الوحي الذي ينزل على أنبيائه ، مما يجب اتباعه ، في ذكر ما ينسب لله ، من صفات الكمال فقال :

[ينزل الملائكة بالروح من أمره] أي : بالوحي الذي به حياة الأرواح [على من يشاء من عباده] ممن يعلمه صالحا . لتحمل رسالته .

مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴿١﴾
﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾

وزبدة دعوة الرسل كلهم ومدارها ، على قوله : [أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا] .

أى : على معرفة الله تعالى وتوحده ، فى صفات العظمة ، التى هى صفات الألوهية ، وعبادته وحده لا شريك له ، فى التى أنزل بها كتبه ، وأرسل بها رسله ، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها ، وتحث وتجاهد من حاربها ، وقام بضدها .

ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك فقال :
[خلق السموات] إلى [إلهكم أجمعين] .

* هذه السورة ، تسمى سورة النعم ، فإن الله ذكر فى أولها ، أصول النعم وقواعدها ، وفى آخرها ، ممتماتها ومكملاتها .

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق ، ليستدل بهما العباد على عظمة خالقهما ، وماله من نفوت الكمال ، ويعلموا أنه خلقهما سكنا لعباده الذين يعبدونه ، بما يأمرهم به ، فى الشرائع التى أنزلها على ألسنة رسله ، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال :

[تعالى عما يشركون] أى : تنزه وتعاضم عن شركهم ، فإنه الإله حقا ، الذى لا تنبغى العبادة ، والحب ، والذل ، إلا له تعالى .

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾
وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ

ولما ذكر خلق السموات والأرض ، ذكر خلق ما فيهما .

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال : [خلق الإنسان من نطفة]
لم يزل يدبرها ، ويربها ، وينميتها ، حتى صارت بشراً تاماً ، كامل الأعضاء
الظاهرة والباطنة .

قد غمره بنعمه الغزيرة ، حتى إذا استقم ، نخر بنفسه وأعجب بها
[فإذا هو خصيم مبين] .

يحتمل أن المراد : فإذا هو خصيم لربه ، يكفر به ، ويجادل رسله ،
ويكذب بآياته .

ونسى خلقه الأول ، وما أنعم الله عليه به ، من النعم ، فاستعان بها
على معاصيه .

ويحتمل أن المعنى : أن الله أنشأ الآدمي من نطفة .

ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور ، حتى صار عاقلاً متكلماً ، ذا ذهن
ورأى ، يخاصم ويجادل .

فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال ، التي ليس في إمكانه
القدرة على شيء منها .

[والأنعام خلقها لكم] أى لأجلكم ، ولأجل منافعكم ومصالحكم .
ومن جملة منافعها العظيمة [لكم فيها دِفْءٌ] مما تتخذون من أصوافها
وأوبارها ، وأشعارها ، وجلودها ، من الثياب ، والفرش ، والبيوت .

أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بُلُغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ
لَرَّءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً

[و] لكم فيها [منافع] غير ذلك [ومنها تأكلون] .

[ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون] أى : فى وقت
رواحها وسكونها ، ووقت حركتها وسرحها .

وذلك أن جمالها ، لا يعود إليها منه شيء ، فإنكم ، أنتم الذين تتجملون
بها ، بثيابكم ، وأولادكم ، وأموالكم ، وتعجبون بذلك .

[وتحمل أثقالكم] من الأحمال الثقيلة ، بل وتحملكم أنتم [إلى بلد
لم تكونوا بـلـغـيـه إلا بشق الأنفس] ولكن الله ، ذلها لكم .

فمنها ما تركبونه ، ومنها ما تحملون عليه ما تشاءون ، من الأثقال ، إلى
البلدان البعيدة ، والأقطار الشاسعة .

[إن ربكم لرؤوف رحيم] إنه سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه .

فله الحمد ، كما ينبغى لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه ، وسعة
جوده وبره .

[والخيل والبغال والحمير] سخرناها لكم [لتركبوها وزينة] .

أى : تارة تستعملونها للضرورة فى الركوب ، وتارة لأجل الجمال
والزينة .

ولم يذكر الأكل ، لأن البغال والحمير ، محرم أكلها .

والخيل لاتستعمل — فى الغالب — للأكل ، بل ينهى عن ذبحها

وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِزٌ

لأجل الأكل ، خوفاً من انقطاعها ، وإلا فقد ثبت في الصحيحين ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، أذن في لحوم الخيل .

[ويخلق ما لا تعلمون] مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء ، التي يركبها الخلق في البر ، والبحر ، والجو ، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم فإنه لم يذكرها بأعيانها ، لأن الله تعالى لم يذكر في كتابه ، إلا ما يعرفه العباد ، أو يعرفون نظيره .

وأما ما ليس له نظير في زمانهم ، فإنه لو ذكر لم يعرفوه ، ولم يفهموا المراد به .

فيذكر أصلاً جامعاً ، يدخل فيه ما يعلمون ، وما لا يعلمون .

كما ذكر نعيم الجنة ، وسوى منه ما نعلم ونشاهد نظيره ، كالنخل والأعناب والرمان .

وأجمل ما لا نعرف له نظير آ في قوله [فيهما من كل فاكهة زوجان] .

فكذلك هنا ، ذكر ما نعرفه ، من المراكب ، كالخيل ، والبغال ، والحمر ، والإبل ، والسفن .

وأجمل الباقي في قوله [ويخلق ما لا تعلمون] .

ولما ذكر تعالى ، الطريق الحسن ، وأن الله قد جعل للعباد ، ما يقطعونه به من الإبل وغيرها ، ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال :

[وعلى الله قصد السبيل] أى : الصراط المستقيم ، الذى هو أقرب الطرق وأخصرها ، موصل إلى الله ، وإلى كرامته .

وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ
وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ
وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله ، وهو : كل ما خالف الصراط
المستقيم ، فهو قاطع عن الله ، موصل إلى دار الشقاء .

فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم ، وضل الغاؤون عنه ،
وسلكوا الطرق الجائرة .

[ولو شاء لهداكم أجمعين] ولكنه هدى بعضاً ، كرماً وفضلاً ، ولم
يهد الآخرين ، حكمة منه وعدلا .

* ينبه الله تعالى بهذه الآية الإنسان على عظمة قدرته وحميمه على
التفكير حيث ختمها بقوله (لقوم يتفكرون) على كمال قدرة الله ، الذي أنزل
هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف ، ورحمته ، حيث جعل فيه ماء غزيراً
منه يشربون ، وتشرب مواشيهم ، ويستقون منه حروثهم ، فتخرج لهم
الثمرات الكثيرة ، والنعم الغزيرة .

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

* أي : سخر لكم هذه الأشياء لمنافعكم ، وأنواع مصالحكم ، بحيث
لا تستغنون عنها أبداً .

فبالليل تسكنون وتنامون ، وتستريحون .

وبالنهار تنفثون في معاشكم ، ومنافع دينكم ودنياكم .

وبالشمس والقمر ، من الضياء ، والنور ، والإشراق ، وإصلاح الأشجار
والثمار ، والنبات ، وتخفيف الرطوبات ، وإزالة البرودة الضارة للأرض ،
وللأبدان ، وغير ذلك من الضروريات والحاجيات ، التابعة لوجود
الشمس والقمر .

وفيها ، وفي النجوم ، من الزينة للسماء والهداية ، في ظلمات البر
والبحر ، ومعرفة الأوقات ، وحساب الأزمنة ، ما تنوع دلائلها ،
وتتصرف آياتها .

ولهذا جمعها في قوله [إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون] أي : لمن لهم
عقول يستعملونها في التدبر والتفكير ، فيما هي مهياة له ، مستعدة ، تعقل
ما تراه ، وتسمعه .

لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظرة ، حظ البهائم ، التي
لا عقل لها .

﴿وَمَا ذَرَأَّا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (١٣) ﴿

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا

* أى : فيما ذرأ الله ونشر للعباد ، من كل ما على وجه الأرض ، من حيوان ، وأشجار ، ونبات ، وغير ذلك ، مما تختلف ألوانه ، وتختلف منافعه آية على كمال قدرة الله ، وعظيم إحسانه ، وسعة بره ، وأنه الذى لا تبغى العبادة إلا له ، وحده لا شريك له .

[لقوم يذكرون] أى : يستحضرون فى ذاكرتهم ، ما ينفعهم من العلم النافع ، ويتأملون مادعاهم الله إلى التأمل فيه ، حتى يقدحوا بذلك ، ما هو دليل عليه .

* أى : هو وحده لا شريك له [الذى سخر البحر] وهياه لمنافعكم المتنوعة .

[لتأكلوا منه لحما طرياً] وهو ، السمك ، والحوت ، الذى تصطادونه منه .

[وتستخرجوا منه حلية تلبسونها] فتزيدكم جمالا وحسناً إلى حسنكم .

[وترى الفلك] أى : السفن والمراكب [مواخر فيه] أى تمخر فى البحر العجاج الهائل ، بمقدمها ، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر ، تحمل (م ٧ ج ٤ تيسير الرحمن)

مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتْ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

المسافرين وأرزاقهم ، وأمتعتهم ، وتجاراتهم ، التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم .

[ولعلكم تشكرون] الذي يسر لكم هذه الأشياء وهياها ، وتثنون على الله الذي منّ بها .

فله تعالى الحمد والشكر ، والثناء ، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم ، فوق ما يطلبون ، وأعلى ما يتمنون ، وآتاهم من كل ما سألوه ، لا نحصى ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه .

* أى : [وألقى] الله تعالى لأجل عباده [فى الأرض رواسى] وهى : الجبال العظام لئلا تميد بهم وتضطرب بالخلق ، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء ، والسير عليها .

ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً ، يسوقها من أرض بعيدة ، إلى أرض مضطرة إليها لستيمهم وسقى مواشيمهم وحروثهم ، أنهاراً على وجه الأرض ، وأنهاراً فى بطنها يستخرجونها بحفرها ، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالى والآلات ونحوها .

ومن رحمته أن جعل فى الأرض سبلا أى : طرقاً توصل إلى الديار المتناثية .

[لعلكم تهتدون] السبيل إليها حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجبال ، سلسلة فيها ، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين .

﴿١٧﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٨﴾ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ

* لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة ، وما أنعم به من النعم العظيمة ، ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفء له ولا ند له ، فقال :
[أفمن يخلق] جميع المخلوقات ، وهو الفعال لما يريد [كمن لا يخلق] شيئاً ، لا قليلاً ، ولا كثيراً .

[أفلا تذكرون] فتعرفون أن المنفرد بالخلق ، أحق بالعبادة كلها .
فكما أنه واحد في خلقه وتديره ، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده ، وعبادته .

وكما أنه ليس له مشارك ، إذ أنشأكم وأنشأ غيركم ، فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته ، بل أخلصوا له الدين .

[وإن تعدوا نعمة الله] عدداً مجرداً عن الشكر [لا تحصوها] فضلاً عن كونكم تشكرونها .

فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد ، بعدد الأنفاس واللحظات ، من جميع أصناف النعم ، مما يعرف العباد ، ومما لا يعرفون ، وما يدفع عنهم من النقم ، فأكثر من أن تحصى .

[إن الله لغفور رحيم] يرضى منكم باليسير من الشكر ، مع إنعامه الكثير .

دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ

وكما أن رحمته واسعة ، وجوده عظيم ، ومغفرته شاملة للعباد ، فعلمه محيط بهم .

[يعلم ماتسرون وما تعلنون] بخلاف من عبد من دونه .

فإنهم [لا يخلقون شيئاً] قليلاً ولا كثيراً [وهم يخلقون] .

فكيف يخلقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى !!؟

ومع هذا ، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء ، لاعلم ، ولا غيره .

[أموات غير أحياء] فلا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تعقل شيئاً ، أفنتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين .

فتبّاً لعقول المشركين ، ما أضلها ، وأفسدها ، حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً .

وسووا بين الناقص من جميع الوجوه فلا أوصاف كمال ، ولا شيء من الأفعال ، وبين الكامل من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها .

فله العلم المحيط بكل الأشياء ، والقدرة العامة ، والرحمة الواسعة ، التي ملأت جميع العوالم .

والحمد والمجد والكبرياء والعظمة ، التي لا يقدر أحد من الخلق ، أن يحيط ببعض أوصافه ولهذا قال :

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾
لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

[إن إلهكم إله واحد] وهو : الله الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم
يكن له كفوراً أحد .

فأهل الإيمان والعقول ، أحلته قلوبهم وعظمته ، وأحبته حباً عظيماً ،
وصرفوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية ، وأعمال القلوب
وأعمال الجوارح ، وأنشأوا عليه بأسمائه الحسنى ، وصفاته ، وأفعاله
المقدسة .

[فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة] لهذا الأمر العظيم الذى
لا ينكره إلا أعظم الخلق ، جهلاً وعناداً ، وهو : توحيد الله [وهم
مستكبرون] عن عبادته .

[لاجرم] أى : حقاً لا بد [أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون] من
الأعمال القبيحة [إنه لا يحب المستكبرين] بل يفيضهم أشد البغض ،
وسيجازيهم من جنس عملهم « إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون
جهنم داخرين » .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ
الَّذِينَ يَضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ

* يقول تعالى - مخبرا عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله :

[وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم] أى : إذا سئلوا عن القرآن والوحى ،
الذى هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد .

فماذا قولكم به ؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعتفون بها ، أم
تكفرون وتعادون ؟

فيكون جوابهم أقبح جواب وأسمجه ، فيقولون عنه : إنه [أساطير
الأولين] أى : كذب اختلقه محمد على الله ، وما هو إلا قصص الأولين
التي يتناقلها الناس ، جيلا بعد جيل ، منها الصدق ومنها الكذب .

فقالوا هذه المقالة ، ودعوا أتباعهم إليها ، وحلوا وزرهم ، ووزر من
انقاد لهم إلى يوم القيامة .

وقوله : [ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم] أى : من أوزار
المقلدين الذين لا علم عندهم ، إلا ما دعوهم إليه ، فيحصلون إثم
مادعوهم إليه .

وأما الذين يعلمون ، فَكُلُّ مُسْتَقِلٍّ بِجَرَمِهِ ، لأنه عرف ما عرفوا .
[ألا ساء ما يزرعون] أى : بئس ما حلوا من الوزر الثقيل لظهورهم ،
من وزرهم ، ووزر من أضلوه .

مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ

[قد مكر الذين من قبلهم] برسلهم ، واحتالوا بأنواع الخيل ، على
رد ما جاءوهم به ، وبنوا من مكرهم ، قصوراً هائلة .

[فأتى الله بنيانهم من القواعد] أى : جاءها الأمر من أساسها
وقاعدتها .

[نخر^(١) عليهم السقف من فوقهم] فصار ما بنوه عذاباً ، عذبوا به .
[وأأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون] وذلك أنهم ظنوا أن هذا
البنيان سينفعهم ، ويقيهم العذاب ، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه .
وهذا من أحسن الأمثال ، فى إبطال الله مكر أعدائه .

فإنهم فكروا وقدرُوا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم ، وجعلوا لهم
أصولاً وقواعد من الباطل ، يرجعون إليها ، ويردون بها ما جاءت
به الرسل .

واحتالوا أيضاً ، على إيقاع المسكر وه الضرر بالرسل ومن تبعهم .
فصار مكرهم وتبالاً عليهم ، فصار تدميرهم فيه تدميرهم .
وذلك لأن مكرهم سىء « ولا يحق المسكر السىء إلا بأهله » .
هذا فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، ولهذا قال :

(١) نخر . أى : سقط ، ووقع .

الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ
فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى
الْكَاْفِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا

[ثم يوم القيامة يخزيهم] أى يفضحهم على رموس الخلائق ، ويبين
لهم كذبهم ، وافتراءهم على الله .

[ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم] أى : تحاربون
وتعاديون الله وحزبه لأجلهم ، وتزعمون أنهم شركاء لله .

فإذا سألم هذا السؤال ، لم يكن لهم جواب ، إلا الإقرار بضلالهم ،
والاعتراف بعنادهم فيقولون « ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا
كافرين » .

[قال الذين أوتوا العلم] أى : العلماء الربانيون [إن الخزي اليوم]
أى : يوم القيامة [والسوء] أى : سوء العذاب [على الكافرين] .

وفى هذا فضيلة أهل العلم ، وأنهم الناطقون بالحق فى هذه الدنيا ، ويوم
يقوم الأشهاد ، وأن لقولهم ، اعتباراً عند الله وعند خلقه .

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة ، وفى القيامة فقال :

[الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم] أى : تتوفاهم فى هذه الحال ،
التي كثر فيها ظلهم وغيرهم ، وقد علم ما يلقى الظلمة فى ذلك المقام ، من
أنواع العذاب والخزي والإهانة .

أَلَسَلَّمْ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

[فالتقوا السلم] أى : استسلموا ، وأنكروا ما كانوا يعبدون من دون
الله وقالوا :

[ما كنا نعمل من سوء] .

فيقال لهم : [بلَى] كنتم تعملون السوء ، و [إن الله عليم بما كنتم
تعملون] فلا يفيدكم الجحود شيئاً .

وهذا فى بعض مواقف القيامة ، ينكرون ما كانوا عليه فى الدنيا ،
ظنا منهم أنه ينفعهم .

فإذا شهدت عليهم جوارحهم ، وتبين ما كانوا عليه أقروا ،
واعترفوا .

ولهذا لا يدخلون النار ، حتى يعترفوا بذنوبهم .

فإذا دخلوا أبواب جهنم ، فكلُّ أهل عمل يدخلون من الباب
اللائق بحالهم .

[فلبئس مَثْوًى المتكبرين] نار جهنم ، فإنها مَثْوًى الحسرة والندم ،
ومنزلة الشقاء والألم ، ومحل الهموم والغموم ، وموضع السخط من
الحق القيوم .

لا يُفترَّ عنهم من عذابها ، ولا يرفع عنهم يوماً من أليم عقابها ، قد
أعرض عنهم الرب الرحيم ، وأذاقهم العذاب العظيم .

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ
دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

* لما ذكر الله قيل ^(١) المكذبين بما أنزل الله ، ذكر ما قاله المتقون ، وأنهم
اعترفوا وأقروا ، بأن ما أنزل الله نعمة عظيمة ، وخير عظيم امتن الله به
على العباد ، فقبلوا تلك النعمة ، وتلقوها بالقبول والانقياد ، وشكروا الله
عليها ، فعملوها ، وعملوا بها .

[للذين أحسنوا] في عبادة الله تعالى ، وأحسنوا إلى عباد الله ، فلهم
[في هذه الدنيا حسنة] رزق واسع ، وعيشة هنية ، وطمأنينة قلب ،
وأمن ، وسرور .

[ولدار الآخرة خير] من هذه الدار ، وما فيها من أنواع اللذات
والمشتبهات ، فإن هذه ، نعيمها قليل ، محشو بالآفات ، منقطع .

بمخلاف نعيم الآخرة ، ولهذا قال : [ولنعم دار المتقين ، جنات عدن
يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون] أى : مهما تمت
أنفسهم ، وتعلقت به إرادتهم ، حصل لهم على أكل الوجوه وأتمها .

فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم ، الذى فيه لذة القلوب ،
وسرور الأرواح ، إلا وهو حاضر لديهم ، ولهذا يعطى الله أهل الجنة ، كل
ما تمنوه عليه حتى إنه يُذكرهم أشياء من النعيم ، لم تخطر على قلوبهم .

فتبارك الذى ، لانهاية لكرمه ، ولا حد لجوده ، الذى ليس كمثله شيء .

(١) قيل ، أى : « قول » ولو عبر بهذه لكان أحسن وأوضح للقارىء .

لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ
تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

في صفات ذاته ، وصفات أفعاله ، وآثار تلك النعوت ، وعظمة الملك
والملكوت .

[كذلك يجزي الله المتقين] لسخط الله وعذابه ، بأداء ما أوجبه
عليهم ، من الفروض ، والواجبات ، المتعلقة بالقلب ، والبدن ، واللسان ، من
حقه ، وحق عبادته ، وترك ما نهاهم الله عنه .

[الذين تتوفاهم الملائكة] مستمرين على تقواهم [طيبين]
أى : طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس ، يتطرق إليهم ، ويخل
في إيمانهم .

فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته ، وألستهم بذكره ، والثناء عليه ،
وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه .

[يقولون سلام عليكم] التحية الكاملة ، خاصة لسمكم ، والسلامة من
كل آفة .

وقد سلمتم من كل ما تنكروهن [ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون]
من الإيمان بالله ، والالتقياد لأمره .

فإن العمل هو السبب والمادة ، والأصل في دخول الجنة ، والنجاة
من النار .

وذلك العمل ، حصل لهم برحمة الله ومنته ، لا بجولهم وقوتهم .

﴿٣٣﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ
أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

* يقول تعالى : هل ينظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات ، فلم يؤمنوا ،
وذكروا ، فلم يتذكروا .

[إلا أن تأتيهم الملائكة] لقبض أرواحهم [أو يأتي أمر ربك]
بالعذاب الذى سيحل بهم ، فإنهم قد استحقوا وقوعه فيهم .
[كذلك فعل الذين من قبلهم] كذبوا وكفروا ، ثم لم يؤمنوا ،
حتى نزل بهم العذاب .

[وما ظلمهم الله] إذ عذبهم [ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] فإنها
مخلوقة لعبادة الله ، ليكون مآلها إلى كرامة الله ، فظلموها ، وتركوا
ما خلقت له ، وعرضوها للإهانة الدائمة ، والشقاء الملازم .

[فأصابهم سيئات ما عملوا] أى : عقوبات أعمالهم وآثارها .
[وحاق بهم] أى : نزل [ما كانوا به يستهزون] فإنهم كانوا إذا
أنذرتهم رسلهم بالعذاب ، استهزأوا به ، وسخروا من أخباره فحل بهم
ذلك الأمر الذى سخروا منه .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ
 مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ
 فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣٥)

* أى : احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله ، وأن الله لو شاء ،
 ما أشركوا ، ولا حرموا شيئاً من الأنعام ، التى أحلها كالبحيرة ، والوصيلة
 والحام ، ونحوها ، من دونه .
 وهذه حجة باطلة ، فإنها لو كانت حقاً ، ما عاقب الله الذين من قبلهم ،
 حيث أشركوا به ، فعاقبهم أشد العقاب . فلو كان يجب ذلك منهم ،
 لما عذبهم .

وليس قصدهم بذلك ، إلا رد الحق الذى جاءت به الرسل ، وإلّا فعندهم
 علم ، أنه لا حجة لهم على الله .

فإن الله أمرهم ونهاهم ، ومكنهم من القيام بما كلفهم ، وجعل لهم قوة
 ومشية تصدر عنها أفعالهم . فاحتجاجهم بالقضاء والقدر ، من أبطل الباطل .
 هذا ، وكل أحد يعلم بالحس ، قدرة الإنسان على كل فعل يريده ، من غير
 أن ينازعه منازع .

فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله ، وتكذيب الأمور العقلية ،
 والحسية .

[فهل على الرسل إلا البلاغ المبين] أى : البين ، الظاهر ، الذى يصل
 إلى القلوب ، ولا يبقى لأحد على الله حجة .

فإذا بلغتهم الرسل أمر ربهم ونهيه ، واحتجوا عليهم بالقدر ، فليس
 للرسل من الأمر شيء ، وإنما حسابهم على الله عز وجل .

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ
وَأَجْتَنِبُوا الصُّلُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن
يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾

* يخبر تعالى ، أن حجته قامت على جميع الأمم ، وأنه ما من أمة متقدمة
أو متأخرة ، إلا وبعث الله فيها رسولا وكلهم متفقون على دعوة واحدة ،
ودين واحد ، وهو : عبادة الله وحده لا شريك له [أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت] .

فانقسمت الأمم ، بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها ، قسمين .
[فمنهم من هدى الله] فاتبعوا المرسلين ، علما ، وعملا .
[ومنهم من حق عليه الضلالة] فاتبع سبيل الفئ .

[فسيروا في الأرض] بأبدانكم وقلوبكم [فانظروا كيف كان عاقبة
المكذبين] فإنكم سترون من ذلك ، المعائب ، فلا تجحد مكذبا ، إلا كان
عاقبته الهلاك .

[إن تحرص على هداهم] وتبذل جهدك في ذلك [فإن الله لا يهدي
من يضل] ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله .

[وما لهم من ناصرين] ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه .

﴿٣٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبَيْعُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ
بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا
كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴿٤٠﴾

* يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله ، أنهم [أقسموا بالله جهد
أيمانهم] أى : حلفوا أيماناً مؤكدة مغلفة على تكذيب الله ، وأنه لا يبعث
الأموات ، ولا يقدر على إحيائهم ، بعد أن كانوا تراباً .

قال تعالى مكذباً لهم : [بلَى] سيبيعهم ، ويجمعهم ، ليوم لا ريب فيه
[وعدا عليه حقاً] لا يخلفه ولا يغيره [ولكن أكثر الناس لا يعلمون]
ومن جهلهم العظيم ، إنكارهم البعث والجزاء .

ثم ذكر الحكمة فى الجزاء والبعث فقال :

[ليبين لهم الذى يختلفون فيه] من المسائل الكبار والصغار ، فيبين
حقائقها ويوضحها .

[وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين] حتى يروا أعمالهم
حسرات عليهم .

وما نفعتهم آلهتهم ، التى يدعون مع الله من شىء ، لما جاء أمر ربك
وحين يرون ما يعبدون ، حطاً للجنهم ، وتسكور الشمس والقمر ، وتتناثر
النجوم ، ويتضح لمن يعبدها ، أنها عبيد مسخرات ، وأنهن مفتقرات

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

إلى الله في جميع الحالات ، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد ، فإنه إذا أراد شيئاً قال له : كن فيكون ، من غير منازعة ولا امتناع ، بل يكون على طبق ما أَرَادَهُ وشَاءَهُ .

* يخبر تعالى بفضل المؤمنين المتحنين [الذين هاجروا في الله] أى : في سبيله ، وابتغاء مرضاته [من بعد ما ظلموا] بالأذية والحنة من قومهم ، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك ، فتركوا الأوطان والخلان ، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن .

فذكر لهم ثوابين ، ثواباً عاجلاً في الدنيا ، من الرزق الواسع ، والعيش الهنيء ، الذى رأوه عياناً ، بعد ما هاجروا ، وانتصروا على أعدائهم ، وافتتحوا البلدان ، وغنموا منها الغنائم العظيمة ، فتمولوا ، وآتاهم الله في الدنيا حسنة .

[ولأجر الآخرة] الذى وعدهم الله على لسان رسوله خير، و[أكبر] من أجر الدنيا كما قال تعالى « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون . ييشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم » .

وقوله : [لو كانوا يعلمون] أى : لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله ، لم يتخلف عن ذلك أحد .

الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ
فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ

ثم ذكر وصف أوليائه فقال [الذين صبروا] على أوامر الله وعن نواهيهِ ، وعلى أقدار الله المؤلّة ، وعلى الأذية فيه ، والحن [وعلى ربهم يتوكلون] أى : يعتمدون عليه فى تنفيذ محابّه ، لا على أنفسهم . وبذلك تنجح أمورهم ، وتستقيم أحوالهم ، فإن الصبر والتوكل ، ملاك الأمور كلها . فما فات أحداً شىء من الخير ، إلا لعدم صبره ، وبذل جهده فيما أريد منه ، أو لعدم توكله واعتماده على الله .

* يقول تعالى لنبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم : [وما أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا] أى : لست ببدع من الرسل ، فلم نرسل قبلك ملائكة ، بل رجالاً كامليّن لا نساء .

[نوحى إليهم] من الشرائع والأحكام ، ما هو من فضله وإحسانه على العبيد ، من غير أن يأتوا بشىء من قبل أنفسهم .

[فاسألوا أهل الذكر] أى : الكتب السابقة [إن كنتم لا تعلمون]
نبأ الأولين ، وشككتكم : هل بعث الله رجالاً ؟

فاسألوا أهل العلم بذلك ، الذين نزلت عليهم الزبر والبيّنات ، فعملوها وفهموها .

فإنهم كلهم ، قد تقرر عندهم ، أن الله ما بعث إلا رجالاً يوحي إليهم من أهل القرى .

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

وعوم هذه الآية ، فيها مدح أهل العلم ، وأن أعلى أنواعه ، العلم
بكتاب الله المنزل .

فإن الله أمر من لا يعلم ، بالرجوع إليهم ، في جميع الحوادث .
وفي ضمنه ، تعديل لأهل العلم ، وتزكية لهم ، حيث أمر بسؤالهم ، وأن
بذلك يخرج الجاهل من التبعة .

فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله ، وأنهم مأمورون بتزكية
أنفسهم ، والاتصاف بصفات الكمال .

وأفضل أهل الذكر ، أهل هذا القرآن العظيم فإنهم أهل الذكر
على الحقيقة ، وأولى من غيرهم بهذا الاسم ، ولهذا قال تعالى :

[وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ] أى : القرآن الذى فيه ذكر ما يحتاج إليه
العباد ، من أمور دينهم ودنياهم ، الظاهرة والباطنة .

[لتبين للناس ما نزل إليهم] وهذا شامل لتبيين ألفاظه ، وتبيين معانيه .

[ولعلمهم يتفكرون] فيه ، فيستخرجون من كنوزه وعلومه ، بحسب
استعدادهم ، وإقبالهم عليه .

﴿٤٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَّهٗ
عَنِ الِّيمِينِ وَالشَّمَآلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ
يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ
وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ

فالبدار البدار إلى رحمة الواسعة ، وبره العميم ، وسلوك الطرق الموصلة
إلى فضل الرب الرحيم ، ألا ، وهي تقواه ، والعمل بما يحبه ويرضاه .

* يقول تعالى : [أُولَٰمِ يَرَوْ] أى : الشاكون فى توحيد ربهم وعظمته
وكاله .

[إلى ما خلق الله من شىء] أى : إلى جميع مخلوقاته ، وكيف
تفياً أظلمها .

[عن اليمين والشمال سجداً لله] أى : كلها ساجدة لربها ، خاضعة
لعظمته وجلاله .

[وهم داخرون] أى : ذليلون تحت التسخير والتدبير ، والقهر .

ما منهم أحد ، إلا وناصيته بيد الله ، وتدبيره عنده .

[والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة] من الحيوانات
الناطقة والصامتة .

[والملائكة] الكرام ، خصهم بعد العموم ، لفضلهم ، وشرفهم ،
وكثرة عبادتهم ، ولهذا قال :

[وهم لا يستكبرون] أى : عن عبادته ، على كثرتهم ، وعظمة أخلاقهم

مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿٥٠﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ

وقوتهم ، كما قال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » .

[يخافون ربهم من فوقهم] لما مدحهم بكثرة الطاعة ، والخضوع لله ، مدحهم بالخوف من الله الذى هو فوقهم بالذات والقهر ، وكمال الأوصاف ، فهم أذلاء تحت قهره .

[ويفعلون ما يؤمرون] أى : مهما أمرهم الله تعالى ، امتثلوا لأمره ، طوعاً واختياراً .

وسجود المخلوقات لله تعالى قسماً : سجود اضطرار ، ودلالة على ماله من صفات الكمال .

وهذا عام لكل مخلوق ، من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر ، وحيوان ناطق وغيره .

وسجود اختيار ، يختص بأوليائه وعباده المؤمنين ، الملائكة ، وغيرهم من المخلوقات .

* يأمر تعالى ، بعبادته وحده لا شريك له ، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم فقال :

[لا تتخذوا إلهين اثنين] أى : تجعلون له شريكاً فى إلهيته .

وهو [إنما هو إله واحد] متوحد فى الأوصاف العظيمة ، متفرد بالأفعال كلها .

وَاحِدٌ فَإِيَّيَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ
الدِّينُ وَاصْبِرْ أَفْغِيرَ اللَّهُ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ
ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ

فكما أنه الواحد في ذاته ، وأسمائه ، ونعوته ، وأفعاله ، فلتوَحِّدوه
في عبادته .

ولهذا قال : [فإياي فارهبون] أى : خافوني ، وامثلوا أمرى ،
واجتنبوا نهىي ، من غير أن تشركوا بى شيئاً من المخلوقات ، فإنها كلها
لله تعالى مملوكة .

[وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً] ^(١) أى : الدين ،
والعبادة ، والذل في جميع الأوقات ، لله وحده ، على الخلق أن يخلصوه لله ،
وينصبغوا بعبوديته .

[أفغير الله تتقون] من أهل الأرض أو أهل السموات ، فإنهم
لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً ، والله المنفرد ، بالطاء ، والإحسان .

[وما بكم من نعمة] ظاهرة وباطنة [فمن الله] لا أحد يشركه فيها .
[ثم إذا مسكم الضر] من فقر ، ومرض ، وشدة [فإليه تجأرون]
أى : تضجون بالدعاء والتضرع ، لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو .
فالذى انفرد بإعطائكم ما تحبون ، وصرف ما تسكرهون ، هو الذى
لا تنبغى العبادة إلا له وحده .

عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا
 آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾
 وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ
 لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُتُمُ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ

ولكن كثيراً من الناس ، يظلمون أنفسهم ، ويحمدون نعمة الله عليهم
 إذا نجاهم من الشدة .

فإذا صاروا في حال الرخاء ، أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة ،
 ولهذا قال :

[ليكفروا بما آتيناهم] أى : أعطيناهم ، حيث نجيناهم من الشدة ،
 وخلصناهم من المشقة .

[فتمتعوا] فى دنيا كم قليلا [فسوف تعلمون] عاقبة كفركم .

* يخبر تعالى ، عن جهل المشركين ، وظلمهم ، وافتراءهم على الله الكذب ،
 وأنهم يجعلون لأصنامهم ، التى لا تعلم ، ولا تنفع ، ولا تضر — نصيباً مما
 رزقهم الله ، وأنعم به عليهم .

فاستعانوا برزقه على الشرك به ، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة ، كما
 قال تعالى :

« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم
 وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله » الآية ، وقال « تالله
 لتسألن عما كنتم تفترون » . وقال : « آله أمركم بهذا أم على الله تفترون »
 وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة « فيعاقبهم على ذلك
 أشد العقوبة

وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ
أَيُّسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

[ويجعلون لله البنات سبحانه] حيث قالوا عن الملائكة ، العباد للمقربين :
إنهم بنات الله .

[ولهم ما يشتهون] أى : لأنفسهم الذكور ، حتى إنهم يكرهون البنات ،
كرهه شديدة .

فكان أحدهم [إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً] من النعم الذى
أصابه [وهو كظيم] أى : كاظم على الحزن والأسف ، إذا بشر بأنثى ،
وحتى إنه يفتضح عند أبناء جنسه ، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به .

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد ، فيما يصنع بتلك البنت التى بشر بها
[أييسكه على هون] أى : يتركها من غير قتل على إهانة وذل ؟

[أم يدسه فى التراب] أى : يدفنها وهى حية ، وهو الوأد الذى ذم الله
به المشركين .

[ألا ساء ما يحكمون] إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله ، من نسبة
الولد إليه .

ثم لم يكفهم هذا ، حتى نسبوا له أَرْدَاءَ القسمين ، وهو : الإناث ، اللاتى
يأنفون بأنفسهم عنها ، ويكرهونها ، فكيف ينسبونها لله تعالى ؟ !
فبئس الحكم حكمهم .

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُوَازِئُكَ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ
دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ

ولما كان هذا من أمثال السوء ، التي نسبها إليه أعداؤه المشركون ،
قال تعالى :

[للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء] أى : المثل الناقص
والعيب التام .

[والله المثل الأعلى] وهو كل صفة كمال ، وكل كمال فى الوجود ، فـالله
أحق به ، من غير أن يستلزم ذلك نقضا بوجه من الوجوه .
وله المثل الأعلى فى قلوب أوليائه ، وهو : التعظيم والإجلال ، والحبّة
والإنابة والمعرفة .

[وهو العزيز] الذى قهر جميع الأشياء ، وانقادت له المخلوقات بأسرها .
[الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها ، فلا يأسر ، ولا يفعل ،
إلا ما يحمد عليه ، ويُثنى على كماله فيه .

* لما ذكر تعالى ، ما افتراه الظالمون عليه ، ذكر كمال حلمه وصبره فقال :
[ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم] من غير زيادة ولا نقص .

[ما ترك على ظهرها من دابة] أى : لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم ،
من أنواع الدواب والحيوانات ، فإن شؤم المعاصى ، يهلك به الحرث والنسل .

لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ

الْكَذِبُ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

[ولكن يؤخرهم] عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى ، وهو يوم القيامة [فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون] فليحذروا ، ما داموا في وقت الإمهال ، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه .

* يخبر تعالى أن المشركين [يجعلون لله ما يكرهون] من البنات ، ومن الأوصاف القبيحة ، وهو : الشرك ، بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات ، التي هي عبيد لله .

فكما أنهم يكرهون ، ولا يرضون أن يكون عبيدهم — وهم مخلوقون من جنسهم — شركاء لهم فيما رزقهم الله ، فكيف يجعلون له شركاء من عبيده ؟!! .

[و] هم — مع هذه الإساءة العظيمة — [تصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى] أى : أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة .

فرد عليهم بقوله : [لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون] مقدمون إليها ، ما كثون فيها ، غير خارجين منها أبداً .

بيّن تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ، أنه ليس هو أول رسول كُذِّب فقال تعالى :

تَاللّٰهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَهُمْ وَلِيَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾
﴿٦٤﴾ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِنُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي
اُخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

[تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك] رسلا يدعونهم إلى التوحيد .
[فزين لهم الشيطان أعمالهم] فكذبوا الرسل ، وزعموا أن ما هم عليه ،
هو الحق المنجي من كل مكروه ، وأن ما دعت إليه الرسل ، فهو بخلاف ذلك .
فلما زين لهم الشيطان أعمالهم . صار [وليهم اليوم في الدنيا] ،
فأطاعوه ، واتبعوه ، وتولوه .
« أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين
بدلا » .

[ولهم عذاب أليم] في الآخرة ، حيث تولوا ، عن ولاية الرحمن ،
ورضوا بولاية الشيطان ، فاستحقوا لذلك ، عذاب الهوان .
* يقول تعالى : وما أنزلنا عليك يا محمد هذا القرآن ، إلا لتبين للناس
الحق ، فيما كان موضع اختلافهم ، من التوحيد ، والقدر ، وأحكام الأفعال
وأحوال المعاد ، وليكون هداية تامة ، ورحمة عامة ، لقوم يؤمنون بالله ،
وبالكتاب الذي أنزله .

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾
وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّقِيتُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ
مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ

* يذكر الله تعالى في هذه الآية نعمة من أعظم النعم ليعقلوا عن الله مواعظه وتذكيره ، فيستدلوا بذلك على أنه وحده المعبود ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده ، لأنه المنعم بإنزال المطر ، وإنبات جميع أصناف النبات ، وعلى أنه على كل شئ قدير ، وأن الذى أحيا الأرض بعد موتها ، قادر على إحياء الأموات ، وأن الذى نشر هذا الإحسان ، لذو رحمة واسعة ، وجود عظيم .

* أى : [إن لكم فى الأنعام] التى سخرها الله لمنافعكم [عبرة] تستدلون بها على كمال قدرة الله ، وسعة إحسانه ، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرث والدم .

فأخرج من بين ذلك ، لبنا خالصا من الكدر سائغا للشاربين ، للذته ، ولأنه يسقى ويفدى .

فهل هذه، إلاقدره إلهية، لا أمور طبيعية.

فأى شيء في الطبيعة، يقلب العلف الذي تأكله البهيمة ، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح ، لبنا خالصا سائغا للشاربين ؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب ، منافع للعباد ، ومصالح ، من أنواع الرزق الحسن ، الذى يأكله العباد ، طريئاً ونضيجاً ،

النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ
يُمُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ
الشَّعَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ
مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

وحاضراً ، ومدخراً ، وطعاماً وشراباً يتخذ من عصيرها ونبيذها ، ومن
السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك .

ثم إن الله نسخ حلَّ المسكرات ، وأغاض عنها بالطيبات من الأنبذة .
وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة ولهذا قال من قال « إن المراد بالسكر هنا :
الطعام والشراب اللذيذ » وهو أولى من القول الأول .

[إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون] عن الله كمال اقتداره ، حيث أخرجها
من أشجار شبيهة بالحطب ، فصارت ثمرة لذيدة وفاكهة طيبة ، وعلى شمول
رحمته ، حيث عم بها عباده ، ويسرها لهم ، وأنه الإله العبود وحده ، حيث
إنه المنفرد بذلك .

* في خلق هذه النحلة الصغيرة ، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة ،
ويسر لها المراعى .

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ
إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
قَدِيرٌ﴾ (٧٠)

ثم الرجوع إلى بيوتها ، التي أصلحتها ، بتعليم الله لها وهدايته لها
ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان ، بحسب اختلاف
أرضها ومراعيها ، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة .
فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى ، وتمام لطفه بعباده ، وأنه الذي
لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه .

* يخبر تعالى ، أنه الذي خلق العباد ، ونقلهم في الخلقية ، طوراً بعد طور ،
ثم بعد أن يستكملوا آجالهم ، يتوفاهم .

ومنهم من يعمره حتى [يرد إلى أَرذل العمر] أي : أخسه الذي يبلغ
به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة ، حتى العقل ، الذي هو
جوهر الإنسان ، يزيد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه ، ويصير عقله كعقل
الطفل ولهذا قال :

[لسكيلا يعلم بعد علم شيئاً ، إن الله عليم قدير] أي : قد أحاط علمه
وقدرته بجميع الأشياء ، ومن ذلك ، ما ينقل به آدمي من أطوار الخلقة ،
خلقا بعد خلق ، كما قال تعالى :

« الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل
من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير » .

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ
فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ
أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (٧١)

* هذا من أدلة توحيده ، وقبح الشرك به .

يقول تعالى : كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون ، إلا أنه
تعالى [فضل بعضكم على بعض في الرزق] فجعل منكم أحراراً ، لهم مال و ثروة ،
ومنكم أرقاء لهم ، لا يملكون شيئاً من الدنيا .

فكما أن ساداتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا [برادى رزقهم
على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء] ويرون هذا من الأمور الممتنعة .
فكذلك من أشركتم بها مع الله ، فإنها عبید ، ليس لها من الملك ،
مثقال ذرة .

فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى ؟ ! .

هل هذا ، إلا من أعظم الظلم ، والجحود لنعم الله ؟ !! ولهذا قال :
[أفبينعمة الله يجحدون] فلو أقرؤا بالنعمة ونسبوا إلى من أولاهها ،
لما أشركوا به أحدا .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ
مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

* يخبر تعالى ، عن مَنِّهِ العظيمة على عباده ، حيث جعل لهم أزواجا ،
ليسكنوا إليها ، وجعل لهم من أزواجهم ، أولاداً تَقَرُّ بهم أعينهم
ويخدمونهم ، ويقضون حوائجهم ، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة ، ورزقهم
من الطيبات ، من المأكول ، والمشرب ، والنعم الظاهرة ، التي لا يقدر
العباد أن يحصوها .

[أفباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون] أى : يؤمنون بالباطل ،
الذي لم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم أوجده الله ، وليس له من وجوده سوى
العدم ، فلا تخلق ، ولا ترزق ، ولا تدبر من الأمور شيئاً .

وهذا عام لكل ما عبد من دون الله ، فإنها باطلة .

فكيف يتخذها المشركون من دون الله !!! .

[وبنعمة الله هم يكفرون] يحدونها ، ويستعينون بها على معاصي الله
والكفر به .

هل هذا إلا من أطم الظلم ، وأجر الفجور ، وأسفه السفه . !!!

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ
الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا

* يخبر تعالى ، عن جهل المشركين وظلمهم ، أنهم يعبدون من دونه
آلهة ، اتخذوها شركاء لله .

والحال أنهم لا يملكون لهم رزقا من السموات والأرض .
فلا ينزلون مطرا ، ولا رزقا ، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئا ،
ولا يملكون مثقال ذرة في السموات والأرض ، ولا يستطيعون لو أرادوا .
فإن غير المالك للشيء ، ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به .
وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرُونَ .

فهذه صفة آلهتهم كيف جعلوها مع الله ، وشبهوها بملك الأرض
والسموات ، الذي له الملك كله ، والحمد كله ، والقوة كلها !!؟ .

ولهذا قال : [فلا تضربوا لله الأمثال] المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه .
[إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون] فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم ، وأن
نسمع ما ضربه العليم من الأمثال ، فلهذا ضرب تعالى مثلين له ولمن يعبد
من دونه .

أحدهما عبد مملوك ، أى : رقيق لا يملك نفسه ، ولا يملك من المال
والدنيا شيئا .

والثانى حرٌّ غنيٌّ قد رزقه الله منه رزقا حسنا ، من جميع أصناف المال
وهو كريم محب للإحسان ، فهو ينفق منه سرا وجهراً ، هل يستوى هذا

عَبْدًا تَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ

وذاك؟! لا يستويان ، مع أنهما مخلوقان ، وغير محال استواؤهما .

فإذا كانا لا يستويان ، فكيف يستوى المخلوق والعبد ، الذى ليس له
ملك ولا قدرة ، ولا استطاعة . بل هو فقير من جميع الوجوه ، بالرب المالك
لجميع المالك ، القادر على كل شىء . !!؟ .

ولهذا حمد نفسه ، واختص بالحمد بأنواعه ، فقال : [الحمد لله] .

فكانه قيل : إذا كان الأمر كذلك فلمَ سوى المشركون آلهتهم
بالله؟ قال :

[بل أكثرهم لا يعلمون] فلو علموا حقيقة العلم ، لم يتجرأوا على
الشرك العظيم .

والمثل الثانى مثل [رجلين أحدهما أبكم] لا يسمع ولا ينطق [لا يقدر
على شىء] لا قليل ولا كثير [وهو كَلٌّ على مولاه] أى يخدمه مولاه ،
ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه ، فهو ناقص من كل وجه .

هل يستوى هو ، ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم [فأقواله
عدل ، وأفعاله مستقيمة] .

فكما أنهما لا يستويان ، فلا يستوى من عبد من دون الله ، وهو
لا يقدر على شىء من مصالحه .

لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كُلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ
بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ
إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

فلولا قيام الله بها ، لم يستطع شيئاً منها .

ولا يكون كفواً ، ولا ندأ ، لمن لا يقول إلا الحق ، ولا يفعل إلا ما
يحمد عليه .

* أى : هو تعالى المنفرد بغييب السموات والأرض .

فلا يعلم الخفايا والبواطن ، والأسرار ، إلا هو .

ومن ذلك ، علم الساعة ، فلا يدري أحد متى تأتى ، إلا الله .

فإذا جاءت وتجلت ، لم تكن « إلا كلمح البصر أو هو أقرب » من
ذلك فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ، وتنفوت الفرص
لمن يريد الإمهال .

[إن الله على كل شيء قدير] فلا يستغرب على قدرته الشاملة ،
إحياؤه للموتى .

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨)

* أى : هو المنفرد بهذه النعم حيث [أخرجكم من بطون أمهاتكم
لا تعلمون شيئا] ولا تقدرون على شيء ثم إنه [جعل لكم السمع
والأبصار والأفئدة] .

خص هذه الأعضاء الثلاثة ، لشرفها ، وفضلها ، ولأنها مفتاح
لكل علم .

فلا يصل للعبد علم ، إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة ، وإلا فسائر
الأعضاء ، والقوى الظاهرة والباطنة ، هو الذى أعطاهم إياها ، وجعل ينميها
فيهم ، شيئا فشيئا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللائقة به .

وذلك لأجل أن يشكروا الله ، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح ،
في طاعة الله .

فمن استعملها في غير ذلك ، كانت حجة عليه ، وقابل النعمة بأقبح
للعاملة .

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٧٩)
﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم
مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ

أى : لأنهم المنتفعون بآيات الله ، المتفكرون فيما جعلت آية عليه .
وأما غيرهم ، فإن نظرهم نظر كهُوَ ، وغفلة .
ووجه الآية فيها ، أن الله تعالى خلقها بخلقه تصلح للطيران .
ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف .

ثم أودع فيها من قوة الحركة ، وما قدرت به على ذلك .
وذلك دليل على حكمته ، وعلمه الواسع ، وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته
وكمال اقتداره ، تبارك الله رب العالمين .
يذكر تعالى عباده بنعمه ، ويستدعى منهم شكرها ، والاعتراف بها
فقال :

* [والله جعل لكم من بيوتكم سكناً] فى الدور والقصور ونحوها ،
تُكِنُّكُمْ من الحر والبرد ، وتستريحون ، أنتم وأولادكم ، وأمتعتكم ، وتتخذون
فيها الغرف والبيوت ، التى هى لأنواع منافعكم ومصالحكم ، وفيها حفظ
لأموالكم وحرمتكم ، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة .

[وجعل لكم من جلود الأنعام] إما من الجلد نفسه ، أو مما نبت عليه ،
من صوف وشعر ووبر .

وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ (٨٠)
وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا
وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ

[بيوتاً تستخفونها] أى : تجدونها خفيفة الحمل ، تكون لكم [يوم
ظعنكم ويوم إقامتكم] أى : فى السفر والمنازل ، التى لا قصد لكم فى استيطانها
فتقيكم من الحر ، والبرد ، والمطر ، وتقى متاعكم من المطر .

[و] جعل لكم [من أصوافها] أى : الأنعام [وأوبارها وأشعارها
أثناً] وهذا شامل لكل ما يتخذ منها ، من الآنية ، والأوعية ، والفرش ،
والألبة ، والأجلة ، وغير ذلك .

[ومتاعاً إلى حين] أى : تتمتعون بذلك فى هذه الدنيا ، وتنتفعون بها .
فهذا مما سخر الله العباد لصنعه وعمله .

[والله جعل لكم مما خلق] أى : من مخلوقاته التى لا صنعة لكم فيها .
[ظلالاً] وذلك ، كأظلة الأشجار ، والجبال ، والآكام ونحوها .

[وجعل لكم من الجبال أكناناً] أى : مغارات ، تكنكم من الحر
والبرد ، والأمطار ، والأعداء .

[وجعل لكم سراويل] أى : ألبة وثياباً [تقيكم الحر] .

ولم يذكر الله البرد ، لأنه قد تقدم أن هذه السورة ، أولها فى أصول
النعم ، وآخرها فى مكملاتها ومتمماتها .

ووقاية البرد ، من أصول النعم ، فإنه من الضرورة ، وقد ذكره
فى أولها فى قوله « لكم فيها دفء ومنافع » .

يَتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ الْبَيِّنُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمْ
الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

[وسراييل تقيم بآسكم] أى : وثيا با تقيم وقت البأس والحرب ،
من السلاح ، وذلك ، كالدرع ، والزرود ، ونحوها .
[كذلك يتم نعمته عليكم] حيث أسبغ عليكم من نعمه ، مالا يدخل
تحت الحصر .

[لعلكم] إذا ذكرتم نعمة الله ، ورأيتموها غامرة لكم من كل وجه
[تسلمون] لعظمته ، وتنقادون لأمره ، وتصرفونها فى طاعة موليا ومسديها .
فكثرة النعم ، من الأسباب الجالبة من العباد ، مزيد الشكر ، والثناء
بها على الله تعالى .

ولكن أبى الظالمون ، إلا تمردا وعنادا ، ولهذا قال الله عنهم :
[فإن تولوا] عن الله ، وعن طاعته ، بعد ما ذكروا بنعمه وآياته .
[فإنما عليك البلاغ البين] ليس عليك من هدايتهم ، وتوفيقهم شئ
بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير ، والإنذار والتحذير .
فإذا أدبت ما عليك ، فحسابهم على الله ، فإنهم يرون الإحسان ،
ويعرفون نعمة الله ، ولكنهم ينكرونها ويحجدونها .
[وأكثرهم الكافرون] لا خير فيهم ، وما ينفعهم توالى الآيات ،
لفساد مشاعرهم ، وسوء قصودهم ، سيرون جزاء الله لكل جبار عنيد ، كفور
للنعم ، متمرد على الله ، وعلى رسله .

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ
فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا

* يخبر تعالى ، عن حال هؤلاء الذين كفروا في يوم القيامة ، وأنه لا يقبل
لهم عذر ، ولا يرفع عنهم العقاب ، وأن شركاءهم تعتبر منهم ، ويقرون على
أنفسهم بالكفر والافتراء على الله ، فقال :

[ويوم نبعث من كل أمة شهيداً] يشهد عليهم بأعمالهم ، وماذا أجابوا
به الداعي إلى الهدى ، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله ، أزكى الشهداء
وأعدلهم ، وهم : الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم .

[ثم لا يؤذن للذين كفروا] في الاعتذار ، لأن اعتذارهم بعد ما علموا
يقيناً ، بطلان ما هم عليه ، اعتذار كاذب ، لا يفيدهم شيئاً .

وإن طلبوا أيضاً الرجوع إلى الدنيا ، ليستدرکوا ، لم يجابوا ،
ولم يعقبوا .

بل يبادرهم العذاب الشديد ، الذي ، لا يخفف عنهم من غير إنظار
ولا إمهال ، من حين يروونه ، لأنهم لا حسنات لهم ، وإنما تعد أعمالهم
وتحصى ، ويوقفون عليها ويقرون بها ، ويفتضحون

[وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم] يوم القيامة وعلموا بطلانها ،
ولم يمكنهم الإنكار .

شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ
دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ
يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾
﴿٨٨﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا
فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

[قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك] ليس عندها
نفع ولا شفيع .

فتوهوا بأنفسهم بيطلائها ، وكفروا بها ، وبدت البغضاء والعداوة
بينهم وبينها .

[فآلقوا إليهم القول] أى : ردت عليهم شركاؤهم قولهم ، فقالت لهم :
[إنكم لكاذبون] حيث جعلتمونا شركاء لله ، وعبدتمونا معه ، فلم
نأمركم بذلك ، ولا زعمنا أن فينا استحقاقا للالوهية ، فاللوم عليكم .
فحينئذ ، استسلموا لله ، وخضعوا لحكمه ، وعلموا أنهم مستحقون
للعذاب .

[وضل عنهم ما كانوا يفترون] فدخلوا النار ، وقد امتلأت قلوبهم
من مقت أنفسهم ، ومن حمد ربهم ، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا .

* يذكر الله تعالى في هذه الآية عاقبة المجرمين حيث كفروا بأنفسهم ،
وكذبوا بآيات الله ، وحاربوا رسله ، وصدوا الناس عن سبيل الله ،
وصاروا دعاة إلى الضلال ، فاستحقوا مضاعفة العذاب ، كاتضاعف جرمهم ،
وكأفسدوا في أرض الله .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ
وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا
لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

* لما ذكر فيما تقدم ، أنه يبعث [في كل أمة شهيدا] ذكر ذلك أيضا هنا ، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال :
[وجئنا بك شهيدا على هؤلاء] أى : على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر .

وهذا من كمال عدل الله تعالى ، أن كل رسول يشهد على أمته ، لأنه أعظم اطلاعا من غيره ، على أعمال أمته ، وأعدل ، وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون .

وهذا كقوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

وقال تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض .

وقوله [ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء] في أصول الدين وفروعه ، وفي أحكام الدارين ، وكل ما يحتاج إليه العباد ، فهو مبين فيه ، أتم تبين ، بالفاظ واضحة ، ومعان جلية .

حتى إنه تعالى يثنى فيه الأمور الكبار ، التي يحتاج القلب لمرورها عليه

كل وقت ، وإعادتها في كل ساعة ، ويعيدها ، ويبيدها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة ، لتستقر في القلوب فتشمر من الخير والبر ، بحسب ثبوتها في القلب .
وحق إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح ، معاني كثيرة ، يكون اللفظ لها ، كالقاعدة والأساس .

واعتبر هذا ، بالآية التي بعد هذه الآية ، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي ، التي لا تحصى .

فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء ، صار حجة الله على العباد كلهم .
فانقطعت به حجة الظالمين ، وانتفع به المسلمون ، فصار هدى لهم ، يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم ، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة .
فالهدى ، ما نالوا به ، من علم نافع ، وعمل صالح .

والرحمة ، ما ترتب على ذلك ، من ثواب الدنيا والآخرة ، كصلاح القلب وبره ، وطمانينته .

وتمام العقل ، الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه ، التي هي أجل المعاني وأعلاها ، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة ، والرزق الواسع ، والنصر على الأعداء بالقول والفعل ، ونيل رضا الله تعالى ، وكرامته العظيمة ، التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم ، إلا الرب الرحيم .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَائِي ذِي الْقُرْبَىٰ﴾

* فالعدل الذى أمر الله به ، يشمل العدل فى حقه ، وفى حق عباده .

فالعدل فى ذلك ، أداء الحقوق كاملة موفورة ، بأن يؤدى العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية ، والمركبة منهما ، فى حقه ، وحق عباده .

ويعامل الخلق بالعدل التام ، فيؤدى كل وال ، ما عليه ، تحت ولايته ، سواء فى ذلك ولاية الإمامة الكبرى ، وولاية القضاء ، ونواب الخليفة ، ونواب القاضى .

والعدل هو : ما فرضه الله عليهم فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وأمرهم بسلوكه .

ومن العدل فى المعاملات ، أن تعاملهم فى عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات ، بإيفاء جميع ما عليك ، فلا تبخس لهم حقاً ، ولا تغشهم ، ولا تخدعهم وتظلمهم .

فالعدل واجب ، والإحسان فضيلة مستحبة ، وذلك كمنفع الناس ، بالمال والبدن ، والعلم ، وغير ذلك من أنواع النفع ، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول ، وغيره .

وخص الله إيتاء ذوى القربى — وإن كان داخلاً فى العموم — لتأكيد حقهم ، وتعين صلتهم وبرهم ، والحرص على ذلك .

ويدخل فى ذلك ، جميع الأقارب ، قريبتهم ، وبعيدهم ، لكن كل من كان أقرب ، كان أحق بالبر .

وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

وقوله [وينهى عن الفحشاء] وهو : كل ذنب عظيم ، استغفشته الشرائع والفطر ، كالشرك بالله ، والقتل بغير حق ، والزنا ، والسرقة ، والعجب ، والكبر ، واحتقار الخلق ، وغير ذلك من الفواحش . ويدخل فى المنكر ، كل ذنب ومعصية ، تتعلق بحق الله تعالى . وبالبغى ، كل عدوان على الخلق ، فى الدماء ، والأموال ، والأعراض . فصارت هذه الآية ، جامعة لجميع المأمورات والمنهيات ، لم يبق شيء ، إلا دخل فيها .

فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات . فكل مسألة مشتملة على عدل ، أو إحسان ، أو إيتاء ذى القربى ، فهي مما أمر الله به . وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر ، أو بغي ، فهي مما نهى الله عنه .

وبها يعلم حسن ما أمر الله به ، وقبح ما نهى عنه . وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال ، وترد إليها سائر الأحوال . فتبارك من جعل من كلامه ، الهدى ، والشفاء ، والنور ، والفرقان بين جميع الأشياء .

ولهذا قال : [يعظكم] أى : بما بينه لكم فى كتابه ، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم ، عما فيه مضرته .

[لعلكم تذكرون] ما يعظكم به ، فتفهمونه وتعقلونه .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ

فإنكم إذا تذكروا وعقلتموه ، علمتم بمقتضاه ، فسعدتم سعادة
لا شقاوة معها .

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع ، أمر بوفاء ما أوجبه العبد
على نفسه فقال « وأوفوا بعهد الله » إلى قوله « فيه تختلفون » .

* هذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه ، من العبادات ، والنذور ،
وَالْأَيْمَانَ التي عقدها ، إذا كان بها براً .

ويشتمل أيضا ، ما تعاقد عليه هو وغيره ، كالعهود بين المتعاقدين ،
وكانوا وعد الذي بعده العبد لغيره ، ويؤكد على نفسه .

فعليه في جميع ذلك ، الوفاء وتتميمها مع القدرة .

ولهذا نهى الله عن نقضها فقال : [ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها]
بعقدها على اسم الله تعالى [وقد جعلتم الله عليكم] أيها المتعاقدون
[كفيلًا] .

فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلًا ، فيكون في
ذلك ترك تعظيم الله ، واستهانة به ، وقد رضى الآخر منك باليمين ، والتوكيد
الذي جعلت الله فيه كفيلًا .

فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك ، فلتف له بما قلته وأكده .

[إن الله يعلم ما تفعلون] فيجازى كل عامل بعمله ، على حسب نيته
ومقصده .

أَنْكُثَّا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا يَبْنِيكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ

[ولا تكونوا] في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدناها على صفة متعاطيها .

وذلك [كالتى] تغزل غزلاً قوياً ، فإذا استحکم ، وتم ما أريد منه [نقضت غزلها من بعد قوة] فجعلته [أنكثاً] ففتعت على الغزل ، ثم على النقص ، ولم تستند سوى الخيبة والعناء ، وسفاهة العقل ، ونقص الرأى .

كذلك من نقض ما عاهد عليه ، فهو ظالم جاهل سفيه ، ناقص الدين والبروة .

وقوله : [تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة] .

أى : لا تتبعى هذه الحالة منكم ، تعقدون الأيمان المؤكدة ، وتنتظرون فيها الفرص .

فإذا كان العاقد لها ضعيفاً ، غير قادر على الآخر ، أتمها ، لا تمتعهم العقد واليمين ، بل لعجزه .

وإن كان قوياً ، يرى مصلحته الدنيوية فى نقضها ، نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه .

كل ذلك دورانا مع أهوية النفوس ، وتقديمها على مراد الله منكم ، وعلى البروة الإنسانية ، والأخلاق المرضية لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى .

أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ
يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْتَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

وهذا [إنما يبلوكم الله به] امتحانا حيث قبض لعباده من أسباب المحن
ما يمتحن به الصادق الوفي ، من الفاجر الشقي .

[وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون] فيجازي كلا بعمله ،
ويخزي الفادر .

* أي : [لو شاء الله] لجمع الناس على الهدى ، و [لجعلهم أمة
واحدة] .

ولكنه تعالى ، المنفرد بالهداية والإضلال — وهدايته وإضلاله ، من
أفعاله التابعة لعلمه وحكمته .

يعطى الهداية ، من يستحقها ، فضلا ، ويتمنها من لا يستحقها ، عدلا
[ولتسألن عما كنتم تعملون] من خير وشر ، فيجازيكم عليها ، أتم
الجزاء ، وأعدله .

﴿٩٤﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ قَدَمٌ
بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

﴿٩٥﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ

* أى : [ولا تتخذوا أيمانكم] وعهودكم ومواثيقكم [دخلا بينكم]
أى : تبعاً لأهوائكم ، متى شئتم وفيتم بها ، ومتى شئتم نقضتموها .
فإنكم إذا فعلتم ذلك ، تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم .
[وتذوقوا السوء] أى : العذاب الذى يسوءكم ويحزنكم [بما صددم
عن سبيل الله] حيث ضللتكم ، وأضلتم غيركم [ولكم عذاب عظيم]
مضاعف .

* يحذر تعالى عباده ، من نقض العهود ، والأيمان لأجل متاع الدنيا
وحطامها فقال :

[ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا] تناولونه بالنقض وعدم الوفاء .
[إنما عند الله] من الثواب العاجل والآجل ، لمن آثر رضاه ، وأوفى
بما عاهد عليه الله [هو خير لكم] من حطام الدنيا الزائلة [إن كنتم
تعلمون] .

فآثروا ما يبقى على ما يفنى ، فإن [ما عندكم] ولو كثر جداً ، لا بد أن
[ينفد] ويفنى .

[وما عند الله باق] ببقائه ، لا يفنى ولا يزول .

بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

فليس ساقِل ، من آثر القافى الحسيس ، على الباقى النفيس ، وهذا
كقوله تعالى :

« بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى * وما عند الله
خير للأبرار . »

وفى هذا ، الحث والترغيب على الزهد فى الدنيا .

خصوصاً ، الزهد المتعين ، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد ،
ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه ، وتقديمه على حق الله ، فإن
هذا الزهد واجب .

ومن الدواعى للزهد ، أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بنجرات
الآخرة .

فإنه يجد من الفرق والتفاوت ، ما يدعوه إلى إيثار أعلى الأمور .
وليس الزهد الممدوح ، هو الانقطاع للعبادات القاصرة ، كالصلاة ،
والصيام ، والذكر ونحوها .

بل لا يكون العبد زاهداً ، زهداً صحيحاً ، حتى يقوم بما يقدر عليه ،
من الأوامر الشرعية ، الظاهرة والباطنة ، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه
بالتقول والفعل .

فالزهد الحقيقى ، هو : الزهد فيما لا ينفع فى الدين والدنيا ، والرغبة
والسعى ، فى كل ما ينفع .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

[ولنجزين الذين صبروا] على طاعة الله ، وعن معصيته ، وفطموا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية ، المضرة بدينهم [أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون] الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة ، فقال :

[من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن] فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها ، بل لا تسمى أعمالاً صالحة ، إلا بالإيمان ، والإيمان مقتضى لها ، فإنه : التصديق الجازم ، الثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات .

فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح [فلنحيينه حياة طيبة] وذلك بطمأنينة قلبه ، وسكون نفسه ، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه ، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً ، من حيث لا يحتسب .

[ولنجزينهم] في الآخرة .

[أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون] من أصناف اللذات ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

فيؤتيه الله في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة .

﴿٩٨﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ ﴿٩٩﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

* أى : فإذا أردت القراءة لكتاب الله ، الذى هو أشرف الكتب
وأجلها ، وفيه صلاح القلوب ، والعلوم الكثيرة ، فإن الشيطان أحرص
ما يكون على العبد ، عند شروعه فى الأمور الفاضلة ، فيسعى فى صرفه عن
مقاصدها ومعانيها .

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله ، والاستعاذة من شره .
فيقول القارىء ، « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » متدبراً لمعناها ،
معتمداً بقلبه على الله ، فى صرفه عنه ، مجتهداً فى دفع وسواسه وأفكاره
الرديئة ، مجتهداً على السبب الأقوى فى دفعه ، وهو : التَّحَلُّى بِحَلِيَةِ الْإِيمَانِ
والتوكل .

فإن الشيطان [ليس له سلطان] أى : تسلط [على الذين آمنوا وعلى
رَبِّهِمْ] وحده لا شريك له [يتوكلون] ، فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين
عليه ، شر الشيطان ، ولا يبقى له عليهم ، سبيل .
[إِنَّمَا سُلْطَانُهُ] أى تسلطه [على الذين يتولونه] أى : يجعلونه لهم ولها .
وذلك بتخليهم عن ولاية الله ، ودخولهم فى طاعة الشيطان ،
وانضمامهم لحزبه .

فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم ، فأزَّهم إلى المعاصى أزاً ، وقادهم
إلى النار قَوْداً .

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ
قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ
رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

* يذكّر تعالى ، أن المكذّبين بهذا القرآن ، يتبعون ما يرونه حجة لهم .
وهو : أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم ، الذى يشرع الأحكام ،
ويبدل حكماً مكان آخر ، لحكمته ورحمته .

فإذا رأوه كذلك ، قدحوا فى الرسول ، وبما جاء به ، و [قالوا إنما
أنت مفتر] .

قال الله تعالى : [بل أكثرهم لا يعلمون] منهم جهال ، لا علم لهم بربهم
ولا بشره .

ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم ، لا عبرة به ، فإن القدح فى الشئ
فرع عن العلم به ، وما يشتمل عليه ، مما يوجب المدح والقدح .

ولهذا ذكر تعالى حكمته فى ذلك فقال : [قل نزله روح القدس] وهو
جبريل الرسول ، المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة .

[من ربك بالحق] أى : نزوله من عند الله بالحق ، وهو مشتمل على
الحق ، فى أخباره ، وأوامره ، ونواهيه ، فلا سبيل لأحد أن يقدح فيه

قدحاً صحيحاً ، لأنه إذا علم أنه الحق ، علم أن ما عارضه وناقضه ، باطل .
[ليثبت الذين آمنوا] عند نزول آياته وتواردها عليهم ، وقتاً

بعد وقت .

فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئاً فشيئاً ، حتى يكون إيمانهم ،
أثبت من الجبال الرواسي .
وأيضاً ، فإنهم يعلمون أنه الحق .

وإذا شرع حكماً من الأحكام ، ثم نسخه ، علموا أنه أبده ، بما هو
مثله ، أو خير منه لهم ، وأن نسخه ، هو : المناسب للحكمة الربانية ، والمناسبة
العقلية .

[وهدى وبشرى للمسلمين] أى : يهديهم إلى حقائق الأشياء ، ويبين
لهم الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، ويشرهم أن لهم أجراً حسناً ،
ما كثر فيه أبداً .

وأبضاً ، فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً ، كان أعظم هداية وبشارة لهم ، مما لو
أتاهم جملة واحدة ، وتفرق الفكر فيه ، بل ينزل الله حكماً وبشارة ، أكثر .
فإذا فهموه وعقلوه ، وعرفوا المراد منه ، وترووا منه ، أنزل نظيره
وهكذا .

ولذلك بلغ الصعابة رضى الله عنهم به مبلغاً عظيماً ، وتغيرت أخلاقهم
وطبائعهم ، وانتقلوا إلى أخلاق ، وعوائد ، وأعمال ، فاقوا بها الأولين
والآخرين .

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم ، أن يتربوا بعلومه ، ويتخلقوا بأخلاقه ،
ويستضيئوا بنوره فى ظلمات النى والجهالات ، ويعملوه إمامهم فى جميع
الحالات .

فبذلك ، تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية .

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ
الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾
إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ

* يخبر تعالى ، عن قيل^(١) المشركين المكذبين لرسوله [أنهم يقولون
إنما يعلمه] هذا الكتاب ، الذى جاء به [بشر] .

وذلك البشر ، الذى يشيرون إليه أعجمى اللسان [وهذا] القرآن
[لسان عربى مبين] ، هل هذا القول ممكن ؟ أو له حظ من الاحتمال ؟

ولكن الكاذب ، يكذب ، ولا يفكر فيما يثول إليه كذبه .

فيكون فى قوله من التناقض والفساد ، ما يوجب رده ، بمجرد
تصوره .

[إن الذين لا يؤمنون بآيات الله] الدالة دلالة صريحة على الحق المبين ،
فيردونها ولا يقبلونها .

[لا يهديهم الله] حيث جاءهم الهدى ، فردوه ، فعوقبوا بجرمانه ،
وخذلان الله لهم .

[ولهم] فى الآخرة [عذاب أليم] .

(١) قيل . أى : « قول » ولو عبر بهذه لكان أحسن وأوضح

أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقُلُوبُهُ
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُمْ
غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أَسْتَحَبُّوا

[إنما يفتري الكذب] أى : إنما يصدر افتراء الكذب ، من
[الذين لا يؤمنون بآيات الله] كالمعاندين لرسوله ، من بعد ما جاءتهم
البينات .

[وأولئك هم الكاذبون] أى : الكذب منحصر فيهم ، وعليهم
أولى بأن يطلق من غيرهم .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم ، المؤمن بآيات الله ، الخاضع لربه ، فعال
أن يكذب على الله ، ويقول عليه ما لم يقل .

فأعداؤه رموه بالكذب ، الذى هو وصفهم فأظهر الله خزيهم ، وبين
فضائحهم ، فله تعالى الحمد .

* يخبر تعالى عن شناعة حال [من كفر بالله من بعد إيمانه] فعصى بعد
ما أبصر ، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى ، وشرح صدره بالكفر ،
راضياً به ، مطمئناً ، أن لهم الغضب الشديد ، من الرب الرحيم ، الذى إذا
غضب ، لم يقم لغضبه شيء ، وغضب عليهم كل شيء .

[ولهم عذاب عظيم] أى : فى غاية الشدة ، مع أنه دائم أبداً .

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾
أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

و [ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة] حيث ارتدوا على
أدبارهم ، طمعاً في شيء من حطام الدنيا ، ورغبة فيه ، وزهداً في خير
الآخرة .

فلما اختاروا الكفر على الإيمان ، منعمهم الله الهداية ، فلم يهدمهم ،
لأن الكفر وصفهم .
فطبع على قلوبهم ، فلا يدخلها خير ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم ،
فلا ينفذ منها ما ينفعهم ، ويصل إلى قلوبهم .
فشملتهم الغفلة ، وأحاط بهم الخذلان ، وحرموا رحمة الله ، التي
وسعت كل شيء .

وذلك أنها أتتهم ، فردوها ، وعرضت عليهم ، فلم يقبلوها .
[لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون] الذين خسروا أنفسهم
وأموالهم وأهلهم يوم القيامة ، وفاتهم النعيم المقيم ، وحصلوا على العذاب
الآليم .

وهذا بخلاف من أكره على الكفر ، وأجبر عليه ، وقلبه مطمئن
بالإيمان ؛ راغب فيه فإنه لا حرج عليه ولا إثم ، ويجوز له النطق بكلمة
الكفر ، عند الإكراه عليها .

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٠) يَوْمَ

ودل ذلك ، على أن كلام المكروه على الطلاق ، أو العتاق ، أو البيع ، أو الشراء ، أو سائر العقود ، أنه لا عبرة به ، ولا يترتب عليه حكم شرعى . لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر ، إذا أكره عليها ، فغيرها من باب أولى وأحرى .

* أى : ثم إن ربك ، الذى ربي عباده المخلصين بلغفه وإحسانه ، لغفور رحيم ، لمن هاجر فى سبيله ، وخلق^(١) دياره وأمواله ، طالبا لمرضاة الله ، وفُتِنَ على دينه ، ليرجع إلى الكفر ، فثبت على الإيمان ، وتخلص ما معه من اليقين .

ثم جاهد أعداء الله ، ليدخلهم فى دين الله ، بلسانه ، ويده ، وصبر على هذه العبادات الشاقة ، على أكثر الناس .

فهذه أكبر الأسباب ، التى ينال بها أعظم العطايا ، وأفضل المواعب ، وهى مغفرة الله للذنوب ، صفارها ، وكبارها ، لتتضمن ذلك ، زوال كل أمر مكروه .

(١) خلق أى : ترك وطنه ومسقط رأسه وقصد أرضاً يتمكن فيها من إقامة شرائع دينه والدعوة إليه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مستظلاً بحكم حاكم مسلم لا يقف عقبة فى سبيل الدعاة إلى الله .

تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

ورحمته^(١) العظيمة التي بها صلت أحوالهم واستقامت أمور دينهم
ودنياهم .

فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة .

[يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها] كُلُّ يَقُولُ نَفْسِي ، لَا يَهْمُهُ
سِوَى نَفْسِهِ .

ففي ذلك اليوم ، يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير .

[وتوفي كل نفس ما عملت] من خير وشر [وهم لا يظلمون] فلا يزداد
في سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم [« فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون
إلا ما كنتم تعملون »]

(١) ورحمته . معطوف على قوله « مغفرة الله » أي : ينال مغفرة

الله ورحمته الخ .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ
فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ
ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

وهذه القرية هي : مكة المشرفة ، التي كانت آمنة مطمئنة ، لا يهاج ،
فيها أحد ، وتحترمها الجاهلية الجهلاء حتى إن أحدهم ، يجد فيها قاتل أبيه
وأخيه ، فلا يهيجه ^(١) مع شدة الحمية فيهم ، والنصرة ^(٢) العربية فحصل لها
في مكة ، من الأمن القام ، ما لم يحصل في سواها وكذلك الرزق الواسع .
كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر ، ولكن يسر الله لها الرزق ،
يأتيها من كل مكان .

فجاءهم رسول منهم ، يعرفون أمانته وصدقه ، يدعوهم إلى أكمل الأمور ،
وينهاهم عن الأمور السيئة .

فكذبوه ، وكفروا بنعمة الله عليهم ، فأذاقهم الله ، ضدا ما كانوا فيه ،
والبسهم لباس الجوع ، الذي هو ضد الرغد ، والخوف ، الذي هو ضد
الأمن ، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم ، وعدم شكرهم « وما ظلمهم الله
ولكن كانوا أنفُسهم يظلمون » .

(١) لا يهيجه . أى : لا يزعجه ولا يشيره .

(٢) النصرة : بضم النون وفتح العين : الكبر والخيلاء . اهـ . القاموس

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا
نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ

* يأمر تعالى عباده ، بأكل ما رزقهم الله ، من الحيوانات ، والحبوب ،
والثمار ، وغيرها .

[حلالات طيبات] أى : حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون
مما حرم الله ، أو أثراً من غصب ونحوه .

فتمتعوا بما خلق الله لكم ، من غير إسراف ، ولا تعدد .

[واشكروا نعمة الله] بالاعتراف بها ، بالقلب ، والثناء على الله بها ،
وصرفها فى طاعة الله .

[إن كنتم إياه تعبدون] أى إن كنتم مخلصين له العبادة ، فلا تشكروا
إلا إياه ، ولا تنسوا النعم .

[إنما حرم عليكم] الأشياء المضرّة ، تنزيهاً لكم .

ومن ذلك : [الميتة] ويدخل فى ذلك كل ما كان موته على غير
ذكاة^(١) مشروعة .

(١) ذكاة بالذال . أى : الذبح الشرعى ولا يتحقق الذبح الشرعى
إلا بقطع الودجين وهما : العرقان الموجودان على يمين العنق وعلى يساره .

غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا
تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا
عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

ويستثنى منه ، ميتة الجراد والسمك ، والدم المسفوح ^(١) ، وأما ما يبقى
في العروق واللحم فلا يضر .

[ولحم الخنزير] لقذارته وخبثه ، وذلك شامل للحم وشحمه ، وجميع
أجزائه .

[وما أهل لغير الله به] كالذى يذبح للأصنام والقبور ونحوها ، لأنه
مقصود به الشرك .

[فمن اضطر] إلى شيء من المحرمات — بأن حملته الضرورة ، وخاف
إن لم يأكل أن يهلك — فلا جناح عليه إذا كان غير باغ ولا عاد] .

أى : إذا لم يردأ كل المحرم ، وهو غير مضطر ، ولا متعد الحلال
إلى الحرام ، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة .

(١) فى الأصل المطبوع « والدم المسفوح » وهو خطأ واضح (ولم يقل
أحد أن الدم المسفوح حلال أبداً بل هو محرم بنص القرآن القائل « قل لا
أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم على يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً
مسفوحاً أو لحم خنزير الآية) والدم الحلال أكله هو الكبد والطحال كما
قال النبي صلى الله عليه والسلام « أحلت لكم ميتتان ودمان ، السمك
والجراد والكبد والطحال » فالعبارة كما ترى قلقة وأمارات التحريف
من الناسخ ظاهرة .

لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

فهذا الذي ^(١) حرمه الله من المباحات .

[ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام]
أى : لا تحرموا وتحملوا من تلقاء أنفسكم ، كذبا ، وافتراء على الله وتقولوا عليه .

[لغفرتوا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون] لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة .

ولا بد أن يظهر الله خزيهم ، وإن تمتعوا فى الدنيا ، فإنه [متاع قليل] وممتهرهم إلى النار [ولهم عذاب أليم] .

فإن الله تعالى ما حرم علينا إلا الخبيثات ، تفضلا منه ، وصيانة عن كل مستقذر .

وأما الذين هادوا ^(٢) حرم الله عليهم طبيعات أكلت لهم بسبب ظلمهم عتوبة لهم ، كما قصه فى سورة الأنعام فى قوله « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البطر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » .

(١) قوله « فهذا الذى حرمه الله الخ » خطأ واضح والصواب « فهذا الذى أباحه الله من الحرمات » .

(٢) الذين هادوا . أى : اليهود .

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ (١١٩)

﴿ثُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنْ

* وهذا حصُّ منه لعباده على التوبة ، ودعوة لهم إلى الإنابة .

فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة ، بعاقبة ما تجنى عليه ، ولو كان متعمداً
للذنب ، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم ، وقت مقارفة الذنب .
فإذا تاب وأصلح ، بأن ترك الذنب وندم عليه وأصلح أعماله ، فإن
الله يغفر له ويرحمه ، ويتقبل توبته ، ويعيده إلى حالته الأولى ، أو
أعلى منها .

* يخبر تعالى ، عما فضل به خليله ، عليه الصلاة والسلام ، وخصه به من
الفضائل العالية والمناقب الكاملة ، فقال :

[إن إبراهيم كان أمة] أي : إماماً ، جامعاً لخصال الخير ، هادياً
مهتدياً .

[قانتاً لله] أي : مديماً لطاعة ربه ، مخلصاً له الدين .

[حنيفاً] مقبلاً على الله ، بالمحبة ، والإنابة ، والعبودية ، معرضاً
عن سواه .

[ولم يك من المشركين] في قوله وعمله ، وجميع أحواله ، لأنه إمام
الموحدين الخفاء .

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ
الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

[شاكرًا لأنعمه] أى : آناه الله فى الدنيا حسنة ، وأنعم عليه بنعم ،
ظاهرة وباطنة ، فقام بشكرها .

فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن [اجتباه ربه] ، واختصه بخلته ،
وجعله من صفوة خلقه ، وخيار عباده المقربين .

[وهداه إلى صراط مستقيم] فى علمه وعمله ، فعلم ^(١) بالحق ، وآثره
على غيره .

[وآتيناه فى الدنيا حسنة] رزقا واسعا ، وزوجة حسناء ، وذرية
صالحين ، وأخلاقا مرضية .

[وإياه فى الآخرة لمن الصالحين] الذين لهم المنازل العالية ، والقرب
العظيم من الله تعالى .

ومن أعظم فضائله ، أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم ، أن يتبع ملة
إبراهيم ، ويقتدى به ، هو ، وأمته .

(١) كذا فى الأصل ولعل الصواب « فعل » والله أعلم .

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٢٤) ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾

* يقول تعالى : [إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ] أى : فرضا [على الذين اختلفوا فيه] حين ضلوا عن يوم الجمعة ، وهم اليهود ، فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه ، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة ، الذى هدى الله هذه الأمة إليه .

[وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون] فيبين لهم الحق من المبطل ، والمستحق للثواب ، ممن استحق العذاب .

* أى : ليكن دعاؤك للخلق ، مسلمهم وكافرهم ، إلى سبيل ربك المستقيم ، ليشتمل على العلم النافع ، والعمل الصالح .

[بالحكمة] أى : كل أحد على حسب حاله وفهمه ، وقبوله وانقياده . ومن الحكمة ، الدعوة بالعلم ، لا بالجهل ، وَالْبِدْأَةُ بِالْأَهَمِّ فالأهم ، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم ، وبما يكون قبوله أتم ، وبالرفق واللين . فإن اتقاد بالحكمة ، وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة ، وهو ، الأمر ، والنهى المقرون بالترغيب والترهيب .

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها ، والنواهي من المضار وتعدادها .

وإما بذكر إكرام من قام بدين الله ، وإهانة من لم يقم به .

وَجَدِلْهُمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ
وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

وإما بذكر ما أعد الله للطائمين ، من الثواب العاجل والآجل ، وما
أعد للعاصين من العقاب العاجل والآجل .

فإن كان المدعو ، يرى أن ما هو عليه حق ، أو كان داعيه إلى الباطل ،
فيجادل بالتى هى أحسن ، وهى الطرق التى تكون أدعى لاستجابته
عقلا ونفلا .

ومن ذلك ، الاحتجاج عليه بالأدلة التى كان يعتقددها ، فإنه أقرب
إلى حصول المقصود ، وأن لا تؤدى المجادلة إلى خصام أو مشاتمة ، تذهب
بمقصودها ، ولا تحصل الفائدة منها ، بل يكون القصد منها هداية الخلق
إلى الحق لا المغالبة ونحوها .

وقوله : [إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله] أى : أعلم بالسبب ،
الذى أداه إلى الضلال ، ويعلم أعماله المترتبة على ضلالته ، وسيجازيه عليها .
[وهو أعلم بالمهتدين] علم أنهم يصلحون للهداية ، فهداهم ، ثم منَّ
عليهم فاجتباهم .

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِقْتُمْ بِهِ وَلَنْ صَبَرْتُمْ
لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ يُحْسِنُونَ﴾ (١٢٨)

* يقول تعالى — مبيحاً للعدل ، ونادباً للفضل والإحسان — :

[وَإِنْ عَاقَبْتُمْ] من أساء إليكم بالقول والفعل [فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ
مَا عُوِقْتُمْ بِهِ] من غير زيادة منكم ، على ما أجراه معكم .

[وَلَنْ صَبَرْتُمْ] عن العقابة ، وعفوتهم عن جرمهم [لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ]
من الاستيفاء ، وما عند الله ، خير لكم ، وأحسن عقابة كما قال تعالى :
« فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » .

ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله ، والاستعانة بالله على
ذلك ، وعدم الاتكال على النفس فقال :

[وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ] هو الذى يعينك عليه ويثبتك .

[وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ] إذا دعوتهم ، فلم تر منهم قبولاً لدعوتك ، فإن
الحزن لا يجدى عليك شيئاً .

[وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ] أى شدة وحرَج [مِمَّا يَمْكُرُونَ] فإن مكروهم عائد
إليهم ، وأنت من المتقين الحسنيين .

.

والله مع المتقين المحسنين ، بمعونه ، وتوفيقة ، وتسديده ، وهم الذين
اتقوا الكفر والمعاصي ، وأحسنوا في عبادة الله ، بأن عبدوا الله ، كأنهم
يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه ، فإنه يراهم .

والإحسان إلى الخلق ببذل النفع لهم من كل وجه .

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين .

تم تفسير سورة النحل — والله الحمد والمنة

تفسير

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

* ينزه تعالى نفسه المقدسة ، ويعظمها لأن له الأفعال العظيمة والمثلن الجسيمة ،
التي من جملتها أنه [أسرى بعبدہ] ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، [ليلا
من المسجد الحرام] الذي هو أجل المساجد على الإطلاق [إلى المسجد الأقصى]
الذي هو من المساجد الفاضلة ، وهو محل الأنبياء .

فَأَسْرَىٰ بِهِ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَىٰ مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ جَدًّا ، وَرَجَعَ فِي لَيْلَتِهِ .
وأراه الله من آياته ، ما ازداد به هدى وبصيرة ، ومباتا ، وفرقانا .
وهذا من اعتنائه تعالى به ، ولطفه ، حيث يسره لليسرى ، في جميع
أموره ، وخوِّله نما ، فاق بها الأولين والآخرين .
وظاهر الآية ، أن الإسراء كان في أول الليل ، وأنه من نفس المسجد
الحرام .

لكن ثبت في الصحيح ، أنه أُسْرِيَ بِهِ مِنْ بَيْتِ أُمِّ هَانِئٍ .
فعلى هذا ، تكون الفضيلة في المسجد الحرام ، لسائر الحرم .

إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

فكله تضاعف فيه العبادة ، كتضاعفها في نفس المسجد .
وأن الإسراء ، بروحه ، وجسده معاً ، وإلا لم يكن في ذلك آية
كبرى ، ومنقبة عظيمة .
وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في الإسراء ،
وذكر تفاصيل ما رأى ، وأنه أسرى به إلى بيت المقدس ، ثم عرج به
من هناك ، إلى السموات ، حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى ، ورأى
الجنة والنار ، والأنبياء على مراتبهم ، وفرض عليه الصلوات خمسين .
ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم ، حتى صارت خمسين الفعل ،
وخمسين في الأجر والثواب .
وحاز من المفاخر تلك الليلة ، هو وأمته ، مالا يعلم مقداره إلا الله
عز وجل .
وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن ، ومقام التحدى بصفة العبودية ،
لأنه نال هذه المقامات الكبار ، بتكميله لعبودية ربه .
وقوله : [الذى باركنا حوله] أى : بكثرة الأشجار والأنهار ،
والخصب الدائم .
ومن بركته ، تفضيله على غيره من المساجد ، سوى المسجد الحرام ،
ومسجد المدينة .
وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه ، وأن الله اختصه
محلا ، لكثير من أنبيائه وأصفياه

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ
أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ
كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ

* كثيراً ما يقرن البارى بين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ونبوة موسى صلى الله عليه وسلم ، وبين كتابيهما وشريعتيهما ، لأن كتابيهما أفضل الكتب ، وشريعتيهما أكمل الشرائع ، ونبوتيهما أعلى النبوات ، وأتباعهما أكثر المؤمنين .

ولهذا قال هنا : [وآتيناه موسى الكتاب] الذى هو التوراة [وجعلناه هدى لبني إسرائيل] يهتدون به فى ظلمات الجهل إلى العلم بالحق .

[ألا تتخذوا من دونى وكيلا] أى : وقلنا لهم ذلك ، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك ، ليعبدوا الله وحده ، وينبوا إليه ، ويتخذوه وحده ، وكيلا ومدبراً لهم ، فى أمر دينهم ودنياهم ، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئاً ، ولا ينفعونهم بشىء .

[ذرية من حملنا مع نوح] أى : يا ذرية من مننا عليهم ، وحملناهم مع نوح .

[إنه كان عبداً شكوراً] ففيه التنويه بالثناء على نوح ، عليه السلام ، بقيامه بشكر الله ، واتصافه بذلك ، والحث لذريته ، أن يقتدوا به فى شكره ويتابعوه عليه ، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم ، إذ أبقاهم واستخلفهم فى الأرض ، وأغرق غيرهم .

[وقضينا إلى بنى إسرائيل] أى تقدمنا وعهدنا إليهم ، وأخبرناهم

لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوجًا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهَا لَكُمْ الْكُرَّةَ

في كتابهم ، أنهم لابد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي والبطر لنعم الله ، والعلو في الأرض والتكبر فيها ، وأنه إذا وقع واحدة منهما ، سلط الله عليهم الأعداء ، وانتقم منهم ، وهذا تحذير لهم وإنذار ، لعلهم يرجعون فيتذكرون .

[فإذا جاء وعد أولاهما] أى : أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما .

أى : إذا وقع منهم ذلك الفساد [بعثنا عليكم] بعثنا قدربا ، وسلطنا عليكم تسليطا كونيا جزائيا [عباداً لنا أولى بأس شديد] أى : ذوى شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم ، فقتلوكم وسبوا أولادكم ، ونهبوا أموالكم .

[فجاسوا خلال الديار] وهتكوا الدور ، ودخلوا المسجد الحرام ، وأفسدوه .

[وكان وعداً مفعولاً] لابد من وقوعه ، لوجود سببه منهم .

واختلف المفسرون ، في تعيين هؤلاء المصلطين ، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار .

إما من أهل العراق ، أو الجزيرة ، أو غيرها سلطهم الله على بنى إسرائيل ، لما كثرت فيهم المعاصي ، وتركوا كثيراً ، من شريعتهم ، وطفنوا في الأرض .

عَلَيْهِمْ وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
 إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
 الْآخِرَةِ لِيَسُئَرُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ
 أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ

[ثم رددنا لكم الكرة عليهم] أى : على هؤلاء الذين سلطوا عليكم ،
 فأجلبتموهم من دياركم .

[وأمددناكم بأموال وبنين] أى : أكثرنا أرزاقكم ، وكثرناكم ،
 وقويناكم عليهم .

[وجعلناكم أكثر نفيراً] منهم ، وذلك بسبب إحسانكم
 وخضوعكم لله .

[وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم] لأن النفع عائد إليكم ، حتى في الدنيا
 كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم .

[إن أسأتم فلها] أى : فلا أنفسكم ، يعود الضرر كما أراكم الله ، من
 تسليط الأعداء .

[فإذا جاء وعد الآخرة] أى : المرة الأخرى ، التى تفسدون فيها فى
 الأرض ، سلطنا عليكم الأعداء .

[ليسوءوا وجوهكم] بانتصارهم عليكم وسبيكم [وليدخلوا المسجد كما
 دخلوه أول مرة] والمراد بالمسجد ، مسجد بيت المقدس .

[وليتبروا] أى : يخربوا ويدمروا [ما علوا] عليه [تتبيراً] فيخربوا
 بيوتكم ، ومساجدكم ، وحروثكم .

وَإِنْ عُدْتُمْ عَدُنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ ﴿٨﴾

[عسى ربكم أن يرحمكم] فيديل ^(١) لكم الكرة عليهم .

فرحمهم ، وجعل لهم الدولة ، وتوعدهم على المعاصي فقال :

[وإن عدتم] إلى الإفساد في الأرض [عدنا] إلى عقوبتكم .

فعادوا لذلك ، فسلط الله عليهم رسوله ، محمداً صلى الله عليه وسلم ،

فانقم الله به منهم .

فهذا جزاء الدنيا ، وما عند الله من النكال ، وأعظم وأشنع ،

ولهذا قال :

[وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً] يصلونها ، ويلازمونها ، لا يخرجون

منها أبداً .

وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة ، من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ،

ما أصاب بني إسرائيل .

فسنة الله واحدة ، لا تبدل ولا تغير .

ومن نظر إلى تسليط الكفرة والظلمة على المسلمين عرف أن ذلك ، من

أجل ذنوبهم ، عقوبة لهم ، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله ، وسنة رسوله ،

مكن لهم في الأرض ، ونصرهم على أعدائهم .

(١) فيديل لكم . أى : ينصركم عليهم .

﴿٩﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُنَشِّرُ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ ﴿١٠﴾
﴿١١﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ
عَجُولًا ﴿١١﴾

* يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته ، وأنه [يهدي للتي هي أقوم]
أى : أعدل وأعلى ، من العقائد ، والأعمال ، والأخلاق .

فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن ، كان أكمل الناس ، وأقومهم ،
وأهداهم في جميع الأمور .

[ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات] من الواجبات والسنن .

[أن لهم أجراً كبيراً] أعدّه الله لهم في دار كرامته ، لا يعلم وصفه
إلا هو .

[وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً] ، فالقرآن
مشمّل على البشارة والندارة ، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة ،
وهو الإيمان ، والعمل الصالح ، والتي تستحق بها الندارة وهو ضد ذلك .

* وهذا من جهل الإنسان وعجلته ، حيث يدعو على نفسه وأولاده
بالشر عند الغضب ، ويبادر بذلك الدعاء ، كما يبادر بالدعاء في الخير ،
ولكن الله — من لطفه — يستجيب له في الخير ، ولا يستجيب له بالشر .
« ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم » .

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ
وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا
عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (١٢) ﴿وَكُلُّ
يَوْمٍ أَتَقِيَمَةُ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣) أَقْرَأَ كِتَابِكَ كَفَى

* يقول تعالى : [وجعلنا الليل والنهار آيتين] أى : دالتين على كمال
قدرة الله وسعة رحمته ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة إلا له .

[فمحونا آية الليل] أى : جعلناه مظلماً ، للسكون فيه ، والراحة .

[وجعلنا آية النهار مبصرة] أى : مضيئة [لتبتغوا فضلاً من ربكم]
فى معاشكم ، وصنائعكم ، وتجاراتكم ، وأسفاركم .

[ولتعلموا] بتوالى الليل والنهار واختلاف القمر [عدد السنين
والحساب] فتبنون عليها ما تشاءون ، من مصالحكم .

[وكل شىء فصلناه تفصيلاً] أى : بينا الآيات ، وصرفناه ، لتمييز
الأشياء ، وبتبين الحق من الباطل ، كما قال تعالى « ما فرطنا فى الكتاب
من شىء » .

* وهذا إخبار عن كمال عدله ، أن كل إنسان يلزمه طائره فى عنقه ،
أى : ما عمل من خير وشر ، يجعله الله ملازماً له ، لا يتعداه إلى غيره ،
فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله .

[ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً] فيه عمله ، من الخير

بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

﴿١٤﴾ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

والشر ، حاضراً ، صغيره وكبيره ، ويقال له : [اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا] .

وهذا من أعظم العدل والإنصاف ، أن يقال للعبد : حاسب نفسك ، ليعرف ما عليه من الحق الموجب للعقاب .

* أى : هداية كل أحد وضلاله لنفسه ، ولا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر .

والله تعالى ، أعذل المادلين ، لا يعذب أحداً ، حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة ، ثم يعاند الحجة .

وأما من انتقاد للحجة ، أو لم تبلغه حجة الله تعالى ، فإن الله تعالى لا يعذبه .

استدل بهذه الآية ، على أن أهل الفترات ، وأطفال المشركين ، لا يعذبهم الله ، حتى يبعث إليهم رسولا ، لأنه منزّه عن الظلم .

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَنَدَمْنَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (١٧)

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ

* يخبر تعالى ، أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ، ويستأصلها بالعذاب ، أمر مترفيها ، أمراً قدرياً ، ففسقوا فيها ، واشتد طغيانهم .

[فحق عليها القول] أى : كلمة العذاب التى لا مرد لها [فدمرناها تدميراً] .

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب ، من بعد قوم نوح ، كعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وغيرهم ، من عاقبهم الله ، لما كثر بغيهم ، واشتد كفرهم ، أنزل الله بهم عقابه العظيم .

[وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً] فلا يخافون منه ظلماً ، وأنه يعاقبهم على ما عملوه .

* يخبر تعالى أن [من كان يريد العاجلة] أى : الدنيا المنقضية الزائلة ، فعمل لها ، وسعى ، ونسى المبتدأ أو المنتهى ، أن الله يعجل له من حطامها ومتاعها ، ما يشاؤه ويريده ، مما كتب الله له فى اللوح المحفوظ ، ولكنه متاع غير نافع ولا دائم له .

نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ
الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ
مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كَلَّا نُمَدِّهُ هُوْلًا وَهَوْلًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ
وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ

ثم يجعل له في الآخرة [جهنم يصلها] أى يباشر عذابها [مذموماً
مدحوراً] أى : في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ، ومن خلقه ،
والبعد عن رحمة الله ، فيجمع له العذاب والفضيحة .

[ومن أراد الآخرة] فرضيها وآثرها على الدنيا [وسعى لها سعيها]
الذي دعت إليه الكتب السماوية ، والآثار النبوية ، فعمل بذلك على قدر
إمكانه [وهو مؤمن] بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم
الآخر .

[فأولئك كان سعيهم مشكوراً] أى : مقبولا مُنمًى ، مدحراً ، لم
أجرهم وثوابهم عند ربهم .

ومع هذا ، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا ، فكلما يمد الله منها ، لأنه
عطاؤه وإحسانه

[وما كان عطاء ربك محظوراً] أى : ممنوعاً من أحد ، بل جميع
الخلق راتعون بفضله وإحسانه .

[انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض] في الدنيا ، بسعة الأرزاق
وقلتها ، واليسر والعسر ، والعلم والجهل ، والعقل والفسه ، وغير ذلك من
الأمر التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها .

بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾
لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا
مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾

[وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً] فلا نسبة لنعيم الدنيا
ولذاتها ، إلى الآخرة ، بوجه من الوجوه .

فكم بين من هو في الغرف العاليات ، واللذات المتنوعات ، والسرور
والخيرات والأفراح ، ممن هو يتقلب في الجحيم ، ويعذب بالعذاب الأليم
وقد حل عليه سخط الرب الرحيم ، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت
ملا يمكن أحداً عده .

* أى : لاتعتقد أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة ،
ولا تشرك بالله أحدا منهم ، فإن ذلك داع للذم والخذلان .
فالله ، وملائكته ، ورسله ، قد نهوا عن الشرك ، وذموا من عمله
أشد الذم ، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة ، والأوصاف المقبوحة ،
ما كان به متعاطيه ، وأشنع الخلق وصفاً ، وأقبحهم نعتاً .
وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه ، بحسب ما تركه ، من
التعلق بربه .

فمن تعلق بغيره ، فهو مخذول ، قد وكل إلى من تعلق به ، ولا أحد
من الخلق ينفع أحداً ، إلا بإذن الله .

كما أن من جعل مع الله إلهاً آخر ، له الذم والخذلان .
فمن وحده ، وأخلص دينه لله ، وتعلق به دون غيره ، فإنه محمود معان
في جميع أحواله .

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا إِمَّا يَنْلَغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ
لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ

* لما نهى تعالى عن الشرك به ، أمر بالتوحيد ، فقال : [وقضى ربك]
قضاء دينيا ، وأمرأ شرعياً .

[أن لا تعبدوا] أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء
والأموات .

[إلا إياه] لأنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى له كل صفة كمال ،
وله من كل صفة أعظمها ، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه ، وهو المنعم
بالنعم الظاهرة والباطنة ، الدافع لجميع النقم ، الخالق ، الرازق ، المدبر
لجميع الأمور .

فهو المتفرد بذلك كله ، وغيره ليس له من ذلك شئ .

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين فقال : [وبالوالدين إحسانا] .

أى : أحسنوا إليهما ، بجميع وجوه الإحسان ، القول والفعل ، لأنهما
سبب وجود العبد ، ولهما من المحبة للولد ، والإحسان إليه ، والقرب ،
ما يقتضى تأكيد الحق ، ووجوب البر .

[إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما] أى : إذا وصلا إلى هذا
السن ، الذى تضعف فيه قواهما ، ويحتاجان من اللطف والإحسان ، ما هو
معروف .

[فلا تقل لهما أف] وهذا أدنى مراتب الأذى ، نبه به على ما سواه .

لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَّانِي
صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

والمعنى ، لا تؤذها أدنى أذية .

[ولا تنهرها] أى : تزجرها ، وتكلم كلاماً خشناً .

[وقل لهما قولاً كريماً] بلفظ يحبانه ، وتأدب ، وتلطف معهما ، بكلام
لين حسن يلذ على قلوبهما ، وتطمئن به نفوسهما . وذلك يختلف باختلاف
الأحوال والعوائد ، والأزمان .

[واخفض لهما جناح الذل من الرحمة] أى : تواضع لهما ، ذلا لهما ،
ورحمة ، واحتساباً للأجر ، لا لأجل الخوف منهما ، أو الرجاء لهما ،
ونحو ذلك من المقاصد ، التى لا يؤجر عليها العبد .

[وقل رب ارحمهما] أى : ادع لهما بالرحمة أحياء ، وأمواتاً . جزاء
على تربيتهما إياك ، صغيراً .

وفهم من هذا ، أنه كلما ازدادت التربية ، ازداد الحق .

وكذلك من تولى تربية الإنسان فى دينه ودنياه ، تربية صالحة غير
الأبوين ، فإن له على من رباه ، حق التربية .

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ
فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّلِينَ غُفُورًا﴾ (٢٥) ﴿وَأَتِ دَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنُ السَّبِيلِ﴾

* أى : ربكم تعالى مطلع على ما أكنتمه سرائركم ، من خير وشر ، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر .

[إن تكونوا صالحين] بأن تكون إرادتكم ومقاصدكم ، دائرة على مرضاة الله ، ورغبتكم فيما يقربكم إليه ، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله .

[فإنه كان للأولين] أى : الرجاعين إليه في جميع الأوقات [غفوراً] .

فمن اطاع الله على قلبه ، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة إليه ومحبته ، ومحبة ما يقرب إليه ، فإنه ، وإن جرى منه في بعض الأوقات ، ما هو مقتضى الطباع البشرية ، فإن الله يعفو عنه ، ويفقر له الأمور العارضة ، غير المستقرة .

* يقول تعالى : [وآت ذا القربى حقه] من البر والإكرام ، الواجب للمسنون ، وذلك الحق ، يتفاوت بتفاوت الأحوال ، والأقارب ، والحاجة وعدمها ، والأزمنة .

[والمساكين] أنه حقه من الزكاة ومن غيرها ، لتزول مسكنته [وابن السبيل] وهو : الغريب المنقطع به عن بلده .

وَلَا تُبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِنَّمَا تُعْرِضَنَّهُ عَنْهُمْ أَبْغَاءَ
رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ
يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

[ولا تبذر تبذيراً] يعطى الجميع من المال ، على وجه لا يضر المعطى ،
ولا يكون زائداً على المقدار اللائق ، فإن ذلك تبذير ، قد نهى الله
عنه وأخبر :

[إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين] لأن الشيطان ، لا يدعو إلا
إلى كل خصلة ذميمة ، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك ، فإذا عصاه ،
دعاه إلى الإسراف والتبذير .

والله تعالى ، إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها ، ويمدح عليه ، كما في
قوله ، عن عباد الرحمن الأبرار « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا
وكان بين ذلك قواماً » .

وقال هنا : [ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك] كناية عن شدة
الإمساك والبخل .

[ولا تبسطها كل البسط] فتتفق فيما لا ينبغي ، وزيادة على
ما ينبغي .

[فتتعد] إن فعلت ذلك [ملوماً] أى : تلام على ما فعلت [محسوراً]
أى : حاسر اليد فارغها ، فلا يبق ما فى يدك من المال ولا خلقه مدح وثناء .

تَحْسُرًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ
بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

وهذا الأمر بإيتاء ذى القربى ، مع القدرة والغنى .
فأما مع العدم ، أو تعسر النفقة الحاضرة ، فأمر تعالى أن يُرَدُّوا ردًّا
جميلًا فقال :

[وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها] أى : تعرض
عن إعطائهم إلى وقت آخر ، ترجو فيه من الله تيسير الأمر .

[قل لهم قولا ميسورًا] أى : لطيفا برفق ، ووعد بالجميل ، عند
سنوح الفرصة ، واعتذار بعدم الإمكان ، فى الوقت الحاضر ، لينقلبوا
عنك ، مطمئنة خواطرم ، كما قال تعالى « قول معروف ومغفرة خير من
صدقة يتبعها أذى » .

وهذا أيضاً ، من لطف الله تعالى بالعباد ، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق
منه ، لأن انتظار ذلك ، عبادة .

وكذلك وَعَدُهُمْ بالصدقة والمعروف عند التيسر ، عبادة حاضرة ، لأن
الهم بفعل الحسنة ، حسنة .

ولهذا ينبغى للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير ، وينوى فعل
ما لم يقدر عليه ، ليثاب على ذلك ، ولعل الله ييسر له بسبب رجائه .

ثم قال تعالى : [إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء] من عباده [ويقدر]
أى : يضيقة على من يشاء ، حكمة منه .

[إنه كان بعباده خبيراً بصيراً] فيجزئهم على ما يعلمه صالحاً لهم ،
ويدبرهم ، بلطفه وكرمه .

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَنزُلُ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ
وَأَيُّكُمْ إِن قَتَلْتُم كَانَ خَطِيئَةً كَبِيرًا﴾ (٣١)
﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ
سَبِيلًا﴾ (٣٢)

* وهذا من رحمته بعباده ، حيث كان أرحم بهم من والديهم .
فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم ، خوفاً من الفقر والإملاق ، وتسكف
برزق الجميع .

وأخبر أن قتلهم كان خطئاً كبيراً ، أى من أعظم كبائر الذنوب ،
لزوال الرحمة من القلب ، والعقوق العظيم والتجريح على قتل الأطفال ،
الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية .

* النهى عن قربان الزنى أبلغ من النهى عن مجرد فعله ، لأن ذلك يشمل
النهى عن جميع مقدماته ودواعيه ، فإن « من حام حول الحمى ، يوشك أن
يقع فيه » .

خصوصاً هذا الأمر ، الذى فى كثير من النفوس ، أقوى داع إليه .
ووصف الله الزنى وقبحه بأنه [كان فاحشة] أى : إنما يستفحش فى
الشرع والعقل ، والفطر ، لتضمنه التجريح على الحرمة فى حق الله ، وحق
المرأة ، وحق أهلها ، أو زوجها ، وإفساد الفراش ، واختلاط الأنساب
وغير ذلك من المفاسد .

وقوله [وساء سبيلاً] أى : بئس السبيل ، سبيل من تجرأ على هذا
الذنب العظيم .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (٣٣)

وهذا شامل لكل نفس [حرم الله قتلها] من صغير ، وكبير ، وذکر وأُنثى ، وحر ، وعبد ، ومسلم ، وكافر له عهد .

[إلا بالحق] كالنفس بالنفس ، والزاني المحسن ، والتارك لدينه ، الفارق للجماعة ، والباغي في حال بغيه ، إذا لم يندفع إلا بالقتل .

[ومن قتل مظلوما] أى بغير حق [فقد جعلنا لوليه] وهو ، أقرب عصباته وورثته إليه [سلطانا] أى : حجة ظاهرة على القصاص من القاتل وجعلنا له أيضاً تسليطاً قدرياً على ذلك .

وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص ، كالعمد العدوان ، والمكافأة .

[فلا يسرف] الولي [فى القتل إنه كان منصوراً] .

والإسراف ، مجاوزة الحد ، إما أن يمثل بالقاتل ، أو يقتله بغير ما قتل به ، أو يقتل غير القاتل .

وفى هذه الآية ، دليل على أن الحق فى القتل للولى ، فلا يقتص إلا بإذنه وإن عفا ، سقط القصاص .

وأن ولى المقتول ، يعينه الله على القاتل ، ومن أعانته ، حتى يتمكن من قتله .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ
يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ (٣٤) ﴿
﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ

* وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم ، الذى فقد والده ، وهو صغير ،
غير عارف بمصلحة نفسه ، ولا قائم بها ، أن أمر أوليائه بحفظه ، وحفظ
ماله ، وإصلاحه ، وأن لا يقربوه [إلا بالتي هي أحسن] من التجارة فيه ،
وعدم تعريضه للأخطار ، والحرص على تنميته .

وذلك ممتد إلى أن [يبلغ اليتيم أشده] أى : بلوغه ، وعقله ،
ورشده .

فإذا بلغ أشده ، زالت عنه الولاية ، وصار ولى نفسه ، ودفع
إليه ماله .

كما قال تعالى « فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رِشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » .
[وأوفوا بالعهد] الذى عاهدتم الله عليه ، والذى عاهدتم الخلق عليه .
[إن العهد كان مسئولاً] أى : مسئولون عن الوفاء به .

فإن وفيتهم ، فلكم الثواب الجزيل ، وإن لم تفعلوا ، فعليكم الإثم
العظيم .

* وهذا أمر بالعدل وإيفاء الكاييل والموازن بالقسط ، من غير بخس
ولا نقص .

ويؤخذ من عموم المعنى ، النهى عن كل غش ، أو مثنى ، أو معتود
عليه ، والأمر بالنصح ، والصدق فى المعاملة .

الْمُسْتَقِيمَ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾
 وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
 وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾
 وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ

[ذلك خير] من عدمه [وأحسن تأويلا] أى : أحسن عاقبة به ،
 يسلم العبد من التبعات ، وبه تنزل البركة .
 * أى : ولا تتبع ما ليس لك به علم ، بل تثبت في كل ما تقوله
 وتفعله .

فلا تظن ذلك يذهب ، لا لك ولا عليك .
 [إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا] لتحقيق
 بالعبد الذى يعرف أنه مسئول ، عما قاله وفعله ، وعما استعمل به جوارحه
 التى خلقها الله لعبادته ، أن يُعَدَّ للسؤال جواباً .
 وذلك لا يكون ، إلا باستعمالها ، بعبودية الله ، وإخلاص الدين له ،
 وكفها عما يكرهه الله تعالى .
 * يقول تعالى : [ولا تمش في الأرض مرحاً] أى : كبراً وتهاوياً بطراً ،
 متكبراً على الحق ، ومتعظلاً في تكبرك على الخلق .

[إنك] في فعلك ذلك [لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً] .
 بل تكون حقيراً عند الله ومحتقراً عند الخلق ، مبغوضاً ممقوتاً ، قد
 اكتسبت شر الأخلاق ، واكتسبت بأرذلها ، من غير إدراك لبعض
 ما تروم .

وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ
مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ۖ آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

[كل ذلك] المذكور الذى نهى الله عنه فيما تقدم من قوله «ولا تجعل مع الله إلها آخر» والنهى عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك [كان سيئه عند ربك مكروها] أى : كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم ، والله تعالى يكرهه ويأباه .

[ذلك] الذى بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة .
[مما أوحى إليك ربك من الحكمة] فإن الحكمة ، الأمر بمحاسن الأعمال ، ومكارم الأخلاق ، والنهى عن أراذل الأخلاق ، وأسوأ الأعمال .

وهذه الأعمال المذكورة فى هذه الآيات ، من الحكمة العالية ، التى أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين ، فى أشرف الكتب ، ليأمر بها أفضل الأمم ، فهى من الحكمة ، التى من أوتيتها ، فقد أوتى خيرا كثيرا .

ثم ختمها بالنهى عن عبادة غير الله ، كما افتتحها بذلك فقال :
[ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم] أى : خالدا مخلدا ، فإنه من يشرك بالله ، فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار .

[ملوما مدحورا] أى : قد لحقتك اللائمة ، واللعنة ، والذم من الله ، وملائكته ، والناس أجمعين .

﴿٤٠﴾ أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
إِنثًا إِنَّكُمْ تَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
﴿٤١﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ

* وهذا إنكار شديد ، على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات فقال :
[أفأصفاكم ربكم بالبنين] أى : اختار لكم الصفوة والنصيب الكامل ،
واتخذ لنفسه من الملائكة إناثا ، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله .

[إنكم لتقولون قولا عظيما] فيه أعظم الجراءة على الله ، حيث نسبتم له
الولد المتضمن لحاجته ، واستغناء بعض المخلوقات عنه ، وحكمتم له بأردأ
التسمين ، وهو الإناث وهو الذى خلقكم ، واصطفاكم بالذكور ، ففعال الله
عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

* يخبر تعالى ، أنه صرف لعباده ، فى هذا القرآن ، أى نوع الأحكام ،
ووضعها ، وأكثر من الأدلة والبراهين ، على ما دعا إليه ، ووعظ وذكر ،
لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلكوه ، وما يضرهم فيدعوه .

ولكن أبى أكثر الناس ، إلا نفورا عن آيات الله ، ليقضهم للحق ،
ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل ، حتى تعصبوا لباطلهم ، ولم يعيروا آيات
الله لهم سمعا ، ولا ألقوا لها بالا .

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة ، التوحيد الذى هو أصل
الأصول .

فأمر به ، ونهى عن ضده ، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية ،
شيئا كثيرا ، بحيث أن من أضغى إلى بعضها ، لا تدع فى قلبه ، شكولا ريبا .

إِلَّا مُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا بُغْيَاءَ
إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا
كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ

ومن الأدلة على ذلك ، هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا فقال :

[قل] للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهًا آخر :

[لو كان معه آلهة كما يقولون] أى : على موجب زعمهم وافترائهم
[إذا لا بغنى إلى ذى العرش سبيلا] أى : لا تأخذوا سبيلا إلى الله بعبادته ،
والإنابة إليه ، والتقرب وابتغاء الوسيلة .

فكيف يجعل العبد الفقير ، الذى يرى شدة افتقاره لعبودية ربه ، إلهًا
مع الله ؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه ؟! .

فعلى هذا المعنى ، تكون هذه الآية كقوله تعالى : « أولئك الذين
يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب » .

وكقوله تعالى : « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم
أضللتهم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل * قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا
أن نتخذ من دونك من أولياء » .

ويحتمل أن المعنى فى قوله [قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بغنى
إلى ذى العرش سبيلا] أى : لطلبوا السبيل ، وسعوا فى مغالبة الله تعالى .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ
كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

فإِذَا أَنْ يَعْلُوا عَلَيْهِ (١) فَيَكُونُ مِنْ عِلَا وَقَهْرٍ ، هُوَ الرَّبُّ الْإِلَهِ .
فَأَمَّا وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمْ يَقْرُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمْ ، الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَقْهُورَةٌ
مَغْلُوبَةٌ ، لَيْسَ لَهَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، فَلَمْ يَتَّخِذُوهَا وَهِيَ بِهَذِهِ الْحَالِ ؟
فَيَكُونُ هَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : « مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهِ
إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهِ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » .

[سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى] أَيْ : تَقَدَّسَ وَتَنَزَّهَ وَعَلَتْ أَوْصَافُهُ [عَمَّا يَقُولُونَ]
مِنَ الشَّرْكِ بِهِ ، وَاتَّخَذَ الْأَنْدَادَ مَعَهُ [عَلَاوا كَبِيرًا] فَعَلًا قَدْرَهُ ، وَعَظَمَ ،
وَجَلَّتْ كِبَرِيَاؤُهُ ، الَّتِي لَا تَقَادِرُ ، أَنْ يَكُونَ مَعَهُ آلَهُةٌ ، فَقَدْ ضَلَّ مِنْ قَالِ ذَلِكَ ،
ضَلَالًا مَبِينًا ، وَظَلَمَ ظُلْمًا كَبِيرًا .

لَقَدْ تَضَاعَلَتْ لِعَظَمَتِهِ الْخُلُوقَاتُ الْعَظِيمَةُ ، وَصَفَرَتْ لَدَى كِبَرِيَاثِهِ ،
السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ ، وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ ، وَمَنْ فِيهِنَّ « وَالْأَرْضُ
جَمِيعًا ، قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » .

(١) قَوْلُهُ (فَإِذَا أَنْ يَعْلُوا عَلَيْهِ) فِي الْعِبَادَةِ إِيهَامٌ .
وَالْأَوْضَحُ أَنْ يُقَالَ : « فَإِذَا أَنْ يَعْلُوا عَلَيْهِ ، فَيَكُونُ مِنْ عِلَا وَقَهْرٍ هُوَ
الرَّبُّ ، الْإِلَهِ .

وَأَمَّا أَنْ يَقْرُوا أَنَّ آلِهَتَهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، مَقْهُورَةٌ مَغْلُوبَةٌ ،
لَيْسَ لَهَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ، وَهُمْ مَقْرُونَ وَمُعْتَرَفُونَ بِذَلِكَ .
فَلَمْ يَتَّخِذُوهَا آلَهُةً ، وَهِيَ بِهَذِهِ الْحَالِ ؟ فَهَذَا تَسْتَقِيمُ الْعِبَارَةُ وَتَتَضَحُّ .

وافقر إليه ، العالم العلوى والسفلى ، فقرا ذاتيا ، لا ينفك عن أحد منهم
فى وقت من الأوقات .

هذا الفقر بجميع وجوهه ، فقر من جهة الخلق ، والرزق ، والتدبير .
وفقر من جهة الاضطرار ، إلى أن يكون معبوده ومحبوه ، الذى إليه
يقربون وإليه فى كل حال يفرعون . ولهذا قال :

[تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإنا من شئ]
من حيوان ناطق ، وغير ناطق ، ومن أشجار ، ونبات ، وجامد ، وحي
وميت [إلا يسبح بحمده] بلسان الحال ، ولسان المقال .

[ولكن لا تفقهون تسبيحهم] أى : تسبيح باقى المخلوقات ، التى على
غير لغتكم .

بل يحيط بها علام الغيوب .

[إنه كان حليما غفورا] حيث لم يعاجل بالعقوبة ، من قال فيه قولا ،
تكاد السموات والأرض تنفطر منه وتخر له الجبال .

ولكنه أمهلهم ، وأنعم عليهم ، وعافاهم ، ورزقهم ، ودعاهم إلى بابه ،
ليتوبوا من هذا الذنب العظيم ، ليعطيهم الثواب الجزيل ، ويغفر لهم ذنبهم .
فلولا حلمه ومغفرته ، لسقطت السموات على الأرض ، ولما ترك على
ظهرها من دابة .

﴿٤٥﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٦﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ

* يخبر تعالى ، عن عقوبته للكاذبين بالحق الذين ردوه ، وأعرضوا عنه ، أنه يحول بينهم وبين الإيمان فقال :

[وإذا قرأت القرآن] الذى فيه الوعظ والتذكير ، والهدى والإيمان ، والخير ، والعلم الكثير .

[جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا] يسترهم عن فهمه حقيقة ، وعن التحقق بحقائقه ، والالتقياد إلى ما يدعو إليه من الخير .

[وجعلنا على قلوبهم أكنة] أى : أغشية وأغشية ، لا يفقهون معها القرآن ، بل يسمعون سماعاً تقوم به عليهم الحجة .

[وفى آذانهم وقرا] أى : صمما عن سماعه .

[وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده] داعيا لتوحيده ، ناهياً عن الشرك به .

[ولوا على أدبارهم نفورا] من شدة بغضهم له ، ومحبتهم لما هم عليه من الباطل .

كما قال تعالى « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

إِذِ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ
إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا
فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴿٤٨﴾

[نحن أعلم بما يستمعون به] أى : إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن ، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة ، يريدون أن يعثروا على أقل شيء ، ليقدحوا به .

وليس استماعهم لأجل الاسترشاد ، وقبول الحق ، وإنما هم متعمدون على عدم اتباعه .

ومن كان بهذه الحالة ، لم يفده الاستماع شيئاً ، ولهذا قال :

[إِذِ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ] أى : متناجين [إِذِ يَقُولُ الظَّالِمُونَ] فى مناجاتهم :

[إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا] فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم ، وقد بنوها على أنه مسحور ، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال ، وأنه يهذى ، لا يدرى ما يقول .

قال تعالى : [أَنْظِرْ] متعجباً [كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ] التى هى أضل الأمثال ، وأبعدها عن الصواب .

[فَضَلُّوا] فى ذلك ، أو صارت سبباً لضلالمهم لأنهم بنوا عليها أمرهم ، والمبنى على فاسد ، أفسد منه .

[فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا] أى : لا يهتدون أى اعتداء ، فنصيهم الضلال المحض ، والظلم التصرف .

﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ

* يخبر تعالى عن قول النكرين للبعث ، وتكذيبهم به ، واستبعادهم بقولهم : [إذا كنا عظاما ورفاتا] أى : أجسادا بالية [إنا لمبعوثون خلقا جديدا] أى : لا يكون ذلك ، وهو محال بزعمهم .

فجهلوا أشد الجهل ، حيث كذبوا رسول الله ، وجحدوا آيات الله ، وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض ، بقدرهم الضعيفة العاجزة .

فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم ، لا يقدرُونَ عليه ، جعلوا قدرة الله كذلك .

فسبحان من جعل خلقا من خلقه ، يزعمون أنهم أولو العقول والألباب ، مثالا فى جهل . أظهر الأشياء ، وأجلاها ، وأوضحها براهين ، وأعلاها ليرى عباده ، أنه ما مِثَّم إِلَّا توفيقه وإعانتة ، أو الهلاك والضلال .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

ولهذا أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن يقول لهؤلاء النكرين للبعث استبعادا :

[قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقا مما يكبر] أى : يعظم [فى صدوركم] لتسلوا بذلك على زعمكم ، من أن تنالكم قدرة الله ، أو تنفذ فيكم مشيئته .

فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ
قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ

فإنكم غير معجزين الله ، في أى حالة تكونون ، وعلى أى وصف
تتحولون .

وليس في أنفسكم ، تدبير في حالة الحياة ، وبعد المات .
فدعوا التدبير والتصرف ، لمن هو على كل شيء قدير ، وبكل
شيء محيط .

[فسيقولون] حين تقيم عليهم الحجة في البعث : [من يعيدنا ؟ قل
الذى فطركم أول مرة] فكما فطركم ، ولم تكونوا شيئاً مذكورا ، فإنه
سيعيدكم خلقا جديدا « كما بدأنا أول خلق نعيده » .

[فسينغضون إليك رؤوسهم] أى : يهزونها ، إنكارا وتعجبا ، مما قلت .
[ويقولون متى هو] أى : متى وقت البعث ، الذى تزعمه على قولك ؟
[ولا إقرار منهم لأصل البعث ، بل ذلك سَفَهٌ منهم ، وتعجيز .
[قل عسى أن يكون قريبا] فليس في تعيين وقته فائدة .
وإنما الفائدة والدار ، على تقريره ، والإقرار به ، وإثباته ، وإلا فكما
هو آت ، فإنه قريب .

[يوم يدعوكم] للبعث والنشور ، وينفخ في الصور
[فتستجيبون بحمده] أى : تنقادون لأمره ، ولا تستمعون عليه .
وقوله « بحمده » أى : هو الحمود تعالى ، على فعله ، ويمجى به العباد ،
إذا جمعهم ليوم التناد .

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ
يَنْزَعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ

[وتظنون إن لبتم إلا قليلا] من سرعة وقوعه ، وأن الذى مر عليكم
من النعم ، كأنه ما كان .

فهذا الذى يقول عنه النكرون : « متى هو » ؟ يندمون غاية الندم ، عند
وروده ، ويقال لهم : « هذا الذى كنتم به تكذبون » .

• وهذا من لطفه بعباده ، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق ، والأعمال ،
والأقوال ، الموجبة للسعادة ، فى الدنيا والآخرة فقال :

[وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن] وهذا أمر بكل كلام يقرب
إلى الله ، من قراءة ، وذكر ، وعلم ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ،
وكلام حسن لطيف ، مع الخلق ، على اختلاف مراتبهم ومنازلهم .

وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين ، فإنه يأمر بإيثار أحسنهما ، إن
لم يمكن الجمع بينهما .

والقول الحسن ، داع لكل خلق جميل ، وعمل صالح ، فإن من ملك
لسانه ، ملك جميع أمره .

وقوله : [إن الشيطان ينزغ بينهم] أى : يسعى بين العباد ، بما يفسد
عليهم دينهم ودنياهم .

فدواء هذا ، أن لا يطيعوه فى الأقوال غير الحسنة ، التى يدعوهم إليها .

أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْخِمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

وَأَنْ يَلِينُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ ، لِيَنْتَقِمَ الشَّيْطَانُ ، الَّذِي يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ، فَإِنَّهُ عَدُوهُمْ الْحَقِيقِي ، الَّذِي يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَحَارِبُوهُ ، فَإِنَّهُ يَدْعُوهُمْ « لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ » .

وَأَمَّا إِخْوَانُهُمْ ، فَإِنَّهُمْ وَإِنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَسَعَى فِي الْعَدَاوَةِ ، فَإِنَّ الْحَزْمَ كُلَّ الْحَزْمِ ، السَّعَى فِي ضِدِّ عَدُوِّهِمْ ، وَأَنْ يَقْمَعُوا أَنْفُسَهُمْ الْأَمَارَةَ بِالسُّوءِ ، الَّتِي يَدْخُلُ الشَّيْطَانُ مِنْ قَبْلِهَا ، فَبِذَلِكَ يَطِيعُونَ رَبَّهُمْ ، وَيَسْتَقِيمُ أَمْرُهُمْ ، وَيَهْدُونَ لِرَشْدِهِمْ .

[رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ] مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، فَلِذَلِكَ لَا يَرِيدُ لَكُمْ إِلَّا مَا هُوَ الْخَيْرُ ، وَلَا يَأْمُرُكُمْ إِلَّا بِمَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لَكُمْ ، وَقَدْ تَرِيدُونَ شَيْئًا وَالْخَيْرُ فِي عَكْسِهِ .
[إِنْ يَشَأْ يُرْخِمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ] فَيُفَوِّقُ مِنْ شَاءٍ لِأَسْبَابِ الرَّحْمَةِ ، وَيَخْتَلِ مِنْ شَاءٍ ، فَيُضِلُّ عَنْهَا ، فَيَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ .

[وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا] تَدْبِرُ أَمْرَهُمْ ، وَتَقُومُ بِمَجَازَاتِهِمْ ، وَإِنَّمَا اللَّهُ ، هُوَ الْوَكِيلُ ، وَأَنْتَ مُبْلَغُ هَادٍ ، إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ .

[وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ] مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْخَلَائِقِ ، فَيُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ ، مَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَتَقْتَضِيهِ حُكْمَتُهُ ، وَيَفْضِلُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فِي جَمِيعِ الْخِصَالِ الْحَسِيَّةِ ، وَالْمَعْنَوِيَّةِ ، كَمَا فَضَّلَ بَعْضَ النَّبِيِّينَ الْمُشْتَرَكِينَ بِوَحْيِهِ ، عَلَى بَعْضٍ ، بِالْفَضَائِلِ ، وَالْخِصَالِ الرَّاجِعَةِ إِلَى مَا مَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ ، مِنَ الْأَوْصَافِ

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ
كُشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

للمدوحة ، والأخلاق المرضية ، والأعمال الصالحة ، وكثرة الأتباع ، ونزول
الكتب على بعضهم ، المشتملة على الأحكام الشرعية ، والعقائد المرضية .
كما أنزل على داود زبوراً ، وهو الكتاب المعروف .

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض ، وآتى بعضهم كتباً ، فلم
ينكر المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ما أنزله الله عليه وما فضله به
من النبوة والكتاب .

* يقول تعالى [قل] للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً
يعبدونهم ، كما يعبدون الله ، ويدعونهم كما يدعونهم ، ملزماً لهم بتصحيح
ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين .

[ادعوا الذين زعمتم] آلهة [من دونه] فانظروا هل ينفعونكم ،
أو يدفعون عنكم الضر .

[فلا يملكون كشف الضر عنكم] من مرض ، أو فقر ، أو شدة
ونحو ذلك ، فلا يدفعونه بالكلية .

[و] لا يملكون أيضاً [تحويلاً] له من شخص إلى آخر ، من شدة
إلى ما دونها .

فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعوهم من دون الله ؟ فإنهم
لا كمال لهم ، ولا فعال نافعة . فاتخاذهم آلهة نقص في الدين والعقل ، وسفه
في الرأي .

يَسْتَفُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ
عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

ومن العجب ، أن السفه عند الاعتقاد والممارسة ، وتلقّيه عن الآباء
الضالين بالقبول ، يراه صاحبه ، هو الرأى السديد ، والعقل المفيد .

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد المنعم بجميع النعم الظاهرة
والباطنة ، هو السفه ، والأمر المتعجب منه ، كما قال المشركون : « أجعل
الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب » .

ثم أخبر أيضاً ، أن الذين يعبدونهم من دون الله ، في شغل شاغل
عنهم ، باهتمامهم بالافتقار إلى الله ، وابتغاء الوسيلة إليه فقال :

[أولئك الذين يدعون] من الأنبياء والصالحين والملائكة [يستفون
إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب] أى : يتنافسون فى القرب من ربهم ، ويبدلون
ما يقدر عليهم ، من الأعمال الصالحة ، المقربة إلى الله تعالى :

[ويرجون رحمته ويخافون عذابه] فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب .
[إن عذاب ربك كان محذوراً] أى : هو الذى ينبغى شدة الحذر منه
والتوقى من أسبابه .

وهذه الأمور الثلاثة ، الخوف ، والرجاء ، والمحبة ، التى وصف الله بها
هؤلاء المقربين عنده ، هى الأصل ، والمادة فى كل خير .

فمن تمت له ، تمت له أموره ، وإذا خلا القلب منها ، ترحلت عنه
الخيرات ، وأحاطت به الشرور .

وعلامة المحبة ، ما ذكره الله ، أن يجتهد العبد فى كل محل يقربه إلى الله

﴿٥٨﴾ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ
مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

﴿٥٩﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا

وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله ، والنصح فيها ، وإيقاعها في أكمل
الوجوه للمتدور عليها .

فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك ، فهو كاذب .

* أى : ما من قرية من القرى المكذبة للرسل ، إلا ، لا بد أن يصيبهم
هلاك يوم القيامة ، أو عذاب شديد ، كتاب كتبه الله ، وقضاء أمره ،
لا بد من وقوعه .

فليبادر المكذبون بالإجابة إلى الله ، وتصديق رسله ، قبل أن تم عليهم
كلمة العذاب ، ويحق عليهم القول .

* يذكر تعالى رحمته ، بعدم إنزاله الآيات ، التي اقترحها^(١) المكذبون ،
وأنه ما منعه أن يرسلها ، إلا خوفا من تكذيبهم لها .

فإذا كذبوا بها ، عاجلهم العقاب ، وحل بهم من غير تأخير ، كما فعل
بالأولين الذين كذبوا بها .

(١) في الأصل المطبوع « يقترح بها » وهو خطأ لا يتمشى مع القواعد
العربية فلذلك أبدلنا الكلمة بـ « اقترحها » .

أَلَاؤُلُونَ وَءَاتَيْنَا نُمُودَ النَّاقَةِ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا

ومن أعظم الآيات ، الآية التي أرسلها الله إلى نُمود ، وهى الناقة
العظيمة الباهرة ، التى كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها ، ومع ذلك ،
كذبوا بها ، فأصابهم ما قص الله علينا فى كتابه .

وهؤلاء كذلك ، لو جاءتهم الآيات الكبار ، لم يؤمنوا .

فإنه ما منعهم من الإيمان ، خفاء ما جاء به الرسول واشتباؤه ، هل
هو حق أو باطل ؟

فإنه قد جاء ومعه من البراهين الكثيرة ، بما دل على صحة ما جاء به ،
الموجب لهداية من طلب الهداية فغيرها مثلها ، فلا بد أن يسلكوا بها ،
ما سلكوا بغيرها ، فترك إنزالها والحالة هذه ، خير لهم وأنفع .

وقوله : [وما نرسل بالآيات إلا تخويفا] أى : لم يكن القصد بها أن
تكون داعية وموجبة للإيمان ، الذى لا يحصل إلا بها .

بل المقصود منها ، التخويف والترهيب ، ليرتدعوا عن ما هم عليه .

[وإذ قلنا لك : إن ربك أحاط بالناس] علما وقدره ، فليس لهم ملجأ
يلجأون إليه ، ولا ملاذ ، يلوذون به عنه .

وهذا كاف لمن له عقل فى الانكشاف عما يكرهه الله الذى أحاط

بالناس .

الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ
وَنُحَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

[وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة] أكثر المفسرين على أنها
ليلة الإسراء .

[والشجرة الملعونة] التي ذكرت [في القرآن] وهي شجرة الزقوم ،
التي تنبت في أصل الجحيم .

والمنى ، إذا كان هذان الأمران ، قد صارا فتنة للناس ، حتى استلج^(١)
الكفار بكفرهم ، وازداد شرهم ، وبعض من كان إيمانه ضعيفا ، رجع عنه
بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور ، التي كانت ليلة الإسراء ، ومن الإسراء
من المسجد الحرام ، إلى المسجد الأقصى ، كان خارقا للعادة .

والإخبار بوجود شجرة ، تنبت في أصل الجحيم أيضا ، من الخوارق
فهذا الذي أوجب لهم التكذيب .

فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة ؟ !!

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم ؟ ! فلذلك رحمهم الله
وصرفها عنهم .

ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة ، بذكر الأمور
العظيمة ، التي حدثت في الأزمنة المتأخرة ، أولى وأحسن .

(١) استلج . أى : ألح « قال في القاموس » واستلجه « : ألح في
شربه » اهـ . والمراد هنا : ثبتوا على كفرهم وتمسكوا به أشد التمسك
واستلذوه استلذاذ العطشان في ابتلاع أعذب المياه .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي
كَرَّمْتَ عَلَىٰ لِنِّ أَنْحَرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ

لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرا ، ربما لا تقبلها عقولهم ،
فيكون ذلك ريبا في قلوب بعض المؤمنين ، ومانعاً ، يمنع من لم يدخل
الإسلام ، ومنفرا عنه .

بل ذكر الله ألفاظاً عامة ، تتناول جميع ما يكون ، والله أعلم .
[ونخوفهم بالآيات فما يزيدهم] التخويف [إلا طغيانا كبيرا] وهذا
أبلغ ما يكون في التحلي بالشر ومحبه ، وبغض الخير وعدم الانقياد له .
* ينبه تبارك وتعالى عباده ، على شدة عداوة الشيطان ، وحرصه على
إضلالهم ، وأنه لما خلق الله آدم ، استكبر عن السجود له ، و [قال]
متكبرا :

[أأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا] أي من طين ، وبزعمه ، أنه خير منه ،
لأنه خلق من نار .

وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل ، من عدة أوجه .
فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم [قال] مخاطباً لله :
[أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَىٰ لِنِّ أَنْحَرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُ] أي : لأستأصلنهم بالإضلال ، ولأغوينهم [إلا قليلا] عرف
الخليث ، أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ، ويعصيه .

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ
جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَغْفِرُ مَنْ أَسْطَغَفْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ
عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ

فقال الله له : [اذهب فمن تبعك منهم] واختارك على ربه
ووليهِ الحق .

[فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا] أى : مدخرا لكم ، موفرا جزاء
أعمالكم .

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم فقال :

[واستغفر^(١) من استغفت منهم بصوتك] ويدخل في هذا كل داع
إلى المعصية .

[وأجلب^(٢) عليهم بخيلك ورجلك] ويدخل فيه كل راكب وماش
في معصية الله ، فهو من خيل الشيطان ورجله .

(١) واستغفرز . أى : أزعج ، واستخف حتى يتبعك طائشاً منجرفاً
وراءك .

(٢) وأجلب عليهم . أى : صح بهم واستحثهم بخيلك ورجالك للسبق
إلى متابعتك بقهر وإجبار قال الراغب في معجم مفردات القرآن « وأجلبت
عليه : صحت عليه بقهر قال الله تعالى : وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » ١٥ .
وفي المختار من الصحاح وجلب على فرسه يجلبه جلباً بوزن يطلبه طلباً
صاح به من خلفه واستحثه للسبق . وكذا أجلب عليه . ١٥ .

وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين ، الداعى لهم إلى معصية الله ، بأقواله وأفعاله .

[وشاركهم فى الأموال والأولاد] وذلك شامل لكل معصية ، تعلقت بأموالهم وأولادهم ، من منع الزكاة والكفارات ، والحقوق الواجبة وعدم تأديب الأولاد ، وترييتهم على الخير ، وترك الشر ، وأخذ الأموال بغير حقها ، أو وضعها بغير حقها ، أو استعمال المكاسب الرديئة .

بل ذكر كثير من المفسرين ، أنه يدخل فى مشاركة الشيطان فى الأموال والأولاد ، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع .

وأنه إذا لم يسم الله فى ذلك ، شارك فيه الشيطان ، كما ورد فيه الحديث .

[وعدمهم] الوعود المزخرفة التى لا حقيقة لها ، ولهذا قال :

[وما يعبدكم الشيطان إلا غروراً] أى : باطلا مضمحلا ، كأن يزين لهم المعاصى والعقائد الفاسدة ، ويعبدكم عليها الأجر ، لأنهم يظنون أنهم على الحق .

وقال تعالى : « الشيطان ، يعبدكم الفقر وبأسركم بالفحشاء والله يعبدكم مغفرة منه وفضلا » .

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد ، وذكر ما يعتصم به من فتنته ، وهو عبودية الله ، والقيام بالإيمان والتوكل قال :

[إن عبادى ليس لك عليهم سلطان] أى : تسلط وإغواء ، بل الله

سَاطَنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا
مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ

يدفع عنهم — بقيامهم بعبوديته — كل شر ، ويحفظهم من الشيطان
الرحيم ، ويقوم بكفائتهم .

[وكفى بربك وكيلا] لمن توكل عليه ، وأدى ما أمر به .

* يذكر تعالى : نعمته على العباد ، بما سخر لهم من الفلك ، والسفن ،
والراكب ، وألهمهم كيفية صنعها .

وسخر لها البحر الملتطم ، يحملها على ظهره ، لينتفع العباد بها في الركوب
والحمل للأمتعة ، والتجارة .

وهذا من رحمته بعباده ، فإنه لم يزل بهم رحيمًا رءوفًا ، يؤتيهم من
كل ما تعلق به إرادتهم ومنافعهم .

ومن رحمته الدالة على أنه ، وحده المعبود ، دون ما سواه ، أنهم إذا
مسهم الضر في البحر ، تخافوا من الهلاك ، لتراكم الأمواج ، ضل عنهم
ما كانوا يدعون من دون الله ، في حال الرخاء من الأحياء ، والأموات ،
فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء ،
عاجزون عن كشف الضر ، وصرخوا ^(١) بدعوة فاطر الأرض والسماوات ،

(١) قوله « وصرخوا إلخ » أقول — والأسف يقطع نياط القلب —

إن مشركي زماننا فاتوا مشركي الجاهلية لأن مشركي زماننا يدعون غير
الله في الرخاء والشدة .

ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ

الذى يستغيث به فى شدائدها، جميع المخلوقات ، وأخلصوا له الدعاء، والتضرع
فى هذه الحال .

فلما كشف الله عنهم الضر ، ونجاهم إلى البر ، ونسوا ما كانوا يدعون
إليه من قبل ، أشركوا به ، من لا ينفع ، ولا يضر ، ولا يعطى ، ولا يمنع ،
وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكمهم .

وهذا من جهل الإنسان وكفره ، فإن الإنسان كفور للنعم .

إلا من هدى الله فمن عليه بالعقل السليم ، واهتدى إلى الصراط
المستقيم .

= إليك القصة الآتية . أقلت باخرة من بيروت تحمل رجلا وبضائع
واصطخب الموج وهاج البحر هيجاناً شديداً ، وصارت الأمواج تتلاعب
بالبخرة وبلغت القلوب الحناجر فأخذ البعض يقول : يارفاعى والبعض
الآخر : يا جيلانى ، وآخرون : يابدوى وهناك كان رجل شامى يستمع
لنداء المنادين واستغاثاتهم وهو صامت فلم يسمع من أحد يقول « يا الله »
فقال : اللهم أغرق أغرق مابقى أحد يعرفك فيذكرك .

وهكذا اشتد الشرك فى هذا الزمان واستغلظ وتحقق قوله تعالى
« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » فتعلم التوحيد والتدقيق
فيه وتعلم الشرك ووسائله والتدقيق قد أهمل فى جميع الأقطار ما عدا
المملكة العربية السعودية صانها الله وزادها يقظة وتوفيقا .

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

فإنه يعلم ، أن الذى يكشف الشدائد ، وينجى من الأهوال ، هو الذى يستحق أن يفرد ، وتخلص له سائر الأعمال ، فى الشدة ، والرءاء ، واليسر والعسر .

وأما من خذل ، ووكل إلى عقله الضعيف ، فإنه لم يلحظ وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة ، وإنجاهه فى كل تلك الحال .

فلما حصلت له النجاة ، وزالت عنه المشقة ، ظن بجهله ، أنه قد أعجز الله ولم يخطر بقلبه ، شئ من العواقب الدنيوية ، فضلاً عن أمور الآخرة . ولهذا ذكرهم الله بقوله : [أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً] .

أى : فهو على كل شئ قدير ، إن شاء أنزل عليكم عذاباً ، من أسفل منكم بالخسف ، أو من فوقكم بالحاصب ، وهو : العذاب الذى يحصيهم ، فيصبحوا هالكين .

فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا فى البحر .

وإن ظننتم ذلك ، فليست آمنين من [أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح] أى : ريحا شديدة جداً تقصف ما أتت عليه .

[فيغرقكم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعاً] أى : تبعة ومطالبة ، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة .

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

* وهذا من كرمه عليهم وإحسانه ، الذى لا يقادر قدره ، حيث كرم
بنى آدم بجميع وجوه الإكرام .

فكرمهم بالعلم والعقل ، وإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .
وجعل منهم الأولياء والأصفياء ، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة
والباطنة .

[وحملناهم فى البر] على الركاب ، من الإبل ، والبغال ، والحمر ،
والمراكب البرية .

[والبحر] فى السفن والمراكب [ورزقناهم من الطيبات] من المأكول
والمشارب ، والملابس ، والمناكح .

فما من طيب تتعلق به حوائجهم ، إلا وقد أكرمهم الله به ، ويسره
لهم غاية التيسير .

[وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا] بما خصهم به من المناقب ،
وفضلهم به من الفضائل ، التى ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات .

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم ، ودفع النقم ، ولا تحجبهم النعم عن
المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم ، بل ربما استعانوا بها على معاصيه .

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧١) وَمَنْ
كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (٧٢) ﴿

* يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة ، وأنه يدعو كل أناس ،
ومعهم إمامهم وهاديهم ، إلى الرشد ، وهم : الرسل ونوابهم .

فتعرض كل أمة ، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم .

وتعرض أعمالهم على الكتاب ، الذي يدعو إليه الرسول ، هل هي
موافقة له أم لا ؟ فينقسمون بهذا قسمين .

[فن أوتي كتابه بيمينه] لكونه اتبع إمامه ، الهادي إلى صراط
مستقيم ، واهتدي بكتاباه ، فكثرت حسناته ، وقلت سيئاته
[فأولئك يقرأون كتابهم] قراءة سرور وبهجة ، على ما يرون فيها ،
مما يفرحهم ويسرهم .

[ولا يظلمون فتيلًا] مما عملوه من الحسنات .

[ومن كان في هذه] الدنيا [أعمى] عن الحق ، فلم يقبله ، ولم ينقد له
بل اتبع الضلال .

[فهو في الآخرة أعمى] عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا
[وأضل سبيلا] فإن الجزاء من جنس العمل ، كما تدين تدان .

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها ، هل
عملت به أم لا ؟

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَكَ

وأنهم لا يؤخذون بشرع نبي ، لم يؤمروا باتباعه ، وأن الله لا يعذب أحداً ، إلا بعد قيام الحجة عليه ، ومخالفته لها ، وأن أهل الخير ، يعطون كتبهم بأيمانهم ويحصل لهم من الفرح والسرور ، شيء عظيم ، وأن أهل الشر بعكس ذلك ، لأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم ، من شدة غمهم ، وحزنهم وثبورهم ^(١) .

* يذكر تعالى منته على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق ، فقال :

[وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ]
أى : قد كادوا لك أمراً لم يدركوه ، وتحيلوا لك ، على أن تفتري على الله غير الذى أنزلنا إليك .

فتجىء بما يوافق أهواءهم ، وتدع ما أنزل الله إليك .

[وَإِذَا] لو فعلت ما يهون [لا تخذوك خليلاً] أى حبيباً صديقاً ، أعز عليهم من أحبابهم ، لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب ، المحبة للقريب والبعيد ، والصديق والعدو .

(١) قال الراغب « الثبور » : الهلاك والفساد ، وقال فى المختار من

الصحاح : « الثبور : الهلاك والخسران . »

فيكون المعنى : إن أهل الشر لا يقدرّون على قراءة كتبهم من شدة

حزنهم ومشاهدتهم لهلاكهم وخسرانهم .

لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ
الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا
لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك ، وينابذوك العداوة ، إلا للحق الذى
جئت به ، لا لذاتك ، كما قال الله تعالى « قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون
فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .
[و] مع هذا [لولا أن ثبتناك] على الحق ، وامتننا عليك بعدم
الإجابة لداعيهم .

[لقد كدت تتركن إليهم شيئا قليلا] من كثرة المعالجة ، ومحبتك
لهدايتهم .

[إذا] لو ركنت إليهم بما يهون [لأذقناك ضعف الحياة و ضعف
الممات] .

أى : لأصبتك بعذاب مضاعف ، فى الدنيا والآخرة ، وذلك لكالم
نعمة الله عليك ، وكالم معرفتك .

[ثم لاتجد علينا نصيرا] ينقذك مما يحل بك من العذاب ، ولكن الله
تعالى عصمك من أسباب الشر ، ومن الشر ، فثبتك وهداك الصراط
المستقيم ، ولم تتركن إليهم بوجه من الوجوه ، فله عليك ، أتم نعمة ،
وأبلغ منحة .

[وإن كادوا يستفزونك من الأرض ليخرجوك منها] أى : من
بفضهم لمقامك بين أظهرهم ، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض ،
ويجولوك عنها .

إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ
لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

ولو فعلوا ذلك ، لم يلبثوا بعدك إلا قليلا ، حتى تحمل بهم العقوبة ، كما
هى سنة الله التى لا تحول ولا تبدل فى جميع الأمم .
كل أمة كذبت رسولها ، وأخرجته ، عاجلها الله بالعقوبة .

ولما مكر به الذين كفروا ، وأخرجوه ، لم يلبثوا إلا قليلا ، حتى
أوقع الله بهم بـ « بدر » وقتل صناديدهم ، وفض بيضتهم فله الحمد .
وفى هذه الآيات ، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه ،
وأنه لا يزال متملقاً لربه ، أن يثبته على الإيمان ، ساعياً فى كل سبب
موصول إلى ذلك ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أكمل الخلق ،
قال الله له :

[ولولا أن ثبتناك قد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً] فكيف

بغيره ؟ !!

وفىها تذكير الله لرسوله مِنْتَهُ عليه ، وعصمته من الشر .

فدل ذلك ، على أن الله يحب من عباده ، أن يتفطنوا لإنعامه عليهم -
عند وجود أسباب الشر - بالعصمة منه ، والثبات على الإيمان .

وفىها : أنه — بحسب علو مرتبة العبد ، وتواتر النعم عليه من الله
يعظم ، إيمنه ويتضاعف جرمه ، إذا فعل ما يلام عليه ، لأن الله ذكّر
رسوله لو فعل — وحاشاه من ذلك — بقوله :

[إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً] .

﴿٧٨﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ
الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ

وفيها أن الله إذا أراد إهلاك أمة ، تضاعف جرمها ، وعظم وكبر ،
فيحق عليها القول من الله ، فيوقع بها العقاب ، كما هي سنته في الأمم ، إذا
أخرجوا رسولهم .

* يأمر تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة تامة ، ظاهرا ،
وباطنا في أوقاتها .

[لدلوك الشمس] أى : ميلانها إلى الأفق الغربى بعد الزوال .

فيدخل فى ذلك ، صلاة الظهر ، وصلاة العصر .

[إلى غسق الليل] أى : ظلمته ، فدخل فى ذلك ، صلاة المغرب ،
وصلاة العشاء .

[وقرآن الفجر] أى : صلاة الفجر ، وسميت قرآنا ، لمشروعية إطالة
القرآن فيها ، أطول من غيرها ، ولفضل القراءة فيها ، حيث شهدها الله ،
وملائكة الليل والنهار .

ففى هذه الآية ، ذكر الأوقات الخمسة ؛ للصلوات المكتوبات ، وأن
الصلوات الموقعة فيه فرائض ، لتخصيصها بالأمر .

ومنها أن الوقت ، شرط لصحة الصلاة ، وأنه سبب لوجوبها لأن الله
أمر بإقامتها لهذه الأوقات .

وأن الظهر والعصر ، يجمعان ، والمغرب والعشاء كذلك ، للعذر ،
لأن الله جمع وقتها جميعاً .

نَافِلَةٌ لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ

وفيه : فضيلة صلاة الفجر ، وفضيلة إطالة القراءة فيها ، وأن القراءة فيها ، ركن ، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها ، دل على فرضية ذلك . وقوله [ومن الليل فتهجد به] أى : صل به فى سائر أوقاته .

[نافلة لك] أى : لتكون صلاة الليل ، زيادة لك فى علو القدر ، ورفع الدرجات .

بخلاف غيرك ، فإنها تكون كفارة لسيئاته .

ويحتمل أن يكون المعنى : أن الصلوات الخمس فرض عليك ، وعلى المؤمنين .

بخلاف صلاة الليل ، فإنها فرض عليك بالخصوص ، ولكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك ، وليكثر ثوابك ، وتنال بذلك ، المقام المحمود ، وهو المقام الذى ، يحمذك فيه ، الأولون والآخرون ، مقام الشفاعة العظمى ، حين يتشفع الخلائق بآدم ، ثم بنوح ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى .

وكلهم يعتذر ويتأخر عنها ، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم ، ليرحمهم الله ، من هول الموقف ، وكربه .

فيشفع عند ربه ، فيشفعه ، ويقيمه مقاما ، يغبطه به ، الأولون والآخرون .

وتكون له المنة على جميع الخلق .

أَدْخِنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ
سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبُطْلُ إِنَّ الْبُطْلَ كَانَ
زَهُوقًا ﴿٨١﴾

وقوله : [وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق] أى : اجعل مداخلي ومخارجي كلها ، فى طاعتك ، وعلى مرضاتك ، وذلك لتضمنها الإخلاص ، وموافقتها الأمر .

[واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً] أى : حجة ظاهرة ، وبرهاناً قاطعاً على جميع ما آتته ، وما أذره .

وهذا أعلى حالة ، ينزلها الله العبد ، أن تكون أحواله كلها خيراً ، ومقربة له إلى ربه ، وأن يكون له — على كل حالة من أحواله — دليل ظاهر ، وذلك متضمن للعلم النافع ، والعمل الصالح ، للعلم بالمسائل والدلائل .

وقوله : [وقل جاء الحق وزهق الباطل] والحق هو : ما أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فأمره الله أن يقول ويعلم ، قد جاء الحق الذى لا يقوم له شىء ، وزهق الباطل أى : اضمحل وتلاشى .

[إن الباطل كان زهوقاً] أى : هذا وصف الباطل ، ولكنه قد يكون له صولة ورواج ، إذا لم يقابله الحق ، فعند مجيء الحق ، يضمحل الباطل ، فلا يبقى له حراك .

ولهذا لا يروج الباطل ، إلا فى الأزمان ، والأمكنه الخالية من العلم بآيات الله وبيناته وقوله : « ونزل من القرآن » إلى « إلا خساراً » .

﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢)

* أى : فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة .

وليس ذلك لكل أحد ، وإنما ذلك للمؤمنين به ، المصدقين بآياته ،
العاملين به .

وأما الظالمون بعدم التصديق به ، أو عدم العمل به ، فلا تزيدهم آياته
إلا خساراً .

إذ به تقوم عليهم الحجة .

فالشفاء الذى تضمنه القرآن ، عام لشفاء القلوب ، من الشبه ، والجهالة ،
والآراء الفاسدة والانحراف السيئ ، والقصود الرديئة .

فإنه مشتمل على العلم اليقين ، الذى يزول به كل شبهة وجهالة .

والوعظ والتذكير ، الذى يزول به كل شهوة ، تخالف أمر الله .

ولشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها .

وأما الرحمة ، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل ، التى يحث عليها ،
متى فعلها العبد ، فاز بالرحمة والسعادة الأبدية ، والثواب العاجل
والآجل .

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا
مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾
قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ
هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

هذه طبيعة الإنسان ، من حيث هو ، إلا من هداه الله .
فإن الإنسان — عند إنعام الله عليه — يفرح بالنعمة ، ويبطر بها ،
ويعرض ، وينأى بجانبه عن ربه ، فلا يشكره ، ولا يذكركه .
[وإذا مسه الشر] كالمرض ونحوه [كان يئوساً] من الخير ، قد
قطع ربه رجاءه ، وظن أن ما هو فيه ، دائم أبداً .
وأما من هداه الله ، فإنه — عند النعمة — يخضع لربه ، ويشكر نعمته ،
وعند الضراء ، يتضرع ، ويرجو من الله عافيته ، وإزالة ما يقع فيه ، وبذلك
يخف عليه البلاء .
* أى : [قل كل] من الناس [يعمل على شاكلته] أى : على ما يليق به
من الأحوال .
إن كانوا من الصفوة الأبرار ، لم يشاكلهم إلا عملهم رب العالمين .
ومن كانوا من غيرهم من الخذولين لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين ،
ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم .
[فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً] فيعلم من يصلح للهداية ، فيهديه ،
ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي
وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

* وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل ، التي يقصد بها التعنت والتعجيز ،
ويدع السؤال عن المهم ، فيسألون عن الروح ، التي هي من الأمور الخفية ،
التي لا يتقن ^(١) وصفها وكيفيتها ، كل أحد ، وهم قاصرون في العلم الذي
يحتاج إليه العباد .

ولهذا أمر الله رسوله ، أن يجيب سؤالهم بقوله : [قل الروح من أمر ربي]
أي : من جملة مخلوقاته ، التي أمرها أن تكون فكانت .

فليس في السؤال عنها ، كبير فائدة ، مع عدم علمكم بغيرها .
وفي هذه ^(٢) الآية دليل ، على أن المسئول إذا سئل عن أمر ، الأولي به

(١) « لا يتقن الخ » الصواب أن يقال : إن الروح من الأمور الخفية
التي لا يعلم حقيقتها ، ووصفها إلا الله « لأن قوله « لا يتقن وصفها كل
أحد » يؤهم أن بعض الناس يتقن وصفها ، والواقع أن جميع الخلق متساوون
في جهالتهم لحقيقة الروح ووصفها .

(٢) في الأصل المطبوع « وفي هذه الآية دليل على السؤال إذا سئل
عن أمر ، الأولي بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه ويدل على ما يحتاج
إليه ويرشده إلى ما ينفعه » وهو تعبير لا يدل على المقصود . وفيه ركاكة
في التعبير وعدم انسجام في الأسلوب ولذلك أصلحنا العبارة كما ترى ليكون
المعنى واضحاً .

وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ
لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ
كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

آن بمرض عن إجابة السائل عما سأل عنه ، ويدله على ما يحتاج إليه ،
ويرشده إلى ما ينفعه .

* يخبر تعالى أن القرآن والوحى ، الذى أوحاه إلى رسوله ، رحمة منه عليه ،
وعلى عباده ، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله ، فإن فضل الله عليه
كبير ، لا يقادر قدره .

فالذى تفضل به عليك ، قادر على أن يذهب به ، ثم لا تجد راداً يرده ،
ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه .

فَلَمَّا تَغَتَّبِطْ بِهِ ، وَلْتَقَرَّ بِهِ عَيْنُكَ ، ولا يحزنك تكذيب المكذبين ،
ولا استهزاء الضالين .

فإنهم عرضت عليهم أجلُّ النعم ، فردوها ، لهوانهم على الله ،
وخذلانه ^(١) لهم .

(١) الصواب أن يقال وخذلانه إياهم لأن « خذل » يتعدى بنفسه
لا باللام فيقال « خذل الله الكافر » ولا يقال « خذل الله للكافر » .

﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا
بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ
ظَهِيرًا﴾ (٨٨) ﴿﴾

* وهذا دليل قاطع ، وبرهان ساطع ، على صحة ما جاء به الرسول
وصدقه .

حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، وأخبر أنهم لا يأتون
بمثله ، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدرُوا عليه .

ووقع كما أخبر الله ، فإن دواعى أعدائه المكذبين به ، متوفرة على رد
ما جاء به ، بنى وجه كان ، وهم أهل اللسان والفصاحة .

فلو كان عندهم أدنى تأهل ، وتمكن من ذلك ، لفعلوه .

فعلم بذلك ، أنهم أذعنوا غاية الإذعان ، طوعا وكرها ، وعجزوا
عن معارضته .

وكيف يقدر الخلق من تراب ، الناقص من جميع الوجوه ، الذى ليس
له علم ، ولا قدرة ، ولا إرادة ، ولا مشيئة ، ولا كلام ولا كمال ، إلا من ربه
أن يعارض كلام رب الأرض والسموات ، المطلع على سائر الخفيات ، الذى
له الكمال المطلق ، والحمد المطلق ، والمجد العظيم ، الذى لو أن البحر يمدّه
من بعده سبعة أبحر مدادا ، والأشجار كلها أقلام ، لنفذ المداد ، وفنيت
الأقلام ، ولم تنفذ كلمات الله .

فكما أنه ليس أحد من المخلوقين ، مماثلا لله فى أوصافه ، فكلامه
من أوصافه ، التى لا يماثله فيها أحد .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ
فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ
تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ

فليس كمثله شيء، في ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله تبارك وتعالى .
فتباً لمن اشقبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق ، وزعم أن محمداً
صلى الله عليه وسلم ، افتراه على الله واختلقه من نفسه .

* يقول تعالى : [ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل]
أى : نوعنا فيه المواعظ والأمثال ، وثبتنا فيه المعاني ، التي يضطر إليها
العباد ، لأجل أن يتذكروا ويتقوا .

فلم يتذكر إلا القليل منهم ، الذين سبقت لهم من الله ، سابقة السعادة ،
وأعانهم الله بتوفيته .

وأما أكثر الناس ، فأبوا إلا كفوراً لهذه النعمة ، التي هي أكبر
من جميع النعم ، وجعلوا يتعنتون عليه باقتراح آيات ، غير آياته ، يخترعونها
من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة .

فيقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي أتى بهذا القرآن
المشتمل على كل برهان وآية :

[لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً] أى أنها را جارية .

[أو تكون لك جنة من نخيل وعنب] فتستغنى بها عن المشى
في الأسواق والذهاب والرجى .

وَعَنْبٍ فَتَفْجَرُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ
إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ

[أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً] أي : قطعاً من العذاب .

[أو تأتي بالله والملائكة قبيلًا] أي جميعاً ، أو مقابلة ومعاينة ،

يشهدون لك بما جئت به .

[أو يكون لك بيت من زخرف] أي : مزخرف بالذهب وغيره .

[أو ترقى في السماء] رقياً حسياً .

[و] مع هذا [لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه] .

ولما كانت هذه تعنتات ، وتعجيزات ، وكلام أسفه الناس وأظلمهم ،

المتضمنة لرد الحق ، وسوء أدب مع الله ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ،

هو الذي يأتي بالآيات — أمره الله أن ينزله فقال :

[قل سبحان ربي] عما تقولون علواً كبيراً ، وسبحانه أن تكون أحكامه

وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة ، وآرائهم الضالة .

[هل كنت إلا بشراً رسولاً] ليس بيده شيء من الأمر .

وهذا السبب ، الذي منع أكثر الناس من الإيمان ، حيث كانت

الرسول ، التي ترسل إليهم من جنسهم بشراً .

أَهْدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ
فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ
مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ
بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

وهذا من رحمته بهم ، أن أرسل إليهم بشراً منهم ، فإنهم لا يطيقون
التلقى من الملائكة .

[قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين] يثبتون على رؤية
الملائكة ، والتلقى عنهم [لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا] ليكنهم
التلقى عنه .

[قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا] .
فمن شهادته لرسوله ما أيد به من المعجزات ، وما أنزل عليه
من الآيات ، ونصره على من عاداه وناوأه .
فلو تقول عليه بعض الأقاويل ، لأخذ منه باليمين ، ثم لقطع منه الوتين .
فإنه خبير بصير ، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية .

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا وَصَّمَآئًا وَّهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ

* يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال .

فمن يهده ، فيسره لليسرى ويجنبه العسرى ، فهو المهتدى على الحقيقة . ومن يضلله ، فيخله ، ويكله إلى نفسه ، فلا هادى له من دون الله . وليس له ولى ينصره من عذاب الله ، حين يحشرهم الله على وجوههم خزيآ ، عميآ ، وبكآ ، لا يبصرون ، ولا ينطقون . [ماوهم] أى مقرهم ودارهم [جهنم] التى جمعت كل هم ، وغم ، وعذاب .

[كلما خبت] أى : تهبأت للانطفاء [زدناهم سعيراً] أى : سحرناها ^(١) بهم لا يفتر ^(٢) عنهم العذاب ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولم يظلمهم الله تعالى بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذى أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم فأنكروا تمام قدرته .

(١) سحرناها أى : زدناها التهايا واشتعالا .

(٢) لا يفتر : أى لا يضعف قوة العذاب ولا ينكسر حدة ألمه قال الراغب « الفتور : سكون بعد حدة ، ولين بعد شدة ، وضعف بعد قوة » وفى المختار من الصحاح « الفترة الانكسار والضعف » وفى القاموس « فتر يفتر ويفتر فتورا وفتاراً : سكن بعد حدة ، ولان بعد شدة » .

جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِبَيِّنَاتٍ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا
 أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا
 لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنتُمْ
 تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

[وقالوا إذا كنا ترابا وعظاما إنا لمبعوثون خلقاً جديداً]
 أى : لا يكون هذا لأنه فى غاية البعد عن عقولهم الفاسدة .
 [أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض] وهى أكبر من
 خلق الناس .
 [قادر على أن يخلق مثلهم] بلى ، إنه على ذلك قدير .
 [و] لكنه قد [جعل لهم أجلا لا ريب فيه] ولا شك ، وإلا فلو شاء
 لجاءهم به بفتة ، ومع إقامة الحجج والأدلة على البعث .
 [فأبى الظالمون إلا كفورا] ظلما منهم واقتراء .
 [قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى] التى لا تنفذ ولا تبديد .
 [إذا لأمسكنم خشية الإنفاق] أى : خشية أن ينفد ما تنفقون منه ،
 مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله ، ولكن الإنسان مطبوع على الشح
 والبخل .

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَنَسَلَ
بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى
مَسْحُورًا﴾ (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ (١٠٢) فَأَرَادَ

* أى : لست أيها الرسول المؤيد بالآيات ، أول رسول كذبه الناس .

فلقد أرسلنا قبلك ، موسى بن عمران السليم ، إلى فرعون وقومه ،
وآتيناه [تسع آيات بينات] كل واحدة منها ، تكنى لمن قصده اتباع الحق
كالحية ، والعصا ، والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع ، والدم ، واليد ،
وفلق البحر .

فإن شككت فى شىء من ذلك [فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال
فرعون] مع هذه الآيات [إني لأظنك يا موسى مسحوراً] .

[قال] له موسى [لقد علمت] يا فرعون [ما أنزل هؤلاء] الآيات
[إلا رب السموات والأرض بصائر] منه لعباده ، فليس قولك هذا ،
بالحقيقة ، وإنما قلت ذلك ، ترويحاً على قومك ، واستخفافاً لهم .

[وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ^(١)] أى ممتوتاً ملقى فى العذاب لك
والدم والعنة .

(١) قوله مثبوراً . أى : ناقص العقل قال الراغب : وقوله تعالى [وإني
لأظنك يا فرعون مثبوراً] قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى ناقص العقل
وتنقصان العقل أعظم هلك « اهـ .

أَنْ يَسْتَفْزَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا
مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ائْتُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ
جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾
وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

[فأراد] فرعون [أن يستفزهم من الأرض] أى: يجلهم ويخرجهم منها.
[فأغرقناه ومن معه جميعاً] وأورثنا بنى إسرائيل أرضهم وديارهم .
واهذا قال : [وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء
وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً] أى : جميعاً ، ليجازى كل عامل بعمله .
* أى : وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم ، لأمر العباد ، ونهيهم ،
وثوابهم ، وعقابهم .
[وبالحق نزل] أى : بالصدق والعدل ، والحنظ من كل
شيطان رجيم .
[وما أرسلناك إلا مبشراً] من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل .
[ونذيراً] لمن عصى الله ، بالعقاب العاجل والآجل .
ويلزم من ذلك ، بيان ما يبشر به وينذر .

﴿وَقُرْءَانًا قُرْآنَهُ لَتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (١٠٦) قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَنْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾

* أى : وأنزلنا هذا القرآن مفروقاً ، فارقاً بين الهدى والضلال ، والحق والباطل .

[لتقرأه على الناس على مكث] أى : على مهل ، ليتدبروه ، ويفكروا فى معانيه ، ويستخرجوا علومه .

[ونزلناه تنزيلاً] أى : شيئاً فشيئاً ، مفروقاً فى ثلاث وعشرين سنة .

« ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » .

فإذا تبين أنه الحق ، الذى لا شك فيه ولا ريب ، بوجه من الوجوه .

[قل] لمن كذب به ، وأعرض عنه : [آمنوا به أو لا تؤمنوا] .

فليس لله حاجة فيكم ، ولستم بضاربه شيئاً ، وإنما ضرر ذلك عليكم .

فإن لله عبادة غيركم ، وهم الذين آتاهم الله العلم النافع : [إذا يلقى عليهم

يخرون للأذقان سجداً] أى : يتأثرون به غاية التأثر ، ويخضعون له .

[ويقولون سبحان ربنا] عمالاً يليق بحلاله ، مما نسب إليه الشكر .

[إن كان وعد ربنا] بالبعث والجزاء بالأعمال [لمفعولاً] لا خلف فيه

ولا شك .

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ

[ويخرون للأذقان] أى : على وجوههم [ييكون ويزيدهم] القرآن [خشوعا] .

وهؤلاء كالذين من الله عليهم من مؤمنى أهل الكتاب كعبدالله ابن سلام وغيره ، ممن أسلم فى وقت النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد ذلك . * يقول تعالى لعباده : [ادعوا الله أو ادعوا الرحمن] أى : أيهما شئتم .

[أيأما تدعوا فله الأسماء الحسنى] أى : ليس له اسم غير حسن ، أى : حتى ينهى عن دعائه به ، أى اسم دعوتومه به ، حصل به المقصود ، والذي ينبغى أن يدعى فى كل مطلوب ، مما يناسب ذلك الاسم .

[ولا تجهر بصلاتك] أى : قراءتك [ولا تخافت بها] فإن فى كل من الأمرين محذوا .

أما الجهر ، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه ، سبوه ، وسبوا من جاء به .

وأما الخافتة ، فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء .

[وابتغ بين ذلك] أى : اتخذ بين الجهر والإخفات [سبيلا] أى : تتوسط فيما بينهما .

[وقل الحمد لله] الذى له الكمال ، والثناء ، والحمد ، والمجد من جميع الوجوه ، المنزه عن كل آفة ونقص .

يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِّ وَكَبَّرَهُ
تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

[الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك] بل الملك كله الله
الواحد القهار .

فالعالم العلوى والسفلى ، كلهم مملوكون لله ، ليس لأحد من
الملك شئ .

[ولم يكن له ولى من الذل] أى : لا يتولى أحدا من خلقه ، ليتعزز
به ويعاونه .

فإنه الغنى الحميد ، الذى لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات ، فى الأرض
ولا فى السماوات ، ولكنه يتخذ — إحسانا منه إليهم ورحمة بهم
« الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

[وكبره تكبيرا] أى عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة ،
وبالثناء عليه ، بأسمائه الحسنى ، وبتحميده بأفعاله المقدسة ، وبتعظيمه
وإجلاله بعبادته وحده ، لا شريك له ، وإخلاص الدين كله له .

تم تفسير سورة الإسراء

وبلغ مقابلة على أصله والله الحمد والمنة والثناء الحسن
على يد جامعہ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدی
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين
وصلی الله على محمد وسلم تسليما كثيرا
وذلك في ٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٤

ونقله من خط المؤلف الفقير إلى ربه سليمان الحمد البسام
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين
وصلی الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

تم بحمد الله الجزء الرابع ويليه إن شاء الله الجزء الخامس
وأوله تفسير سورة الكهف

فهرس

الجزء الرابع

صفحة

- | | |
|-----|----------------------|
| ٣ | تفسير سورة يوسف . |
| ٨٤ | تفسير سورة الرعد . |
| ١٢١ | تفسير سورة إبراهيم . |
| ١٥٥ | تفسير سورة الحجر . |
| ١٨٢ | تفسير سورة النحل . |
| ٢٥٨ | تفسير سورة الإسراء . |

